الداعية الكبير الشيخ

محمد إلياس الكاندهلوي

ودعوته إلى الله

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ



دمشق - بيروت

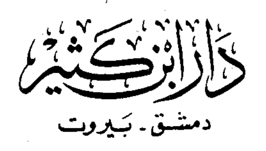
الداعية الكبير الشيخ

محمد إلياس الكاندهلوي

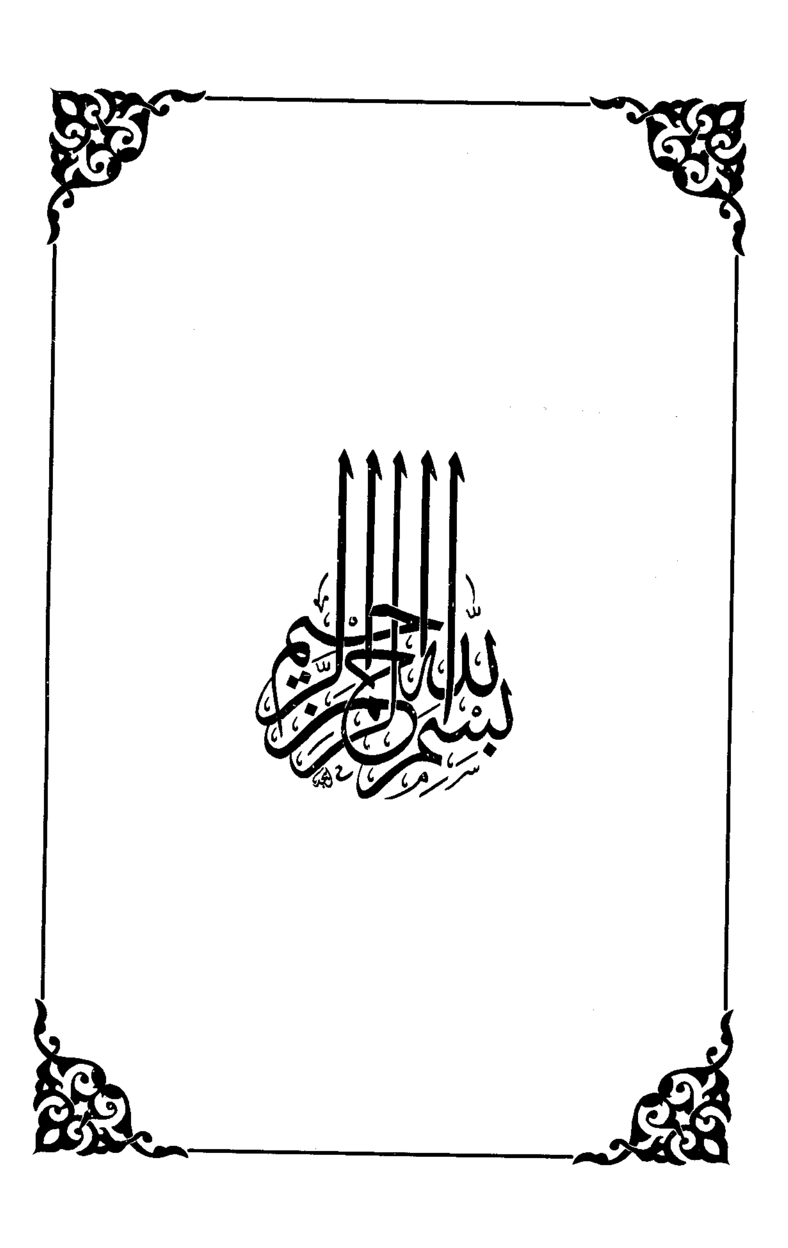
ودعوته إلى الله

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار ابن كثير

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب ١١٣/٦٣١٨ - تلفون ٨١٧٨٥٧ - ٠٣/٢٠٤٤٥٩

تقديم الكتاب

لفضيلة الداعية الكبير الشيخ محمد منظور النعماني ـ رحمه الله ـ.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد كنا نتردد برهة من الدهر في تأليف كتاب عن حياة الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ فقد كان الشيخ يوصينا ويؤكد علينا بأن لا نربط بين شخصيته ودعوته وحركته، ولم يكن يسمح ـ إطلاقاً ـ بأن تكون الدعوة إلى شخصيته، حتى إنه كان في آخر أيام حياته لم يكن يرضى بأن يذكر اسمه في التعريف بحركته، كان ذلك مؤسساً ـ عدا إخلاصه وتواضعه وإيثاره وتحفظه الشديد ـ على مصالح دعوية بعيدة المدى، ولكننا وأهل الدعوة والعاملين في هذه الحركة لم ننجح في ذلك، ولم نستطع الالتزام به، فكثيراً ما كانت مصالح الدعوة تقتضي أن يذكر مؤسسها حتى يهتم بها من كان يعرف شخصية المؤسس وإخلاصه وربَّانيته وتزداد بها ثقته، ويحسن بها

ظنه ، كما كان يلزم أحياناً لشرح أصول الدعوة وقواعدها وما ظهرت من نتائج باهرة في تطبيقها ، ذكر تجارب الداعي الأول مؤسس الحركة الشخصية ومراحل الدعوة وتطوراتها التي مرت بها في أيام مؤسسها ، ولم يكن بد حينئذ من ذكر اسم الشيخ وجهوده الجليلة ، وكان ذلك في أكثر الأحيان في مصلحة الدعوة وفائدتها .

ولا يزال كاتب هذه السطور والمؤلف يذكر بأننا كنا نعاتب أحد أصحاب العلم والفضل والكتابة «بدلهي» عتاباً ودياً ، على عدم حضوره لمركز الدعوة وقلة اهتمامه بها ، وكنا نحاول إقناعه بذكر أهمية هذه الدعوة وعظمتها ، فلما تطرقنا إلى ذكر شخصية الشيخ الوقور المحترمة وربانيته الصادقة وآراء كبار العلماء المعاصرين فيه ، رأينا أن الدعوة أصبحت في نظره ذات ثقل وخطورة ، ومكانة ، ولم يؤثر فيه شيء كتأثير ذلك .

لقد شعرت من خلال تلك التجارب والمصالح الدينية المتعددة بضرورة التأليف في سيرة الشيخ وتاريخ دعوته وحركته أثناء مرضه الشديد الذي لم يكن يرجى البرء منه ، وكان فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي نازلاً بالمركز في آخر أيام مرض الشيخ ، فلما أبديت له مكنون ضميري ألفيته يحمل هذا الهم ويفكر هذا التفكير ، بل قد بدأ يسجل بعض المواد المهمة ، ثم ما لبث الشيخ أن ارتحل إلى رحمة الله الواسعة ، وقوي هذا الاقتراح ، وأصبح أمراً مبرماً .

وكان في آخر أيام حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ قد اجتمع لخدمته وزيارته الأخيرة جميع العاملين والزملاء القدامى في هذه الحركة وأقارب الشيخ وذوو رحمه ، وكاد هذا العقد الفريد أن ينفرط ، وأوشك الجمع على التفرق ، ولم يكن بوسع أحد أن يقول : إن هذه المجرة سوف يزدان بها الفضاء مرة ثانية ، فاستفاد الشيخ أبو الحسن من تلك الفرصة السانحة أيما إفادة ، وجمع المعلومات المهمة ـ التي لا يمكن بدونها تأليف كتاب عن حياة أيِّ شخص ـ عن الشيخ من ذوي قرابته وأصحابه القدامى ، وسألهم أسئلة مهمة جمع عن طريقها مواد قيمة ، وجزئيات وتفاصيل كثيرة ، واستفسرهم عن السنين ، وضبط مراحل الدعوة وتطورات الحركة .

وقد حمل معه من مركز الدعوة بنظام الدين «بدلهي» مجموعة قيمة من الرسائل التي كتبها الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى كثير من أصحابه والتي ملأ بها بعضاً من الفراغ في سيرته ، وكانت أكبر مجموعة من الرسائل وأفضلها فيما يتعلق ببيان مبادىء الدعوة وأصولها عند الشيخ نفسه ، فقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ قد وجه أهم رسائله وأكثرها توضيحاً وتفصيلاً في شرح دعوته وبيان حركته ـ في حدود علمي ـ إلى المؤلف نفسه ، وقد استفاد منها المؤلف كل الإفادة ، وكما بعث إليه كثير من الأحباب والأصدقاء ـ بعد علمهم باشتغاله بتأليف عن حياة الشيخ ـ بجملة رسائل الشيخ عندهم ، وقد أفادت وأضافت مادة قيمة .

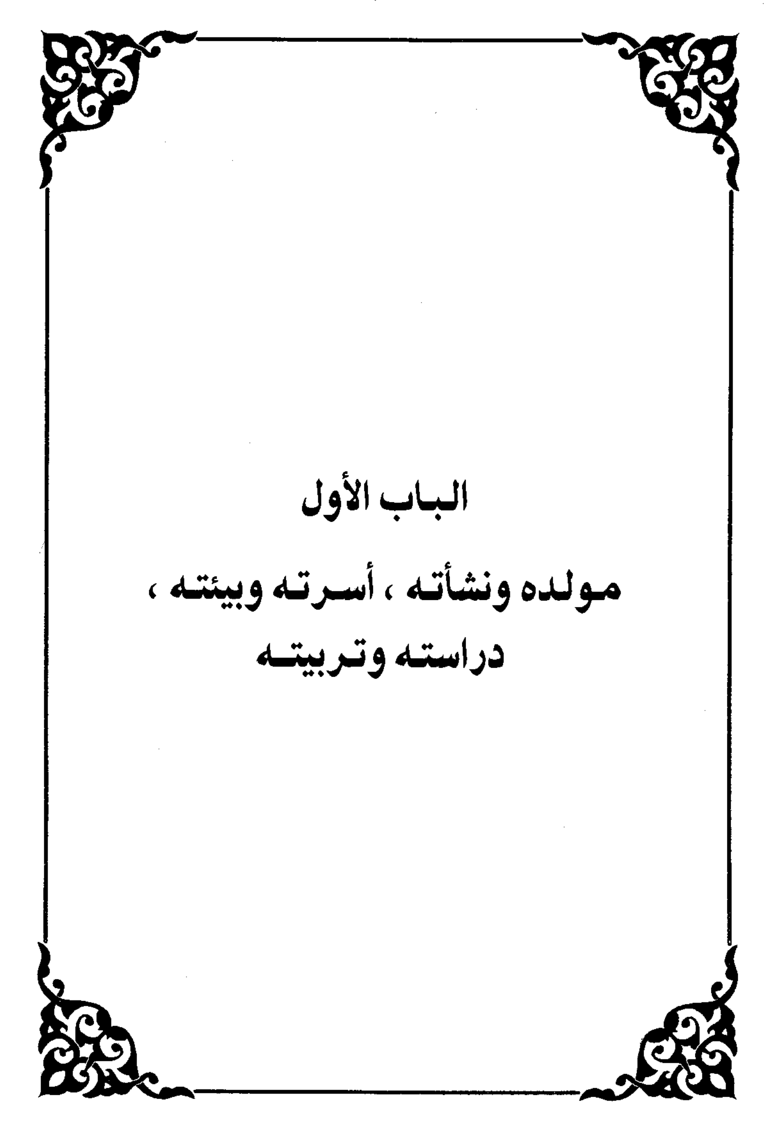
وأتت أكبر مساعدة وأنفعها في هذا الصدد من العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ فقد جمع المواد التاريخية المتعلقة بحياته بجد واهتمام وتحقيق ، حتى صرفت أحياناً الأيام والليالي في البحث عن سنة أو تاريخ لحادث والتحقيق فيه ، واستخراج الأشياء والحلقات المفقودة من مذكراته ، وأوراقه وكتاباته القديمة ، وهكذا استكمل هذا الكتاب ، ثم حصلت له مجموعة أخرى كبيرة عندما كان الكتاب ماثلاً للطبعة الثانية باهتمام العلامة المرحوم وعنايته ، وقد زيد فيها عدد كبير من المقتطفات في هذا الكتاب ، نفخت في الكتاب روحاً جديدة وأمدته بقوة عالية ، وهكذا فقد كانت تأييدات من الله تترى في إنجاز هذا العمل ، واجتمعت له من المادة التاريخية ما لم يكن بالحسبان .

وبعد أن تمت المسودة وأصبحت معدة للطباعة ، رأينا من الضرورة أن يعرض هذا الكتاب على أصحاب الشيخ القدامى ومن كانت له معرفة خاصة به ، حتى نزداد ثقة واطمئناناً بأن كل ما جاء فيه من الأحداث والتصريحات تستند إلى أصل صحيح ، وقد قرىء ـ لأجل ذلك ـ هذا الكتاب في إحدى رحلاتنا إلى ميوات في شهر ديسمبر عام ١٩٤٤م عدة مرات ، وزيد في تهذيبه وتوثيقه .

والمؤلف ـ حفظه الله ـ كان من أجدر الناس وأقدرهم على تأليف كتاب في حياة الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ فقد كان موضع ثقته وعطفه الخاص ، لوجود روابط دينية

ودعوية بين أسرة الشيخ وأسرة الشيخ أبي الحسن ، وكان يقوم في كثير من الأحيان بدور المترجم والمعبر عن فكرته ودعوته بالخطابة في الجماهير ، والحديث إلى العلماء ورجال التعليم الديني ، والمثقفين بالثقافة العصرية ، وقد جمع رسائله في كتاب مفرد واطلع الشيخ على ما كتبه الشيخ أبو الحسن في التعريف بمبادئه وأسس دعوته فارتضاه ، ولذلك جاء هذا الكتاب في مكانه وأوانه وصدر عن قلم خبير ، وكاتب بصير ، تقبَّله الله ونفع به .

محمد منظور النعماني
لكهنؤ ، الهند



الباب الأول

مولده ونشأته ، أسرته وبيئته ، دراسته وتربيته

الباب الأول

مولده ونشأته ، أسرته وبيئته ، دراسته وتربيته

مولده ونشأته:

كانت ولادة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في سنة ١٣٠٣هـ ، وقد عاش أيام طفولته في خؤلته (في «كاندهله» (KANDHLA) إحدى القرى الجامعة في مديرية «مظفر نكر» في ولاية «أترابرديش» بالهند) ، وعند والده الشيخ محمد إسماعيل في «بستي نظام الدين» بدهلي الجديدة.

كانت أسرته مهد العلم والدين والورع ، حتى أن قصص حرص السيدات في هذه الأسرة على العبادة والتلاوة والذكر ، ومواظبتهن على الأوراد والتسبيحات ، وإحيائهن الليالي ، وقيامهن بتلاوة السور القرآنية ، مما لا تسمو إليه همة كثير من الذكور في هذه الأيام ، فقد كنّ يحافظن على السنن والنوافل بما فيها صلاة التراويح في رمضان ، وكان شهر رمضان المبارك ربيع القرآن الكريم ، حيث يتذوقن تلاوة القرآن ويتلذذن به.

وكانت المجالس والمحافل في هذه الأيام في داخل البيت وخارجه معمورة بقصص وحكايات العلامة الشيخ عبد العزيز الإمام ولي الله الدهلوي، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد[١]، وقصص أسرتهما، كانت أحاديث تدور على الألسنة، والأمهات وربات البيوت يتلون على الصغار هذه القصص الباعثة للروح والمثيرة للإيمان والحنان، وذلك مكان القصص المسلِّية والسمر الممتع الملهي الذي اعتادته كثير من البيوتات والأسر.

والــده:

والده هو العالم الرباني الشيخ محمد إسماعيل الذي ينتمي إلى أسرة كريمة عريقة في العلم والدين، ينتهي نسبها إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت إقامته بدلهي الجديدة، وأما مسقط رأسه ووطنه الأم «العريق فهو قرية: «جهنجهانه» (JHANJHANA) في مديرية «مظفر نكر» في ولاية «أترابرديش»، وقد تزوج بعد وفاة زوجته الأولى في أسرة معروفة بحب العلم والتمسك بالدين، يلتقي نسبهما[٢] في قرية «كاندهله»

---

(١) قائد حركة الإصلاح والجهاد الكبرى في القرن الثالث عشر الهجري في الهند، ليرجع إلى كتاب المؤلف «إذا هبت ريح الإيمان» ورسالة: «الإمام الذي لم يُوفّ حقه من الإنصاف والاعتراف» طبع دار الرسالة في بيروت، وطبع «المجمع الإسلامي العلمي» في الهند.

(٢) كان كبير هذه الأسرة ومن أعلامها ورجال القرن الثالث عشر الهجري=

مما جعله يتردد إليها كثيراً، وصارت له كالوطن.

عاش حياته في العزلة والخلوة والعبادة، وكانت العبادة والتلاوة، وخدمة الغادين والرائحين من المسافرين، وتعليم القرآن والدين، شغله الشاغل في ليله ونهاره، فقد كان على قمة من التواضع وإنكار الذات، حتى إنه إذا رأى أجيراً كادحاً يستثقل الحمل، ويشكو العطش، يضع حمله عنه بيديه، وينزع الماء بالدلو من البئر بنفسه، ويسقيه، ثم يركع ركعتين شكراً لله الذي وفَّقه لخدمة عباده دون جدارة واستحقاق، يواظب على الأذكار والأدعية المأثورة في الحديث لمختلف الأوقات والأحوال، وعجنت طينته بحب الهدوء والسلام، ومعاشرة الناس في جو الحب والوئام والانسجام، فلم يَشْكُ من أحد قط، وظل موضع الحب والإعجاب والثقة من العلماء، وقاد مختلف طبقات

= الكبار، المفتي إلهي بخش الكاندهلوي، من كبار تلاميذ مسند الهند الإمام عبد العزيز (ابن الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المشهور بولي الله الدهلوي المُحدّث) ولد في ١١٦٢هـ، وتوفي في ١٢٤٥هـ، كان المرجع في الفتوى، يقول الشعر بالعربية والفارسية، والأردية، وله نحو أربعين مؤلفاً بالعربية والفارسية، راجع السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في شيخوخته، واتصل به اتصالاً وثيقاً مما يدل على إخلاصه وعلوِّ همَّته.

المسلمين الذين كان بينهم خلاف شديد وكراهية متبادلة، لا يصلي بعضهم خلف بعض.

بداية الاتصال بمنطقة «ميوات»:

ولاتصاله بمنطقة «ميوات» (التي جعلها ابنها العظيم البار الرشيد الشيخ محمد إلياس فيما بعد أكبر مجالات جهده الدعوي، وصبّ فيها عصارة محاولاته) قصة طريفة تبعث على الأذكار، وهي أنه خرج يوماً يبحث عمن يجلبه إلى المسجد، ويصلي معه بالجماعة، فوقع بصره على عدد من المسلمين، فسألهم ماذا ينالون من الأجرة؟ فأشاروا إلى الكمية التي كانوا ينالونها في يومهم، فقال: أفما يغنيكم أن تجدوا هذه الكمية ههنا، ولا تتعبوا أنفسكم بذلك العمل؟ فقالوا: ذلك ما نبغي، فأدخلهم المسجد، وجعل يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الصلاة، ويدفع إليهم الأجرة التي كانوا ينالونها يومياً، ويشغلهم بقراءة القرآن، وتعلم الصلاة وآدابها وأحكامها، حتى عودهم على الصلاة وخرّجهم عليها، فشغلوا بها عن العمل، وكان هؤلاء هم نواة مدرسة «مسجد الكوخ» التي ازدهرت فيما بعد، ومنذئذ ظل يتعلم فيها ١٠ ـ ١٢ ميواتياً على الأقل، يقيمون في المدرسة، ويأكلون من مائدة الشيخ محمد إسماعيل رحمه الله.

واستأثرت به رحمة الله في ٤ من شوال سنة ١٣١٥هـ، الموافق

٢٦ من فبراير سنة ١٨٩٨م ، وكانت جنازته مشهودة ، صلى عليه الناس مرات عديدة ، ومن شدة الزحام تأخّر دفنه كثيراً عن الوقت المحدد.

خلّف رحمه الله ثلاثةً من البنين: الشيخ محمد ـ وهو أكبر أشقائه ، وكان من زوجته الأولى ـ والشيخ محمد يحيى ، والشيخ محمد إلياس ، من الزوجة الثانية.

أمــه:

كانت أمه السيدة صفية حافظة للقرآن الكريم ، وقد حفظته بعد الزواج ، حين كان ابنها الشيخ محمد يحيى رضيعاً ، كانت تتلو القرآن كله ، وعشرة أجزاء زيادة عليه كل يوم في شهر رمضان المبارك ، وعلى ذلك فكانت تتلو القرآن في كل رمضان أربعين مرة ، وذلك بجانب القيام بشؤون البيت ووظائفه ، بل كانت يداها مشغولتين بعمل من الأعمال وهي تتلو القرآن ، وأما الأذكار الدائمة التي كانت تواظب عليها إلى جانب القيام بالعمل البيتي ، فالإنسان يقضي العجب منها ، فقلما يقدر عليها رجل قوي متفرغ صاحب همة عالية وعزيمة.

طفولة الشيخ محمد إلياس وثقافته البيتية:

تعلم الشيخ محمد إلياس في الكُتاب ، وقرأ القرآن الكريم ، كعادة الأطفال في أسرته ، ثم حفظ القرآن في صباه ، وكان تحفيظ

القرآن عرفاً متبعاً في الأسرة، حتى ما كان يوجد في الصلاة بالجماعة في صف ونصف صف في المسجد المجاور غير حفاظ القرآن الكريم إلاَّ المؤذن وحده.

كانت توجد فيه منذ الصبا مسحة من روح وفاء الصحابة وولائهم، وقلق واضطراب، واحتراق للدين والدعوة، حتى كان العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند (شيخ الحديث بدار العلوم بديوبند سابقاً) يقول: إني كلما أرى الشيخ إلياس أتذكر الصحابة رضي الله عنهم.

جُبِلَ الشيخ محمد إلياس على الحمية الدينية (التي زادت ونمت واتخذت صورة منظمة فيما بعد) ثم أشعلت الجمرة الإيمانية وأثارت الغيرة الدينية في قلبه بيئته التي نشأ فيها، وقصص العلماء الربانيين والمؤمنين الصادقين التي كانت تتلى في بيته، حتى غدا تصدر عنه في صباه أعمال لا تصدر عادة عمّن كان في سنّه، يقول تربه، ورفيقه في الكُتّاب، الأستاذ رياض الإسلام الكاندهلوي: حينما كنا تلميذين في الكتّاب، جاء يوماً بحطب، وقال: تعال يا أخي رياض الإسلام، نجاهد ضدّ التاركين للصلاة.

إقامته بكنكوه:

انتقل أخوه الأوسط مولانا محمد يحيى إلى العالم الربّاني المصلح الكبير الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في قرية «كنكوه» في مديرية «سهارنفور، بأترابرديش ـ الهند ـ ولازمه، يتعلّم ويتخرج

في التزكية والتربية الروحية، ويتشرب الدين.

أما الشيخ محمد إلياس فظلّ يتقلب بين خؤولته في كاندهلة وبين بستي نظام الدين أولياء[١] في دهلي، حيث كان والده مقيماً لا يبرح، وكان من إقباله الكبير على العبادة، وعطف والده عليه، لا يتمكن من التعلم والدراسة، فعرض الشيخ محمد يحيى على والده أن يرسله معه إلى «كنكوه» لأنه لا يتمكن من الإقبال على الدراسة بصورة منظمة متبعة، فسمح بذلك والده، وذهب إلى «كنكوه» في ١٣١٤هـ أو في أوائل ١٣١٥هـ يقرأ على أخيه.

كانت «كنكوه» عندئذ منتجع الصالحين والأتقياء والعلماء، وتمتع الشيخ محمد إلياس بمعايشتهم وصحبة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، و لا تخفى على الحكماء وأهل الخبرة ما تمثل هذه المجالس والمحافل الدينية ومعاشرة الأخيار والأبرار من التأثير في القلوب والنفوس، واليد في إثارة العواطف الدينية وإذكاء الفهم الديني والشعور الإسلامي، كانت هذه البيئة التي عاشها الشيخ محمد إلياس في مستقبل حياته، عاملاً أساسياً في تكوين حياته الدينية والإيمانية، أمضى فيها خير أيام حياته، التي يتأثر فيها المرء من الظروف والملابسات، والبيئة والمكان كثيراً، قدم «كنكوه» وهو في ١٠ أو ١١ من عمره، ولما توفي الشيخ الكنكوهي

---

(١) اسم الحي المشهور في دهلي.

في ١٣٢٣هـ كان شاباً يافعاً في ٢٠ من سنّه، وعلى ذلك فقد قضى (رحمة الله عليه) عشر سنوات كوامل في صحبة الشيخ (رحمه الله).

كان أخوه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي أستاذاً خبيراً، ومربياً محنكاً، فركز عنايته على أن لا تحول دراسته النظامية بينه وبين الإفادة من تلك المجالس الخيّرة، فقد روى الشيخ محمد إلياس نفسه: إنه كلما كان العلماء والمتخرجون على الشيخ الكنكوهي يحضرون، فربما كان شقيقي محمد يحيى يوقف درسي، ويقول: إن درسك الآن أن تجلس إلى هؤلاء الشيوخ وأن تصغي إلى حديثهم.

بيعة الشيخ الكنكوهي والتخرج عليه في التربية والإحسان:

كان من عادة الشيخ الكنكوهي أنه ما كان يسمح لطلبة العلم بالبيعة، والذين هم يعيشون أيام التحصيل والدراسة ممن لم يبلغوا أشدهم، لكنه قبل بيعة الشيخ محمد إلياس وهو متعلم نظراً إلى ما كان يتمتع به من الكفاءة الغنية، وتوطدت العلاقة بين الشيخ وتلميذه الروحي، وصار يحن كل منهما إلى الآخر حناناً لا يسمح أن يفارق صاحبه، مما مكّن الشيخ إلياس أن يفيد إفادة كاملة.

أسلوب الشيخ محمد يحيى في التعليم والتربية:

كانت طريقة الشيخ محمد يحيى في التعليم والتربية طريقة مبتكرة، فما كان يدرس في المراحل البدائية الكتب الدراسية، بل كان يملي القواعد والمبادىء الصرفية والنحوية على الترتيب

والتدريج فكان يبدأ بالكلمات الخفيفة القصيرة إلى الصعبة الطويلة النفس، وكان يركز على اللغة والأدب والتضلع منهما منذ البداية، وكان أول ما يدرس في كتاب «جهل حديث» (مجموعة أربعين حديثاً) لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله المحدث الدهلوي، والجزء الأخير من القرآن الكريم.

وكان يضغط على تعميق الصلاحية العلمية، وغرس حب الدراسة في قلب الطالب، وإيجاد الهواية العلمية عنده، وما كان يعنى بإنهاء المقررات الدراسية، وكان يهتم بأن لا يكون عند الطالب من الكتب الدراسية إلا ما لا يتحلَّى بالحواشي والشروح، وما كان ينتقل بالطالب من كتاب إلى آخر إلا حين يطمئن إلى أنه أصبح يقدر على فهم وتفهيم صفحات من الكتاب بدون معونة من أستاذه، ويبذل عناية خاصة بإتقان اللغة العربية، وتكوين الاستعداد العلمي، ومن هنا كان المتخرجون عليه يتسمون بروح الإتقان والتعمق، والكفاءة العلمية.

انحراف الصحة، وانقطاع الدراسة ثم الإقبال عليها بعد عودة الصحة:

كان الشيخ ضئيل الجسم نحيله، وأصيب بانحراف في الصحة أيام إقامته بكنكوه في سبيل الدراسة والتحصيل، وأصيب بصداع في الرأس، صار لا يستطيع معه أن يحني رأسه، أو يسجد حتى على الوسادة، وظل يقاسي ذلك شهوراً طويلة، كان يداويه ابن

الشيخ الكنكوهي الطبيب الأستاذ مسعود أحمد، الذي كان يسلك طريقة غريبة في العلاج، فكان يمنع المريض عن الماء، وكذلك كان مع الشيخ إلياس، وظل يلتزم تلك الحمية وتقيد بهذه الوصية الطبيّة (بفضل ما أوتي من قوة الصبر والصلابة، والعزيمة وقوة الإرادة، التي ظلت سمته في حياته) على حين تراجع المرضى أمام هذه الحمية القاسية، وظل سبع سنوات لا يصيب من الماء، وخمس سنوات لا يتناوله إلا قليلاً.

ومن أجل هذا المرض المضني، ولا سيما الضعف الذي أصاب الذهن وقوة التفكير، انقطعت دراسته ولم يكن هناك رجاء في إتمام الدراسة فيما بعد، وكان الشيخ يساوره قلق دائم وحزن قائم من أجل هذا الحرمان، والأخوة المحبون يشيرون عليه باستجمام، ولما كثر طلبه للدراسة وإلحاحه عليها، قال له أخوه يحيى يوماً: ماذا ينفعك أن تتعلم بعد هذا الضعف وانحراف الصحة؟ فأجاب: وماذا ينفعني أن أعيش جاهلاً، وأخيراً استسلم الناس لإلحاحه، وبدأ يتعلم للمرة الثانية.

وفاة الشيخ الكنكوهي:

في سنة ١٣٢٣هـ انتقل الشيخ الكنكوهي إلى رحمة الله، ولما لفظ أنفاسه الأخيرة، كان الشيخ عند رأسه يتلو سورة يس (ياسين)، وقد أثّر هذا الحادث الأليم أبلغ تأثير وأعمقه على قلب الشيخ إلياس، حتى كان يقول: أصابني في حياتي حزنان لا عهد لي

بهما، حزن وفاة والدي، وحزن وفاة شيخي وسيدي الكنكوهي، ويقول: قد قضيت وطري من البكاء، واستنفدت ماء الشؤون[١] حين وفاة سيدي الكنكوهي.

إتمام دراسة الحديث الشريف:

ارتحل في سنة ١٣٢٦هـ إلى ديوبند، وحضر دروس العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند ـ رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدار العلوم ديوبند ـ في جامع الترمذي وصحيح البخاري.

وبعد ذلك بأعوام أتم دراسة الحديث، وقرأ بقية الصحاح الستة على أخيه الشيخ محمد يحيى في ظرف أربعة أشهر.

الاتصال بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري:

وبعد وفاة الشيخ الكنكوهي اتصل بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري ـ صاحب «بذل المجهود في حلّ ألفاظ أبي داود» ـ وبايعه[٢]، وذلك على إشارة من الشيخ محمود حسن رحمه الله،

---

(١) الشؤون: مجاري الدمع في العين.

(٢) كانت البيعة ـ ولا تزال عند الشيوخ المربين الراسخين في العقيدة الصحيحة والعلم بالكتاب والسنة ـ توبة من الكفر والشرك والمعاصي والبدع، وعقد عزيمة على اتباع الكتاب والسنة والفرائض الدينية، والأذكار المأثورة، وفي ذلك تشحيذ للعزم وتجديد للإيمان والربط بالله والرسول، وقد نفع الله بذلك خلقاً كثيراً لا يعد ولا يحصى، لم يكن=

وتلقى التربية الروحية، وتخرج عليه في التزكية القلبية والإحسان.

الإمعان في العبادة، والحرص على السنن والنوافل:

بعد ما توفي الشيخ الكنكوهي، أصبح الشيخ يقضي أوقاته في صمت وسكوت، حتى تمضي عليه أيام لا ينبس ببنت شفة، يقول الشيخ محمد زكريا بن يحيى: كنا نقرأ عليه الفارسية في هذه الأيام، وكنا نحضر بكتابنا الذي نقرأ فيه، وندله على موضع درسنا بالأصبع، ونمضي نقرأ، فإذا أخطأنا في القراءة، أشار إلينا بطرف إصبعه بإغلاق الكتاب، وإنهاء الدرس، وكان غرضه من ذلك أن نعيد المطالعة والنظر في الكتاب، ثم نحضر من جديد.

وكان في هذه الأيام يكثر من صلاة النفل، يقضي الفترة فيما بين المغرب والعشاء في الصلاة، وكانت سنُّه حين ذاك تتراوح بين ١٠ ـ ٢٥ سنة.

عاطفة الجهاد:

كانت عاطفة الجهاد مشتعلة في قلبه بجانب الإكثار من الذكر والسنن والنوافل والعيش في العبادة، والمتصلون به يعرفون أن دوراً من أدوار حياته لم يخل من تلك العاطفة، وحماسة الجهاد والعزيمة مما دفعه إلى أن يبايع الشيخ محمود حسن بيعة الجهاد.

= لهم طريق ميسر لتجديد الإيمان، والربط الوثيق بالدين، خصوصاً في البلاد العجمية والبيئات الموبوءة، إلا هذا الطريق.

مكانته فيما بين العلماء والمشايخ:

كان موضع احترام فيما بين المشايخ والعلماء، يحترمه الكبار ويجلونه رغم صغر سنه، كان الشيخ يحيى ـ أخوه الأوسط ـ أكبر منه سناً، وما كان يعامله معاملة الكبير مع الصغير، بل كان في سلوكه معه إجلال وتقدير.

كان نحيل الجسم، فما يستطيع أن يقوم بأشغال تتطلب المشاق وإجهاد الجسم، وإنما يقضي أوقاته في عبادة ربه ودراسة الكتب، وأما مولانا محمد يحيى فكان رجل جد وكد، يقدر على تحمل الصعوبة والكدح الجسماني، كانت لهم مكتبة تجارية وكانت هي الوسيلة الوحيدة التي تدر لهم الرزق، وتوفر لهم المعاش، والشيخ يحيى وحده يتولى إدارتها والإشراف عليها، والقيام بأمورها، قال له يوماً رجل يقوم بأعمال هذه المكتبة في حب وإخلاص: إن الشيخ إلياس لا يسهم في عملنا، فلماذا لا تُحمّله مسؤولية تضطره إلى العمل، لأنه كذلك ينتفع بالمكتبة، وتلقى الشيخ يحيى هذا الاقتراح بكراهية شديدة، وقال: أو ما تعلمون أنه قد جاء في الحديث: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[١]، أعتقد أني إنما أرزق بهذا الولد.

---

(١) رواه البخاري مرسلاً، والحافظ أبو بكر البرقاني متصلاً.

كان الكبار من العلماء والمشايخ يعرفون تقواه وورعه وروح الإنابة التي كان يمتاز بها، فكانوا يقدمونه للإمامة بالناس في الصلاة على ملأ من كبار العلماء، فقد اتفق أنه اجتمع في «كاندهله» كل من المربي الكبير الشيخ عبد الرحيم الرائفوري، والشيخ المحدث الكبير خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ الكبير أشرف علي التهانوي، ووافاهم وقت صلاة العصر، وقدّموا الشيخ إلياس ليؤم بهم، فقال الأستاذ بدر الحسن ـ أحد كبار الأسرة ـ ممازحاً: ما أطول القطار وأثقله، وما أخف القاطرة، فأجاب أحد الحاضرين: ولكن القاطرة قوية على خفتها.

التدريس في مدرسة «مظاهر علوم» بمدينة سهارنفور:

في شوال عام ١٣٢٨هـ قام معظم أساتذة مدرسة مظاهر علوم برحلة الحج والزيارة، وعُيّن مكانهم كثير من المدرسين الجدد، وبهذه المناسبة تم اختيار الشيخ مدرساً فيها، وبعد عودة الأساتذة القدامى من رحلة الحج، استقال المدرسون الجدد، ولكن الشيخ بقي مدرساً فيها.

وكلّف في هذه المدرسة تدريس كتب دراسية ما قرأها على الأساتذة في دور التحصيل، ولكنه نجح كل النجاح في عمله التدريسي، بفضل جهده البالغ وكفاءته العلمية وشغفه بالدراسة والمطالعة، ورجوعه إلى التعليقات والشروح الطويلة.

الـزواج:

كان زواجه في ٦ من ذي القعدة سنة ١٣٣٠هـ الموافق ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٢م بعد صلاة عصر يوم الجمعة المبارك في «كاندهله» على بنت الشيخ رؤوف الحسن، وحضر تلك المناسبة السعيدة زبدة العلماء والمشايخ، أمثال الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ عبد الرحيم الرائفوري، والشيخ أشرف علي التهانوي، وألقى الشيخ أشرف علي التهانوي بهذه المناسبة خطبة قيمة بعنوان: «فوائد الصحبة» تكرر طبعها وتوزيعها.

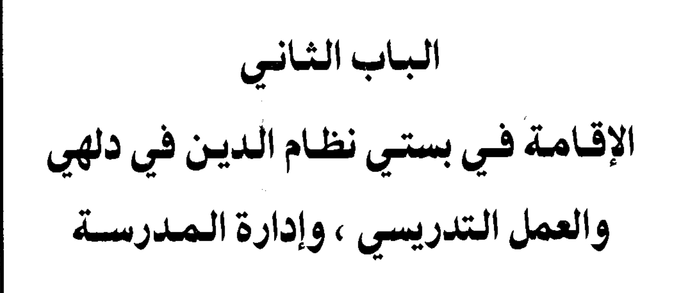
حجته الأولـى:

أراد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري في سنة ١٣٣٣هـ أن يرتحل للحج، وكذلك بعض كبار العلماء والمربّين، ولما بلغ الشيخ إلياس هذا الخبر ثار فيه الحنين إلى الحج وبرَّح به الشوق، يقول: إني أرى الهند مظلمة بعد مغادرة أمثال هؤلاء العلماء، وكان يحول بينه وبين تحقيق تلك الأمنية العزيزة اللذيذة، عوائق وصعوبات، في مقدمتها الحصول على السماح من الوالدة الموقرة، والأخ الأوسط الشيخ محمد يحيى، ثم توفير النفقة وما تكلفه الرحلة الكريمة، ولكن الله الحكيم يسر له المهمة، وذلل له الصعاب، ووفّر له كل سهولة واستطاع أن يحوز هذه السعادة، ويعود إلى الهند في ربيع الثاني سنة ١٣٣٣هـ، وظل مشغولاً بعمل التدريس في المدرسة المذكورة أعلاه.

وفاة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي:

في ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ انتقل شقيقه الأوسط الشيخ محمد يحيى إلى رحمة الله، ونزلت هذه الكارثة كالصاعقة على الشيخ محمد إلياس، وكانت محنة لصبره وقوة تماسكه، لأنه لم يكن شقيقه فحسب، بل كان كذلك مربّيه وشيخه العطوف وأستاذه الشفوق، وقد شاطره هذا الحزن المرير جميع أحبائه ودائرة أصدقائه والمرتبطين به بوجه من الوجوه، فقد كان الشيخ محمد يحيى موضع الحب والتقدير ـ من أجل مزاياه وخصائصه الكثيرة ـ بين الأنام، ولكن الشيخ محمد إلياس لم ينس مرارة هذا الحزن قط وبقي يعضه ويدمي قلبه، ويؤلم نفسه طول حياته، وكلما تذكره أثار في قلبه ذكريات حزينة، واندفع يذكر صفاته وفضله، وغناءه في لذة تفوق الوصف، وكأنه يغيب عما حوله، وينسى كل ما عنده سوى الشيخ محمد يحيى، وما يتعلق به، وكان يخص بالذكر شموله وما كان يمتاز به من حب المسالمة، وروح الاعتدال والتوازن وموهبته للجمع بين العناصر المتضادة والأجناس المتصارعة، وذكاءه العجيب، وصحة فهمه وسلامة طبعه، رحمهما الله تعالى.

* * *



الباب الثاني

الإقامة في بستي نظام الدين في دلهي والعمل التدريسي ، وإدارة المدرسة

الباب الثاني

الإقامة في «بستي نظام الدين» في دلهي ، والعمل التدريسي ، وإدارة المدرسة

وفاة الشيخ محمد :

وبعد وفاة الشيخ محمد يحيى ، وافى الشيخ محمد الأجل ـ وهو أخوه الأكبر ـ في ليلة الجمعة ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٦هـ.

كان الشيخ محمد مثالاً للحلم والتواضع ، والرأفة والرحمة ، والخشية والإنابة ، ويصدق عليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] يحب العزلة ، ويعيش في الانقطاع ، لم يؤذ أحداً بيد أو بلسان ، لا يهمه إلا عمله ، يعيش حياة البساطة والزهد والقناعة ، ينوب عن والده ويخلفه في «مسجد الكوخ»[١] ، في

(١) هو الاسم المشهور للمسجد لبساطته وابتعاده عن الزخرفة والفخامة.

بستي نظام الدين بدلهي الجديدة ، فقد كانت هناك مدرسة بدائية أسسها والده ، يتعلم في الأغلب طُلّاب من «ميوات» ، وكان الاتكال على الله والإنابة إليه هو رأس مال تلك المدرسة .

اقتراح الإخوة بانتقاله إلى «نظام الدين» :

كان الشيخ محمد إلياس مقيماً في دلهي لخدمة أخيه المريض مولانا محمد ، وكانا نازلين في حارة «قصاب بوره» في دلهي القديمة ، في المسجد الذي يدعى بـ«نواب والي مسجد» (مسجد النواب) وفيه توفي الشيخ محمد ، وحمل جثمانه إلى «نظام الدين» ودفن بها .

وبعد وفاة الشيخ محمد ، أصر المحبّون والمخلصون على الشيخ محمد إلياس أن يقيم في «نظام الدين» ويخلف أباه وأخاه في التعليم والتربية ، ويملأ الفراغ الذي وقع بوفاتهما في هذه المنطقة ، التي تقع فيها المدرسة التي بناها والده ، وعمرها أخوه ، وأكد الحاضرون أنهم لا يألون جهداً في تقديم أية معونة تحتاج إليها المدرسة ، وفعلاً قد فرضوا مبالغ يقدمونها شهرياً بانتظام. وقد رضي الشيخ إلياس بقبولها في ضوء مبادىء وشروط التزمها إلى آخر حياته ، أما انتقاله إلى «نظام الدين» وإقامته المستقلة فيها ، واستقالته من مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور التي كان مدرساً فيها فإنه علّق كل ذلك على إذن الشيخ خليل أحمد السهارنفوري .

وبعد انتهائه من دفن أخيه مضى إلى «سهارنفور» وأخبر الشيخ

السهارنفوري بالوضع الذي كان يواجهه ، وسمح الشيخ السهارنفوري بارتحاله إلى نظام الدين نظراً إلى المصالح الدينية ، وبفعل إلحاح الإخوة المحبين ، لكنه أشار عليه بأن لا يستقيل من «مظاهر علوم» ويقدم طلباً بإجازة سنة كاملة ، فإذا طابت الإقامة بنظام الدين ، واستتبّ الرأي على ذلك فإنه يمكن الانقطاع الكلي من المدرسة في كل وقت.

وقوع انحراف خطير في الصحة:

وأخذ الشيخ برأي الشيخ السهارنفوري ، وقدّم الطلب إلى عميد المدرسة ، وجعل يستعد للارتحال إلى نظام الدين ، إذ أَلَمَّ به مرض شديد ، وانطلق في الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣٣٦هـ من «سهارنفور» إلى «كاندهله» واشتد المرض بكاندهله وأصيب بدورة مرض «ذات الجنب» الشديدة ، جعلت الأسرة تقطع الرجاء من حياته ، وتخاذل جريان الدم في العروق ، وبردت يداه ورجلاه ، وجعل الناس يرددون «إنا لله وإنا إليه راجعون» لكن الله الكريم الحليم تكرم عليه بالإفاقة ، وبدأت الحالة تتحسن ، وعادت إليه صحته كاملة بعد أيام ، لأن الله قدر أن يجري على يديه الخير الكثير ، ويتم عن طريقه عمل ديني دعوي كبير.

ارتحاله إلى «نظام الدين»:

وبعد ما عوفي ارتحل إلى نظام الدين ، وكانت تلك المنطقة مقفرة تتعطّش إلى السكان ، وكان المسجد محاطاً بالغابة

الموحشة ، والأشجار الكثيفة ، يحكي الأستاذ احتشام الحسن ، الذي كان يعيش مع الشيخ منذ صباه ، الخبر فيقول:

«كنت أخرج من المسجد أبحث عن إنسان ، أقر برؤيته عيني ، وأمتع نظري ، وأؤلف قلبي ، فلئن وقع نظري على إنسان ، كنت أفرح فرح من أهدي إليه هدية مستطرفة غالية ، ولم يكن هناك إلا مسجد من الجص والآجر وكوخ ، وحجرة ، ومبانٍ في ناحية الجنوب من ضريح الشيخ الكبير نظام الدين الذي يقع على غلوة من المسجد يقيم فيها طوافون حول الضريح ، ومدرسة في المسجد بناها والد الشيخ ، وطلاب من «ميوات» وغير «ميوات» ، كل ذلك كان مادة العمران لتلك المنطقة الواسعة».

لم تكن للمدرسة موارد مستقلة تسير بها عجلتها ، وكان الاعتماد على الله ، والثقة بعونه وعلو همة عميدها ، وهو كل ما يحرك دفتها ، كانوا يعيشون في خشونة وضيق ، قد لا يجدون ما يسدون به رمقهم ويقيمون به صلبهم ، لكن الشيخ كان راضياً مسروراً ، لا تدهشه الضراء ولا تزعجه الفاقة ، ولا يفت في عضد همته ضيق العيش ، وقد يقول للطلبة في صراحة أنه لا يوجد اليوم قوت ، فمن شاء فليقم ، ومن شاء فليرتحل ، وما كان أحد تحدثه نفسه بمغادرة المدرسة ، بفضل التربية الروحية التي كانوا يتلقونها ، قد يصيبون من ثمار أشجار الغابة ، ويقضون بها حاجتهم إلى الطعام ، ويحتطبون بأنفسهم في الغابة ويخبزون بها بأيديهم ،

وقد يتناولون الخبز بدون إدام بملح وغيره ، غير أن الشيخ لم يكن تنال منه صعوبة الحياة هذه ، وكان يخوف زملاءه من السعة التي كان يرجوها بعد هذا الضيق ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وما كان يهتم بتحسين ظاهر المدرسة ، وتشييد المباني ، وقد بنى بعض تجار دهلي على محاولة زميله القديم وأحد طلاب المدرسة القدامى الحاج عبد الرحمن[١] حجرات في فرصة غياب الشيخ عن «نظام الدين» ، ولما عاد الشيخ إلياس إلى نظام الدين ، ورأى البناء الجديد ، سخط كثيراً ، ولم يحادث الشيخ عبد الرحمن

---

(١) ولد الحاج عبد الرحمن في بيت هندوكي في «ميوات» وتشرف في صباه برؤية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأسلم على يدي الشيخ محمد ـ أخ الشيخ محمد إلياس الأكبر ـ وتعلم الدين وقرأ القرآن عليه في مدرسته بـ «نظام الدين» ، وبايع الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، وظل عون الشيخ محمد ويده اليمنى ومستشاره ، طول حياته ، ونصير الشيخ إلياس وزميله في عمله الديني من بعده ، وكان الشيخ يثني عليه كثيراً ، ويشيد بذكره ويراه يد دعوته وحركته .
وكان يمتاز بعرض الدعوة في غير المسلمين ، وكان له ذوق خاص في هذه الناحية ، وكان حكيم «ميوات» الإسلامي ، أسلم على يديه أكثر من ألف إنسان ، وأسس لهؤلاء مدرسة خاصة في «سنكار» ومن مآثره العظيمة تطهير المجتمع الميواتي من التقاليد غير الإسلامية ، توفي في ١٣٦٤هـ .

إلى مدة ، وقال: إن التعليم هو كل شيء في المدرسة ، وقد جربت أن التعليم انهار منذ أن ارتفع البناء في المدرسة الفلانية .

وقد أتاه مرة تاجر كبير في دهلي ، يلتمس منه الدعاء ، وقدم إليه مبلغاً كبيراً ، فأبى أن يقبله ، ولكن الشيخ عبد الرحمن قبله نظراً إلى ضرورات المدرسة ، ولما اطَّلع الشيخ على ذلك أصبح في قلق واضطراب ولم يقر له قرار حتى أعاد المبلغ إلى صاحبه ، كان يقول للشيخ عبد الرحمن: إن العمل الدعوي والديني لا يتم بالروبيات والمال ، ولو كان كذلك لأوتي النبي الأعظم سيدنا محمد ﷺ كمية موفورة من المال والثروة .

العبادة والمجاهدة:

وكانت تلك الأيام أيام عبادته ، ومجاهدته ، وذوق إنابته ، وكان ذوق العبادة قد توارثه من سلفه وتجلى في أيام إقامته بنظام الدين أكثر من ذي قبل ، ويقضي معظم أوقاته في الخلوة ومناجاة الله .

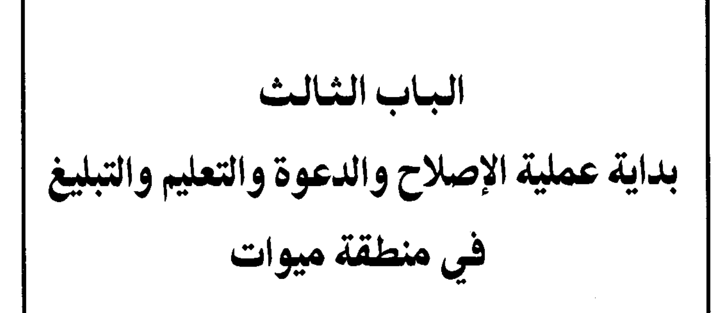
وإذا أراد أن يبدأ درس الحديث الشريف توضأ ، ثم صلى ركعتين ، ويقول: إن حرمة الحديث وعظمته تتطلبان أكثر من ذلك ، وذلك أقل ما يجب أن يصنعه المشغولون به ، ولا يقطع درس الحديث الشريف بالكلام والحديث مع الناس ، ولا يلتفت إلى أحد جاء في موعد الدرس مهما كان عظيماً .

الانهماك في التعليم وتربية الطلاب:

كان يعنى عناية كاملة بالدروس، وتربية الطلاب، يدرس الطلاب في اجتهاد بالغ، وقد يدرس في «مستدرك الحاكم» قبل صلاة الصبح.

كان له رأي خاص، وأسلوب شخصي في التعليم والتربية، يُركز على المطالعة والتحضير، ويقول لا بد أن ينظر الطلاب في الدرس قبل القراءة على الأستاذ نظرة عميقة حتى لا تبقى حاجة إلى وضع الأصبع والتصحيح، أو الإرشاد والتوجيه، ويبذل اهتماماً كبيراً بإتقان اللغة العربية وآدابها وتنفيذ قواعدها ومبادئها من الصرف والنحو عملياً، وما كان يتقيد بالمقررات الدراسية في عامة المدارس في الهند، فقد يدرس كتباً لا تتداولها مدارس أخرى، ويختار أساليب جديدة مفيدة، تقرب الفهم والإساغة إلى الطلاب، وتيسر عليهم مهمة الحفظ والاستظهار.

* * *



الباب الثالث

بداية عملية الإصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ

في منطقة ميوات

الباب الثالث

بداية عملية الإصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ في منطقة «ميوات»

المنطقة التي تقع في جنوبي عاصمة دهلي ، والتي يقطنها أمة «ميو» تدعى بـ«ميوات» ، وتشتمل على مديرية «جورجانوه» (GURGAWAN) وأمارات «ألور» (ALWER) و«بهرت بور» (BHARATPUR) الهندوكية ، وناحية من مديرية «متهرا» (MATHURA) إحدى مديريات الولايات المتحدة لاكره و«أوده» في الهند ، وظلت حدود هذه المنطقة تختلف انضواءً وامتداداً كحدود جميع المناطق في العالم ، فقد كانت في القديم مختلفة عما هي عليه اليوم .

أمة «ميو» :

يذهب المؤرخون إلى أن أمة «ميو» تنحدر من سلالة هندية

عريقة ولا يمتّون إلى السلالة «الآرية» بصلة ، وعلى ذلك فإن تاريخهم أعرق وأذهب في أعماق التاريخ من أسر راجبوت الهندية المنحدرة من السلالة «الآرية».

كانت أمة «ميو» منبع الفساد والإيذاء ، والنهب في أول أمر الدولة الإسلامية في دهلي ، يسومون الناس سوء العذاب ، ويصبون عليهم أشد النكال ، ويغيرون على دهلي من خلال الغابات المترامية الكثيفة ، وكانت أبواب أسوار المدينة تغلق قبل أن يمد الليل رواقه اتقاء لشرهم ، ولا تحدث نفس أحد بالخروج من الأسوار ، وكانوا يدخلون المدينة بحيلة أو بأخرى ، ويتحينون فرص النهب والغارة ، وكان أهل المدينة في قلق من أمرهم ، ويعيشون وضعاً مخوفاً مستمراً ، فوجه إليهم غياث الدين بلبن (م٦٨٦هـ) جيشاً كبيراً ، يغزوهم ويسكت نأمة شرهم ، فقُتِل منهم عدد وجيه ، ونصبت مراكز الخفارة في أرجاء المدينة ، يقوم بعمل الخفارة فيها «الأفغان» القوم الذين عرفوا ببطولاتهم ومغامراتهم ، وقطعت الغابات حول دهلي برجال العسكر ، وحولت إلى مزارع وحقول ، وبعد ذلك يسكت التاريخ عن ذكر ميوات طيلة قرن.

بعد تلك الفترة الطويلة ، ظل المحاربون الميواتيون المغامير يريقون دم أهل دهلي ويقلقون بال الحكومة المركزية ، مما أحوجها إلى القيام بالإجراءات الإصلاحية في منطقتهم ، ويخص التاريخ بالذكر منهم ـ في هذا الشأن ـ البطل الطموح «ناهر» وخلفاءه الذين

أقاموا حكومة مستقلة لهم في ميوات توجت بطولتهم ومجهودهم الكبير ، تحولت إلى إمارة و«إقطاعية» بعد ما غزتها الحكومة المركزية في دهلي ، ويأتي في هذا الصدد ذكر «لكهن بال» (LAKKHAN PAL) المعروف بحروبه ومغامراته ، الذي وضع يده على منطقة «ميوات» وضواحيها تقريباً ، وأسلم في عهد فيروزشاه (م ٧٩٩هـ).

أما أمة «ميو» فمتى أسلمت ، وما الحوادث والوقائع ، أو ما العوامل التي دفعتها إلى الدخول في حظيرة الإسلام ، ثم هل الأمة كلها أو جلها ، أسلمت مرة واحدة أو تدريجياً في ظرف قرون؟ إنها أسئلة لا يمكن الإجابة المشبعة عليها ، لأن تاريخ تلك الأمة البدائي ، ولا سيما تاريخ إسلامها في ظلام متكاثف ، وليس هناك مصدر يمكن الاستناد إليه ، والاعتماد عليه إلا الروايات والحكايات التي تتضارب هي الأخرى.

وضع أمة «ميو» الديني والخلقي:

بلغت أمة ميو من الانحطاط الديني ـ بحكم تهاون المسلمين فيما يتعلق بشأنهم وجهل أمة ميو ـ إلى نهاية ليس بعدها إلا الردة القومية ، وقد شعر المؤرخون من غير المسلمين أيضاً (الذين كان ينبغي أن يكون شعورهم في هذا الشأن أقل وأبلد من شعور المسلمين) ببعد ميو عن الإسلام ، ونقدم فيما يلي مقتطفاً يدل على

غاية الانهيار الديني والخلقي ، والبعد عن الإسلام وقلة الانتباه لما يتصل به .

يقول الرائدMAJOR «باؤلت» الذي كان ضابط الإدارة في منطقة «ألور» (ALWER) في المعجم الجغرافي GAZETTEER لمنطقة «ألور» الصادر في سنة ١٩٧٨م :

«كان أهل «منطقة» ميوات مسلمين إلا قليلاً ، لكن أصنام قراهم هي نفس أصنام المُلّاك من الهنادك ، يحتفلون بكثير من أعياد الهنادك ، أما أيام العيد الكبير «هولي» (HOLY) فهي أيام هزل ومزاح ، وتحرر وانطلاق ، وهو من أهم الأعياد عند الهنادك كالمحرم وعيد الفطر ، والخامس عشر من شعبان عند المسلمين ، وكذلك يحتفلون بـ «جنم اشتمي» و«دسهرا» و«ديوالي» ويوجد عندهم ناسك برهمي لكتابة «بيلي جهتي» واختيار تاريخ الزواج ، ويتسمون بأسماء هندوكية إلا كلمة «رام» ويكثرون من إلحاق كلمة «الخان» في نهاية أسمائهم ، ولكن أعجاز أسمائهم زاخرة بكلمة «سنكه» ويحتفلون في منطقة «أماوس» اتباعاً للطبقات الهندوكية المتخلفة في الاحتفال بالعطلة وينفضون أيديهم من العمل كلياً ، وعندما يحفرون بئراً فيبدؤون بصنع صفّة باسم «بروجي» أو «هنومان» ولكنهم حينما يريدون النهب والغارة فلا يبالون بقدسية الأمكنة الهندوكية المقدسة ، ومعابد الهنادك ، ولئن لفتت أنظارهم بتلك المناسبة إلى قدسيتها ، يقولون في صراحة ودون تأجيل : أنتم

«ديو» (صنم) ونحن «ميو» ، إن «ميو» في جهل أي جهل بدينهم (الإسلام) لا يوجد من يعرف كلمة «لا إله إلا الله» إلا القليل النادر ، وأما المصلون فهم في عدد أقل من ذلك ، ولا يعرفون شيئاً من أحكام الصلاة ولا مواقيتها .

وكل ما أسلفنا إلى هاهنا فهو يتعلق بـ«ألور» وأهلها ميو ، أما المنطقة الإنجليزية (مديرية «جورجانوه») فإن الوضع المتعلق بشأن التقيد بالواجبات الدينية جيد إلى حد ما من أجل المدارس وكذلك في بعض الأمكنة من «ألور» التي توجد فيها مساجد ، فإن الالتزام بالواجبات الدينية أكثر من غيرها ، وبعضهم يعرفون كلمة «لا إله إلا الله» وبعضهم يصلون أيضاً ، وبعضهم يميلون إلى الحصول على الثقافة والالتحاق بالمدارس ، وكما أسلفنا فإن الإجراءات الأولية في الزواج يشاركها البراهمة ، لكن الإجراءات الجذرية يقوم بها القاضي ، أما الملابس ، فإن الرجل يرتدي «دهوتي» و«كمرى» والسروال ، وعلى ذلك فإن ملابسهم هندوكية في الواقع وقد يستخدم الرجل حلي الذهب» .

ويقول في موضع آخر :

«إن «ميو» أشباه الهنادك في عاداتهم ، تقلُّ المساجد في قراهم ، ففي محافظة «تجارة» لا توجد مساجد في قراهم الاثنتين والخمسين إلا ثمانية مساجد ، نعم توجد لديهم معابد كمعابد مساكنيهم الهنادك ، يقدمون إليها القرابين كصنيع الهنادك ويعبدون

في الخامس عشر من شعبان في كل قرية الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي.

وجاء في معجم مديرية جورجانوه الجغرافي الصادر في ١٩١٠م:

«لا يزال أهل «ميو» حتى الآن متخاذلين ولا مبالين جداً فيما يتعلق بالإسلام، إنهم يشاركون جيرانهم في معظم التقاليد والأعراف ولا سيما التقاليد التي تبعث اللذة والسرور، ويبدو أن مبادئهم أن يحتفلوا بأعيادهم وأعياد الهنادك، ولا يقومون بواجبات إحدى الديانتين، ووجد منذ مدة قريبة دعاة دينيون، وبدأ بعض «ميو» يصومون رمضان ويبنون المساجد في القرى ويصلون، وبدأت نساؤهم يستبدلن بملابسهن الهندوكية سراويل، وكل ذلك من تباشير النهضة الدينية».

وجاء في معجم «بهرت بور»:

«إن تقاليد «ميو» مركبة من تقاليد الهنادك والمسلمين، فهم يختنون وينكحون، ويدفنون موتاهم ويؤمون بهرائج (BAHRAICH) يزورون ضريح السيد سالار مسعود غازي، والحلف الذي يتم تحت العلم الذي باسمه يرونه أمتن الأحلاف، ويرون البر به من أكبر الواجبات، ويقومون بالرحلة إلى أمكنة مقدسة أخرى في الهند، يزورونها ويتبركون بها، ولكنهم

لا يقومون برحلة الحج أبداً ، وأما أعياد الهنادك فهم يحتفلون بـ«هولي» «ديوالي» ولا يتزوجون في أسرة واحدة ، ولا يورثون المرأة ، ويسمون الأطفال بأسماء هندوكية إسلامية ، وكلهم جاهلون غير مثقفين ، ويوجد فيهم مغنون ، يمنحونهم جوائز ثمينة ويكرمونهم بمبالغ كبيرة ، وهناك أغانٍ تتعلق بالحياة الريفية والفلاحية ومواضع الزراعة ، ينشدونها في لذة وطرب ، أما لغتهم فهي شديدة اللهجة ، ولا يختلف الخطاب للرجل والمرأة ، ولا توجد صيغ على حدة لكل منهما ، ولديهم عادة استخدام المسكرات والمواد التي تبعث النشاط ، وهم متوهمون ، ضعيفو الإيمان واليقين، ميالون إلى الأوهام والظن والتخمين ، ولكن الآن لم تعد تلك العادة، كان النهب والغارة حرفتهم ، ولئن كانوا قد تساموا عن ذلك ، ودخلهم الإصلاح ، لكنهم معروفون بسرقة الحيوانات والبهائم والثور والبقر» .

مـزايـا «مـيـو» الـقـومـيـة:

وعلى الرغم من هذا الانحطاط الديني والتفسخ الخلقي ، فإن هذه الأمة تتمتع بمزايا وعادات وخصائص وصفات ، لا يتميز بها إلا الأمم الكريمة ، وكذلك فإن المفاسد الخلقية ، والنقائص التي دخلت فيها ، هي مما ينشأ في الأمم ذات البطولة والشهامة والطموح ، بفقدان التوعية والتربية الدينية ، والجهل ، والانقطاع عن العالم المتمدن والجهل بالدين ، ذلك الذي كان قد نشأ في

العرب في الجاهلية ، فقد اتجهت المحاسن والمواهب الطبيعية اتجاهاً شاذاً من أجل فساد المجتمع وتحولت الشجاعة والجرأة القومية إلى عادة النهب والغارة وقطع الطريق ، والبطولة والمغامرة تجلتا في الحروب الداخلية والتحارب والتصارع إذ لم يجدا مجالاً لائقاً توضع فيه ، وكذلك لم تستخدم الغيرة والحمية الطبيعية في موضعها ، فتحولت حمية جاهلية واستخدمت في الاحتفاظ بالكرامة المصطنعة ومعايير وموازين مخترعة ، وأخطأت بالشهامة والطموح مواضعهما ، فكان لهما صولة وجولة في الأعمال القومية التافهة ، ولم يستخدم الذكاء والنشاط والفطانة استخداماً طبيعياً كريماً فكان لذلك كله عمله في العمليات الإجرامية ، والأعمال غير الشرعية وخرق عصا الطاعة ، فكانت المواهب تضيع هدراً ، في أغراض تافهة ، ولكن الأمة لم تتجرد من الكفاءة الطبيعية .

فقد كانت ـ ولا تزال ـ البساطة ، والمجاهدة والعزم ، والفعالية والصلابة ، والأصالة هي التي يمتاز بها الميواتي عن المسلمين من سكان المدن والقرى المتمدنة ، وكأن الصلابة والأصالة هما اللتان حالتا بينهم وبين الردة ، حتى حين تباعدوا عن الإسلام إلى آخر غاية ، وهبّت عواصف التقاليد الهندوكية فيهم إلى آخر نهاية .

ومن مزايا هذه الأمة أنها ظلت في حظيرة الجهل والخمول مدة قرون ، تعيش في عزلة عن العالم مهجورة مطمورة ، مجهولة

مغمورة ، ولا نجد في تاريخ الهند الطويل أمة في هذا العدد الهائل تعيش على غلوة من العاصمة المركزية ، وتكون خاملة مجهولة إلى هذا المدى ، وكانت نتيجة ذلك أنه قلّما ضاعت قواها الفكرية والعملية ، وبقيت مصونة مذخورة إلى حد كبير ، وإذا كانت ألواح قلوبهم خالية من رسوم الصلاح والفلاح ، والفضل والكمال والحسن والجمال ، فإنها بقيت صافية من كتابات خاطئة مميتة دقيقة يستعصي محوها ، وتتعسر إزالتها ، وكأن هذا الحقل لم يزرع بعد ، ولم تمسه يد الفلاح ، أما العادات الفاسدة ، والأوهام الخاطئة ، والتقاليد الجاهلية ، والأعراف الهندوكية ، فكانت كالزبد يذهب جفاءً ، أو غثاءً كغثاء السيل ماله من قرار ، أو كحشائش شيطانية متطفلة نبتت على أرض مهجورة منذ قرون طويلة ، وكانت هذه الأمة في القرن الرابع عشر الهجري أشبه ما تكون بالعرب في الجاهلية .

الاتصال بأمة «ميو» :

قد أسلفنا أن الاتصال بميوات ، كان قد بدأ في حين حياة الشيخ محمد إسماعيل والد الشيخ محمد إلياس ، ولم يكن هذا الاتصال أمراً اتفاقياً رهين المصادفة ، بل كان تقدير الله العزيز الحكيم العليم ، حيث ألهم الشيخ محمد إسماعيل أن يلقي عصا الغربة في بستي نظام الدين باب ميوات ومدخلها ، وبذلك بذر الله حُبّ الأسرة الكريمة التي ينتمي إليها الشيخ محمد إلياس في قلوب سكان

ميوات ، حتى أصبحوا يرتمون في حضنه مدفوعين بالحب والودّ ، يحدوهم الإعجاب والتقدير وهم أولئك الذين لم يستطع الملوك والسلاطين أصحاب الجنود والبنود ، والسلطة المطلقة ، والسيطرة المخوفة أن يسخروهم ويكبتوا من جماحهم ويخففوا من غلوائهم.

وعلى كل فلما علم أهل الميوات أن المكان الشاغر بموت الشيخ محمد إسماعيل والشيخ محمد عاد مشغولاً بالشيخ محمد إلياس ـ ابن الشيخ محمد إسماعيل وأخي الشيخ محمد ـ بدؤوا يترددون إلى نظام الدين من جديد ، وأكثروا من الاختلاط والاحتكاك ، وعرضوا على الشيخ إلياس أن يشرفهم بزيارة منطقتهم ويمنحهم فرص الاستفادة.

التعليم الديني هو العلاج الوحيد:

كان الشيخ محمد إلياس يرى أن الطريق الوحيد لإصلاح «ميوات» هو بثّ التعليم الديني في المجتمع الميواتي ، حتى يطّلع الميواتيون على أحكام الإسلام وتعاليم القرآن ، ويزول الجهل المخيم ويتبلَّج الصبح الصادق ، وينسحب الليل الغاسق ، الذي أعمى عقولهم وأبصارهم.

وسلك الشيخ محمد إسماعيل من قبل نفس الطريق ، فقد أدخل كثيراً من أبناء الميواتيين في مدرسته بنظام الدين ، وفقّههم في الدين ، وأرسلهم إلى «ميوات» دعاة هُداة يعلّمون الآخرين

ما تعلموا ، وإليهم يرجع الفضل فيما أشرق من نور الإصلاح في هذه المنطقة ، وظهرت من بوادر الخير والميل إلى الدين هنا وهناك.

ولكن الشيخ محمد إلياس أراد أن يخطو خطوة أخرى ، ويقيم في «ميوات» نفسها كتاتيب ومدارس حتى يعم الشعور بالدين ويتوسع نطاق الخير والصلاح الذي بدأت بوادره ، بدءاً في حركة أشمل وأوسع وأعمق للإصلاح والتبليغ والتجديد الديني في البلاد.

الاشتراط لزيارة «ميوات»:

وما كان يريد الشيخ أن ينزل على أهل «ميوات» كضيف مبجّل وشيخ مكرم يمتثل أناس بين يديه ويتبركون به ، ويسعدون برؤيته ، ويتشرفون بإقامة مآدب فخمة له ، ويدعو لهؤلاء وهؤلاء ويثني عليهم ، ويذكرهم بالخير ولا شيء وراء ذلك ، كما جرت العادة وأصبح عرفاً في أوساط ترتبط بعالم ديني أو شيخ صالح عن طريق البيعة أو المواعظ والزيارات ، وإنما أراد أن تكون زيارته مبدأ خير ، ومبعث صلاح وبداية طريق لإحداث تغيير جذري في الوضع الفاسد المفسد الذي يعيشه المسلمون في تلك البلاد ، فيعودوا إلى الإسلام من جديد ، وكان يرى آنذاك أن الطريق الأمضى لذلك فتح مدارس وكتاتيب في كل أنحاء ميوات كي يتعرف الجيل الميواتي على الإسلام.

وقد ذكر الشيخ مرات عديدة ، أنه لما أصرّ عليه كثير من أهل ميوات المخلصين أن يزور منطقتهم اشترط عليهم إقامة كتاتيب ومدارس ، وأكد لهم أنه سوف لا يزور ما لم يعدوا بذلك .

وما كان عمل أصعب وأشق على الميواتيين ، وقتذاك ، من تلك الفعلة ، فكان النزول عند هذا الشرط أثقل وأبهظ شيء عندهم ، فقد كانوا يدركون أنه لا شيء أشق على الميواتيين من أن يصرفوا أطفالهم عن الأعمال التي تدر لهم المكاسب المادية ، إلى التعليم ، ومن هنا تراجع الذين كانوا يدعون الشيخ إلياس إلى زيارة ميوات ، وهدأت حماستهم ، وكلما عرضوا عليه الزيارة ، ردد عليهم نفس الشرط ، وكان ميواتي ذكياً فوعد بإيفاء الشرط ظناً منه أنه عندما ينزل الشيخ في منطقتنا سنفكر في إيفاء شرطه ونبذل لذلك مجهودنا ونواجه المشكلة بما يشاء الله .

بَدْء إقامة مدارس وكتاتيب :

زار الشيخ محمد إلياس منطقة ميوات وطالبهم بإيفاء الشرط ، وبعد إصرار متواصل وسعي كبير ، ومحاولات مستمرة بذلها أهل ميوات ، تم فتح كتاب واحد تلتْه كتاتيب ومدارس أخرى كثيرة .

كان الشيخ يطلب إلى الميواتيين أن يجودوا عليه بأطفالهم فحسب ، أما نصب المدرسين وفقهاء الكتاتيب وتوفير رواتبهم فكل ذلك إليه ، وليس شيء من ذلك عليهم ، ولكن الميواتيين

ـ ومعظمهم فلاحون ـ ما كانوا يرضون بأن ينفض أطفالهم أيديهم من أعمال الفلاحة والقيام على تربية البهائم والمواشي ويجلسون في الكتاتيب يتعلمون ، فما كانوا يقيمون لذلك وزناً ولا يحسبون له حساباً ، وما كان عندهم حرص على الدين ، أو معرفة بالتعليم والثقافة ، حتى يرضوا في هذه السبل بتضحية متواضعة ، أو إيثار قليل ، بل كانوا يرون في كل ذلك خسارة لا خسارة بعدها ، وضياعاً لجهودهم ، وخطراً على آمالهم وأغراضهم ، ومن هنا مست الحاجة إلى بذل جهود كبيرة في سبيل إقناعهم وإرضائهم بأن يسمحوا لصغارهم يجلسون للقراءة في الكتاتيب واستنفدت العملية مجهودات كثيرة.

وتمكن الشيخ في هذه الزيارة من إقامة عشرة (١٠) كتاتيب ، وتلتها كتاتيب كثيرة حتى بلغ عددها في ميوات إلى مئات.

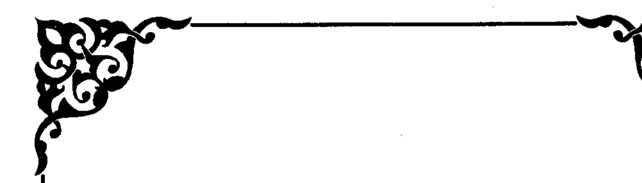
توفير نفقات تلك الكتاتيب:

لم يبدأ الشيخ العملَ الديني «كعمل شعبي» تعود جميع تكاليفه ومسؤولياته على الشعب وحده ، وإنما قام به كعمل شخصي لا يبالي بإنفاق أحب ما عنده من مال ، وأعز أوقاته في سبيله ، إنه ما كان يؤمن فيما يتصل بالعمل الإسلامي ، بأن هذا شخصي وذاك شعبي ، قَدَّمَ إليه أحد المخلصين مبالغ قائلاً: اصرفوا هذا في الغرض الشخصي ، فقال: أيها السادة! ما نكون منصفين مع أنفسنا

ما لم ننصف مع الله ورسوله ، ولا نكون قد أدينا حقنا ، ما لم نؤد حق الله ، واستعبرت عيناه ، وقال: آه لم نقدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق قدره.

وكان ذلك مبدأه الأصيل ، فقد وضع في العمل الديني الذي بدأ من ميوات كل ما كان يملكه من ممتلكات ، ورثها كابراً عن كابر ، أو حصل عليها عن طريق الهدية ، وما قبل معونة أحد في هذه السبل إلا عندما اضطرته الأوضاع.

* * *



الباب الرابع

الحركة الشاملة في ميوات لإثارة الإيمان وإشعال جمرة الحب والحنان

الباب الرابع

الحركة الشاملة في «ميوات» لإثارة الإيمان وإشعال جمرة الحُبِّ والحنان

انقطاع الأمل في الكتاتيب والإصلاح الجزئي:

الشيء الحقيقي الذي جعل الشيخ محمد إلياس يعتلي المكان المرموق فيما يتعلق بالعمل الإسلامي (هو الهمة) فلم تستقر طبيعته القلقة على مرحلة بدائية للإصلاح والدعوة ، ولم يقر له قرار ما لم يبلغ به إلى المرحلة الأصيلة التي كان يريدها ويسموا إليها.

وبدأ الشيخ محمد إلياس يدب إليه اليأس مما كان يتم من الإصلاح الجزئي والتعليم عن طريق الكتاتيب ، وشعر بأن الجهل المطبق ، والظلام المخيم على البلاد واللادينية السارية في المجتمع ، كل ذلك يعمل عمله في تلك الكتاتيب أيضاً ، وأن الطلاب لا يتم إصلاحهم وتربيتهم الدينية على ما ينبغي ، ثم إن

الجهل الذي يموج من حولهم كالبحر إلى مئات من الأميال ، يجرفهم بحيث لا يعود لهم عين ولا أثر.

ولا يوجد عند القوم الحرص على الدين ، حتى يبعثوا أولادهم للتحصيل والتعليم مندفعين راغبين ، ويدعوهم يجلسون في الكتاتيب ، وبما أنهم لا يتمتعون بمعرفة ما هو الدين ، فإنهم لا يقدرون هؤلاء الطلاب الذين يتخرّجون في الكتاتيب وينبثُّون يحملون إليهم الهداية والدعوة ، ولا يستمعون إلى ما يقولون ، ولا يخضعون لما يدعون ، إذاً فلا تؤثر تلك الكتاتيب تأثيراً ما في حياتهم.

ثم إن هذه الاهتمامات كلها مصروفة إلى هؤلاء الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، ولم تكلفهم الشريعة بشيء ما ، أما الرجال الذين هم موضع الخطاب في الشريعة والأحكام ، والذين هم موضع سخط الله من أجل الإهمال للدين والرغبة عن العمل ، والتطبيق ، فليس لهم نصيب في هذه التدابير كلها.

على أن هذه الكتاتيب والمدارس مهما كانت كثيرة ، لا تغطي ضرورة القوم المترامية الأطراف ، ولا يمكن عن طريقهما تعليم جميع القوم وتربيتهم الإسلامية ، ولا يمكن أن يكونوا جميعاً طلاباً في الكتاتيب ، يلتحقون بها ، ويدرسون فيها ، منصرفين عن أشغال الحياة ووسائل كسب المعاش.

وقد حرص الشيخ في زيارته لميوات على حسم النزاعات والصراعات الكثيرة التي كانت لا تعرف النهاية منذ القديم ، وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، بفضل حكمته ، ولباقته الدينية ، وربّانيته وروحانيته ، كان أهل «ميوات» يقولون ما لهذا الرجل الذي ليس إلا مجموعة من عدة عظام ، ويصلح كل قضية يتدخل فيها ، وينزل الخصمان عند رأيه مهما كان كل واحد آبياً عصياً ، لا يعرف اللين والمرونة؟

وظل الشيخ على اتصال «بميوات» يقوم برحلات متكررة إليها ، وظل أهل «ميوات» يستفيدون منه علمياً ودينياً ، ويبايعونه ويتخرجون عليه في التربية والإحسان ، لكنه كان يشعر بأن العمل الديني اليوم كقطعان من الغنم إذا ساقها الراعي ونعق بها من جانب خرجت من جانب آخر ، وإذا حصرها من جانب مرت من جانب ثالث ، إذا تم إصلاح جزء بقيت أجزاء كثيرة لا تعدّ دون أن يتناولها الإصلاح ، وتفككت عرا الحياة التي إنما هي عبارة عن الإيمان والحرص على الدين ، الأمر الذي لا يعرف الناس قدره منذ عهد عريق في القدم.

وتوصّل بعد تجارب طويلة ودراسات عميقة إلى أن إصلاح الخواص وتقدّم بعض الأفراد في الدين والورع ، لا يتم إلا بعلاج المرض الحقيقي.

الحجة الثانية ، وتغيّر الاتجاه فيما يتعلق بالعمل الديني والدعوي:

انطلق في شوال سنة ١٣٤٤هـ ليمضي إلى الحج ، في رفقة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، ولما انتهى الحج وعزم الرفقة على مغادرة المدينة المنورة ، وجدوا الشيخ محمد إلياس في قلق عجيب لا عهد لهم بذلك ، ولم يرض بطريق ولا بآخر ، أن يفارق المدينة ، وبعد أيام شكا الرفقة ذلك إلى الشيخ خليل أحمد ، فقال: لا تطلبوا إليه الرحلة ، فإما أن تنتظروا حتى يعزم هو على الرحلة ، وإما أن ترتحلوا أنتم وتدعوه وشأنه ، فإن له شأناً لا تدركونه ، وأخيراً قرر الرفقة انتظاره حتى يرتحل.

وقد شرح الله صدر الشيخ في تلك الزيارة الكريمة لبدء عمل دعوي ، وحركة دينية شاملة ، بقي أياماً لا يقر له قرار ويفكر في وعورة الطريق وضعفه وضآلته وصعوبة العمل ، لكنه صح عزمه على ذلك وتأكد أنه سيكون نصر الله حليفه ، وارتحل من المدينة المنورة بعد ما أقام بها خمسة أشهر ، ووصل إلى «كاندهله» في ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ.

بداية جولات دعوية:

وبعد عودته من الحج ، بدأ يقوم بجولات دعوية ، ودعا الآخرين أيضاً إلى القيام بتلك الجولات ، ودعوة الجماهير إلى تعليمات الإسلام الأولية ، وفرائضه كالتوحيد ، والصلاة ، وكانت

مثل هذه الدعوة غير معهودة لدى الناس ، وكان لهج عامة الناس بدعوة الدين مما يستغرب ، ولكن بعض الناس قاموا بهذا العمل على خجل وحياء.

وعقد مرة حفلة دعوية في قرية «نوح» بميوات ، وطلب إلى الناس بهذه المناسبة أن يخرجوا جماعات إلى مختلف الأنحاء ، ويقوموا بالدعوة ، ولكن الحاضرين استمهلوه لمدة شهر حتى يعدّوا عدتهم ويأخذوا أهبتهم ، وبعد مضي شهر كامل كوَّنوا جماعة ، وحدَّدوا القرى التي سيزورونها ، وتقرر أن الجماعة تصل بجولة بعد أسبوع يوم الجمعة إلى قرية «سوهني» في مديرية «جورجانوه» وتتخذ خُطّة العمل للأسبوع الآتي.

وعلى ذلك صلوا الجمعة جماعة في «سوهني» وأعدوا برنامج عمل للأسبوع القادم ، ثم جرت تقوم بالجملة ، وصلت الجمعة الثانية في قرية «تاورد» وصلّت الجمعة الثالثة في «نكينه» في محافظة «فيروزبور» ، وقد شهد الشيخ في كل من هذه الجمع ، وأسهم في اتخاذ البرنامج الآتي.

وعلى هذا الأسلوب ظل العمل الدعوي يتم في منطقة ميوات ، وكانت الجماعات الدعوية تعقد من حين لآخر حفلات دعوية ، توجه بهذه المناسبة دعوة الحاضرين فيها إلى مراكز الدين والدعوة والإرشاد والتعليم في خارج ميوات أيضاً.

حجته الثالثة:

في عام ١٣٥١هـ قام برحلة الحج للمرة الثالثة ، ورأى هلال رمضان في نظام الدين في دهلي ، وصلى التراويح على محطة دهلي ، بعد ما أدى الصلاة ركب القطار إلى «كراتشي» ومنها سافر إلى الحجاز ، وكان برفقته في الرحلة السعيدة الشيخ احتشام الحسن الذي يقول في رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وهو يتحدث عن أشغال الشيخ محمد إلياس :

«سيدي! إن الشيخ يقضي معظم أوقاته في رحاب الحرم ، ودائماً تنعقد الجلسات الدعوية ويدور الحديث حول الدعوة والتبليغ ، وذلك هو الموضوع الوحيد ، والذي يتحدث عنه الشيخ في كل مكان» .

وغادر مكة المكرمة في الثاني من محرم الحرام سنة ١٣٥٢هـ الموافق ٢١ أبريل سنة ١٩٣٣م إلى المدينة المنورة وتشرف بالزيارة ، وعاد إلى الهند في الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ وهو أكثر ثقة بإفادة ما يقوم به من العمل الدعوي وأشد حماساً له ، وإيماناً به ، فعمل على تصعيده أكثر من ذي قبل .

جولتان في ميوات:

وبعد عودته من الحج قام بجولتين في «ميوات» مع جماعة كبيرة ، وكان برفقته في هاتين الرحلتين مئة شخص على الأقل ،

ويحتشد الناس في أمكنة مختلفة ، ويكون التجمع كبيراً ، كانت الجولة الأولى لمدة شهر كامل ، والجولة الثانية لأقل من شهر ، وكان يوزع الناس خلال الرحلة في جماعات ويدفعها في مختلف القرى لتقوم بالجولة الدعوية .

الجماعات الدعوية توأم المراكز الدينية :

أدرك الشيخ ـ بما له من تجربة طويلة ، وألمعيته وفراسته ـ أن الفلاح الميواتي المسكين لا يمكنه تفريغ الوقت ليتعلم الدين ، وهو في حصار بيئته وأعماله وأشغاله ، وليس يرجى في الوقت القصير الذي قد يفرغه ولا يتمتع فيه بالهدوء المطلوب والانقطاع المقصود ، أن يغمر قلبه ونفسه تأثير الدين وتعاليمه وتتشرب روحه بما تتغير به حياته ، ويحدث فيها الانقلاب الصالح المرجوّ ، ولا يصح أن نطلب إليهم أن يلتحقوا جميعاً بالكتاتيب والمدارس ، ومن غير المعقول تماماً أن نأمل أن المواعظ والخطب ستحدث انقلاباً في حياتهم ، وتجعلهم ينتقلون من الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية ، يقع بها تحول كامل في أخلاقهم وعاداتهم ، ونفسيتهم وعقليتهم ، وأفكارهم وعواطفهم ، وينقلب ميزان الكره والحب لديهم .

لكنه يريد أن يتحقق كل ذلك ـ ولا بد ـ فما السبيل إليه؟ إنه يرى أن الطريق الوحيد أن يخرجوا جماعات ـ لمدة ـ إلى مراكز الدين

والعلم ، وأن يقوموا بعمل تصحيح الكلمة والدعوة إلى الصلاة في الجماهير والجهلاء ، وعلى ذلك فإنهم يستظهرون الدرس الذي تلقوه ، والقطعة التي قرؤوها ، وأن يجلسوا إلى أهل العلم والدين هناك ، ويستمعوا إلى ما يدور في مجالسهم من حديث العلم والدين ، ويدرسوا أعمالهم اليومية حتى جلوسهم ونهوضهم ، ونومهم وصحوتهم وحركاتهم وسكناتهم ، وبذلك فإنهم يكونون قد تعلموا الدين وتلقوا تعاليمه على طريقة طبيعية كالطفل يتعلم اللغة والمنطق ، وكالمرء يتلقّى الأدب والثقافة .

ثم إنهم يعمرون ـ خلال تلك الرحلات التي قد لا يجدون مثل هذا الهدوء في غيرها ـ أوقاتهم بتلاوة القرآن الكريم ، وتعلم المسائل والأحكام ، والاطّلاع على المندوبات والمستحبّات ، والاستماع إلى سيرة الصحابة وأحوالهم ، وعلى ذلك يعودون إلى أوطانهم وقد تلقوا شيئاً كثيراً في تلك المدارس المتنقلة .

غير أن هذا العمل كان صعباً جداً ، ذلك أن انتزاع الناس من أشغالهم وعزلهم عن الأهل والعيال ، وإبعادهم عن الوطن الحبيب ، ليس عملاً هيّناً ، لا سيما أولئك الذين تقربوا إلى الدين قليلاً بعد جهد جهيد ، واستنفد كسبهم مجهوداً كبيراً .

ثم إنه لم تكن هناك ثقة في أن هؤلاء يُتلَقَّون في كل مكان يقصدونه بحفاوة وإكرام ومواساة وأخوة ، وإن جهلهم وسذاجتهم ، وقرويتهم تدع الناس يعاملونهم معاملة العطف والرأفة

والكرم ، أم معاملة السخط والغضب والعتاب ، ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء .

كان يرى الشيخ أن المنطقة الغربية (مديريتي مظفر نكر وسهارنفور) من ولاية «أترابرديش» من مراكز العلم والدين ، ومنتجع العلماء والصلحاء ، وليس هناك منطقة أجدر بتعلم الدين وكسب التعليم الديني ، عن طريق معاشرة رجالات العلم والدين ، والصلاح والورع ، وبالعيون والأسماع والأفئدة ، من هذه المنطقة .

كان يعتقد أن الجهل والإهمال ، وفقدان الحمية الدينية ، والعاطفة الإسلامية ، كل ذلك رأس المفاسد ، والعلاج الوحيد أن يخرج الميواتيون لإصلاح نفوسهم وتعلم الدين وإيجاد العاطفة الصالحة ـ التي تبعث المرء على إيثار الدين على الدنيا ، والآجل على العاجل ، وعلى السعي وراء ذلك ـ إلى خارج منطقتهم ، لا سيما إلى المناطق الغربية في الولاية الشمالية .

يقول في رسالة له إلى أحد الميواتيين :

«عزيزي ! إن جهل المرء وغفلته وقعوده عن السعي وراء الحق ، كل ذلك مفتاح كل فتنة ، وما دام الرجل يتّصف بهذه الصفات في طبيعته وعقليته وعواطفه ، سترى نهوض فتن لا يأتي عليها الحصر ، ولا تستطيع أن تصنع شيئاً وتغيِّر وضعاً ، وللقضاء على

الفتن الحاضرة ، وسداً للمنافذ أمام الفتن القابلة ، لابد من التركيز على الخروج إلى «أترابرديش» تدريباً على تحقيق المهمة التي يجري العمل بتحقيقها اليوم في بلدكم ، وليس هناك سبيل غير هذا السبيل».

وكان يرجو أن هذه الدعوة ستعود تتمتع عن هذا الطريق بتبني العلماء والأتقياء في تلك المنطقة وأشرافهم ، ويطّلعون هم بدورهم على ما يعانيه هؤلاء المساكين من أبناء الإسلام في منطقة ميوات المنقطعة المنطوية على نفسها من البؤس والشقاء ، والحيرة والضياع ، والبعد عن الإسلام والجهل التام بتعاليمه ، فيثير كل ذلك في قلوبهم العطف على حالهم ، ويستقطب لفتتهم الكريمة نحوهم ، ثم إنه كان يؤمن بأنه لابد أن تكون الدعوة حظيّة بإشراف العلماء وتوجيههم ، وكان يراها عرضة بدون ذلك للخطر والمحنة.

وانطلاقاً من هذه الحكمة أراد أن يكون وطنه «كاندهله» المنزل الأول لأولى جماعة تبليغية ، وذلك أنه وطنه ، يعيش فيه أهله وذووه ، وأولو قرباه الذين يعرفونه ويعرفهم ، وهو مركز أهل الورع والعلم.

الجماعة الأولى تتوجه إلى «كاندهله»:

دعا الناس ـ وقد أظلّهم رمضان المبارك بإشراقته النورانية والقرآنية ـ أن يتأهبوا للرحلة إلى كاندهله ، ويهيّئوا الآخرين

لذلك ، وكانوا يعرفون خطورة «كاندهله» من حيث كونها مركز العلم والدين ، وأهل القلوب واليقين ، فعزّ عليهم أن يقصدوها مبلّغين دعاة ، ويجهزوا الجهلاء والدهماء يؤمّونها موجهين مرشدين، فتلقوا الأمر في شيء من التنكّر والاستغراب ، وما نشطوا لتنفيذه .

إلا أن الشيخ بذل في هذا السبيل كل جهده ، لأنه حينما كان يطمئن إلى فكرة ويراها في صالح الأمة ، وحان الوقت ، كان يركز عليها كل عنايته ولا يقرّ له قرار ، ولا يهدأ له بال ، ولا يهنأ له شراب ، ولا يطيب له طعام ، حتى تتحقق ، فما وسع المخلصين له أن يقابلوا أمره بالزراية والإعراض والرفض .

توجهت الجماعة ـ التي كانت مكونة من عشرة أفراد أخيار ـ وأكد عليهم الالتزام بالذكر والدعاء ، والإنابة والالتجاء ، وقوبلت في كاندهله بحفاوة وإكرام بالغين .

الجماعة الثانية إلى «رائيفور» :

ثم دعا الناس للرحلة إلى «رائيفور» وتوجهت الجماعة إلى رائيفور ، ووجدت فيها أنصاراً وتجاوباً وانسجاماً ، فقد كانت من مراكز الصلاح والدين والعلم ، متنورة بنور العبادة ، والإخبات والإخلاص ، بفضل عبد من عباد الله الصالحين ، وهو الشيخ

المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرائفوري[١] خليفة الشيخ الكبير عبد الرحيم الرائفوري.

جـولات منظمـة فـي ميـوات:

أعدّ الشيخ خريطة ميوات، وخطط في مناطقها للجولات، وأمر أن تسجل المسافة بين منطقة ومنطقة، وقرية وقرية، وأسماء العريفين والأقيال في القرى، ومن هم في الأكثرية الفعالة من الأقوام والأجناس في القرى.

وعقدت حفلة دعوية كبيرة في «جتورا» (CHATORA) في محافظة «فيروزبور» وتكونت ست عشرة جماعة، ونصب على كل منها أميراً، وعلى كل أربع منها «أمير الأمراء» ونظمت لهذه الجماعات كلها رحلات وجولات في ربوع ميوات في وقت واحد، وحددت مناطق لكل أربع منها، وكان يحضر في كل منزل مراقبون من نظام الدين يستطلعون الأحوال ويلقون الخطب، واحتشدت

---

(١) كان من كبار المربين، والعلماء الصالحين المصلحين، الذي انتفع به خلق كثير من أهل الهند وباكستان، فيهم كبار العلماء والزعماء والقادة السياسيين، كان يجمع بين الاتصال بالله والإخلاص والإنابة والدعوة إليه، وبين التفقه والوعي المدني والسياسي، ومرونة العقل ورحابة الصدر، ومعرفة الحقائق وواقع الأمة والبلاد، ليرجع للتفصيل ولمعرفة خصائصه وفضله كتاب المؤلف «ربانية لا رهبانية» توفي في تحيان في لاهور سنة ١٣٨٢هـ (أغسطس ١٩٣٢م) (ص ٣٧ ـ ٦٠).

الجماعات كلها في «فريد آباد» وحضرها الشيخ ، وعقدت حفلة كبيرة وتوجهت ست عشرة جماعة دعوية إلى مختلف الأمكنة ، وتجمعت في جامع دهلي الكبير معرجة على مناطق مختلفة ، وعقدت فيه حفلاً ، ثم تكونت جماعات وتوجهت إلى سوني بت وباني بت ، وإلى منازل أخرى.

واستمر العمل في ميوات على تحريض الناس للقيام بالرحلة ومغادرة الوطن ، والجولات من أجل الدعوة إلى الدين وتعليمه وتعلمه ، وكان ذلك هو هم الشيخ والأمر الوحيد الذي يشغل باله ليل نهار ، وكان يعرض هذه الدعوة على الناس قائماً وقاعداً ، وواقفاً وسائراً، ومسافراً ومقيماً، وعقدت حفلات كثيرة في ميوات، وعرضت فيها الدعوة وحدها بأساليب كثيرة، وعناوين شتى، ويؤكد الشيخ للناس أن ذلك هو ركيزة رقيهم في الدين والدنيا، حتى قل تنكرهم لهذا العمل وانبعثت البعثات والجماعات في أنحاء ميوات.

وكان التركيز على أنه لابد أن تعم الدعوة إلى ذلك في البلد كعموم التقاليد والأعراف وعقدت لذلك حفلات واجتماعات ، وتكونت جماعات وقامت بجولات في أنحاء ميوات والولاية الشمالية ، وتبرع الناس لذلك بأوقاتهم ، وقد عرف الناس لأول مرة هذا النوع من التبرع ، التبرع بالأوقات والأسابيع والشهور ، فقد كانوا لا يعرفون إلا التبرع بالأموال والنقود.

وكان الشيخ يهدف إلى إثارة روح الإخلاص والإيثار في العاملين للدعوة ومجال التبليغ وتعويدهم على الخسارة في التجارة والزراعة بجانب الدعوة إلى الله ، وفي ميوات عرف الناس لأول مرة أن يرضوا بنقصان ما يتعلق بدنياهم من أجل الدين ، وإن كان الله تبارك وتعالى لم يبتلهم بذلك ، ولم يرزأهم في دنياهم حينما شغلوا بنشر دينه وتبليغ دعوته ، وقد رأى العائدون من الرحلات والجولات الدعوية زيادة في كل ما كانوا يمارسونه من التجارة والزراعة والفلاحة ، أو أي نوع من التعاطي في الحياة ، وشاهدوا البركة بأم أعينهم.

تبشير شامل بالدين في ميوات:

وقد عم في مدة قليلة بفضل هؤلاء الدعاة المتطوعين الذين كانوا يتجولون من ناحية إلى ناحية ومن قرية إلى قرية ، حاملين عروضهم وزادهم ومتاعهم على أكتافهم ، الإقبال على الدين ، وانبعثت روح الإخلاص والتقوى ، والحرص على تعاليم الإسلام في هذه المنطقة الواسعة المترامية الأطراف التي ظلت مظلمة عبر قرون لم يشرق في ربوعها نور الإيمان واليقين ، وقد حظيت بانقلاب عجيب في العقيدة وتقلب في القلب والعقلية والنفسية ، لم يعرف له نظير في الماضي القريب والبعيد ، ولو أن حكومة إسلامية بذلت كل ما لديها من وسائل وإمكانات ونصبت كثرة كاثرة

من العلماء والمربين من أجل تقريب الدين إلى الناس ، أو فتحت مئات وآلافاً من الكتاتيب والمدارس من أجل تعليم الدين ، لما استطاعت أن تكسب النجاح في نشر الدين في جزء من أجزائها في هذه السهولة ، واللباقة والدقة والحكمة ، حقاً إن أحداث التحول في الحياة تفوق الوسائل المادية وتعجز عنه الإمكانات المادية مهما كثرت وعمت .

إن الطريق الصحيح الناجح لنشر الدين إنما هو الطريق الذي سلكه الرعيل الأول في فجر الإسلام ، حينما كان الجيش الإسلامي يحمل زاده ومتاعه وسلاحه على ظهره ، ويُعِدُّ كل ذلك بنفسه ومن عنده ، وعلى حسابه ، ويحدوه إلى ميدان المعركة وساحة الجهاد الحنين إلى الشهادة والفوز برضا الله تعالى ، والرغبة في ثوابه وأجره ، وعندما كان الدعاة إلى الله والمبلغون برسالته ، يقومون بمسؤوليتهم منطلقين من خشية الله ، وصادرين عن حب الله ورسوله ، الذي ملك عليهم قلوبهم وخالطت بشاشته نفوسهم ، فيؤدون عملهم كفريضة شخصية ، ومسؤولية ذاتية ، وفي أمانة ونزاهة وإخلاص وإيثار وكانت هذه الحركة الدينية في ميوات تواكبها مسّة من هذه الروح المباركة ونفحة من نفحاتها ، ولو رأى أحد هؤلاء المبلغين يحملون مسوحهم ، ويستأبطون أجزاء القرآن ويلفون الحمص أو أرغفة في ناحية من ردائهم ، وألسنتهم رطبة بذكر الله ، وعيونهم تنم عن السهر وإحياء الليالي في العبادة ،

وسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وتشف أيديهم وأرجلهم عن الكدّ والكدح ، لتمثلت أمامه قصة أصحاب الوفاء من الصحابة الأبرار الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه لتعليم القرآن وتبليغ الإسلام ، فقتلتهم أيدي الكفار الآثمة عند بئر معونة .

تقلّب الجوّ:

وبدأ الجو الميواتي يتغير شيئاً فشيئاً ، وبدت آثار هذا التغيير في مختلف مظاهر الحياة ، ونواحي السلوك والعادات ، وصلحت الأرض ، وأصبحت تبشر بأنها تنمو وتترعرع وتخضر وتثمر فيها الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين وأحكام الإسلام ، ولم تعد هناك حاجة إلى الجهاد والكفاح من أجل كل ما يتعلق بالدين ، نعم كانت هناك من بقايا الجاهلية ومخلّفات التقاليد والأعراف ، ما يدعو للعمل على الإصلاح ، ولكن المناطق التي بذلت فيها المحاولات الإصلاحية لم تكن تحتاج إلى جهد كبير للقضاء على شيء لا يمت إلى الدين بصلة ، بل كان يكفي أن يقال للناس: إن ذاك ليس من الدين في شيء فينتهون عنه عن آخرهم .

وكان الشيخ محمد إلياس يرى أن ذلك هو الترتيب الصحيح فيما يتعلق بالقيام بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة أن يكون العمل في الناس على إثارة الإيمان واليقين ، وإيجاد الحرص على الدين ، وتخريجهم على استعذاب خسارة ما إذا كانت تلحق بما يتعلق بأولاهم من أجل عقباهم ، وإذا تمت كل تلك المراحل فإنهم

ـ بدورهم ـ يقبلون على جميع الدين ويحرصون على تطبيقه بجميع أجزائه في واقع حياتهم وسلوكهم.

وفعلاً قد آتت الجهود الدينية ـ التي بذلت في ميوات على هذا الأسلوب والمنهج ـ أكلها في مدة غير طويلة ، وبدأت مظاهر الصلاح والإقبال على الدين تتجلّى في حياة الميواتيين بحيث لو أن أحداً عمل على تربية واحد منهم طوال خمسين سنة أو أكثر ، على غير هذا الترتيب ، لما نجح هذا النجاح الكبير في تخريجه على الدين ، بل ربما كانت النتيجة معكوسة سلبية.

وعلى كل فقد حدث الإقبال الشامل على الدين ، وبدت آثاره في السلوك ، حتى أن المنطقة التي لم تعرف المسجد ، غنيت بالمساجد في كل ناحية ، وانبثّت شبكة الكتاتيب والمدارس ، وكثر حفَّاظ القرآن الكريم ، ووجد عدد وجيه للعلماء والخريجين في العلوم الإسلامية ، وعمت الكراهية لكل ما يتصل بالهنادك والهندوكية من الملابس والتقاليد ، والشعائر ، ورسخ في القلوب تقدير الوضع الإسلامي ، وحرص الناس على إعفاء اللحى ، وانتهت التقاليد الجاهلية فيما يتعلق بالزواج ، وقل الربا والتعاطي الربوي ، وشذ من يحتسي الخمر ، وقل النهب والغارة ، وقطع الطرق وانخفضت إلى حد مدهش نسبة الجرائم الخلقية ، والاضطرابات والصراعات والخصومات ، وكذلك ذبلت البدع والخرافات والتقاليد غير الإسلامية ، وعادات الفسق والفجور ،

لأن كل ذلك لم يجد الجو الملائم له ولا التربة الصالحة في حقه.

وقد تحدث عجوز ميواتي عن تلك الحقيقة في بلاغة وبكلمات عميقة ذات دلالات دقيقة لا مزيد عليها وذلك عندما سأله الشيخ المقرىء داود: ماذا يجري الآن في منطقتك؟ قال الميواتي العجوز:

«لا أدري إلا شيئاً واحداً: إن الأمور التي كانت تستنفد جهوداً جبارة ولا يتحقق شيء منها عادت الآن تتم دون محاولة، وأن الأمور التي من أجل القضاء عليها كان يبذل أقصى الجهود وتشعل الحروب، وتخاض المعارك، وتكون النتيجة صفراً، أصبحت الآن تغيب دون سعي».

كان الشيخ يرى أن العامل الأكبر فيما حدث من تغير في حياة الميواتي هو خروجه من منطقته ورحلته إلى المراكز الدينية في «أترابرديش».

يقول في رسالة[١]:

«قد كان لرحلات الجماعات الدعوية إلى مناطق الولاية الشمالية تأثير أي تأثير، فإنه على قلة الأفراد ـ الذين قد لا يبلغ عددهم إلى مئتين ـ الذين قاموا برحلات تبليغية وعلى قلة الوقت الذي ليس بشيء مقابل الوقت الذي يصرفه الناس في بيوتهم وأوطانهم، كان

---

(١) باسم الشيخ محمد عيسى من سكان «فيروز بورنمك» بميوات.

من التأثير ما جعل الناس تدور على ألسنتهم كلمة: «الانقلاب العظيم» ، وبدأت مشاعر الناس في منطقتكم ـ من أولي الجهالة العمياء الصماء ، البكماء الخبيثة ـ تتحول مشاعر طيبة دفعتهم إلى نشر الدين».

غير أن الشيخ كان يرى أن الميواتي لئن لم يجعل الخروج من منطقته جزءاً لا ينفك من حياته ، وعدل عن السعي والتحرك من أجل الدين ، فسيعود إلى أسوأ مما كان عليه من ذي قبل ، لأن ميوات قد غدت ـ من أجل نهضة دينية وصحوة إسلامية ـ محط الأنظار في العالم ، وقد يكون ملأ هذه النظرات الشر والخبث ، ثم ارتفاع الخمول والجهل يفرض أعمال الحذر والحيطة أكثر من قبل ، يقول في رسالة[1] :

«إن المجتمع الميواتي لا يمكن أن يذوق طعم الدين ولذة الإيمان ما لم تنهضوا بكل اهتمام من أجل العمل على تحريض الناس على أن يجعلوا مغادرة أوطانهم لمدة أربعة أشهر ، مبلغين متجولين من بلد إلى بلد ، جزءاً لا ينفك من حياتهم.

إن الكمية التي تحققت إلى الآن ، كانت خفيفة وطارئة ، ولو قعدتم عن العمل لهبط القوم حتى عن المستوى الذي كانوا عليه من قبل ، وذلك أن الجهل كان كحصار ، وكانت الأقوام من حولهم من

---

(١) باسم الشيخ محمد عيسى المذكور.

شدة الجهل والخمول لا تحسب لهم حساباً ، ولا تلقي إليهم بالاً ،
أما اليوم فقد يمكن أن يكونوا فريسة الأقوام والملل إذا لم تقم من
حوله حصاراً منيعاً ، وسياجاً حديدياً من الدين» .

الحجة الأخيرة والقيام بالدعوة في الحرمين الشريفين :

كانت أمنية الشيخ الأثيرة ـ التي ظلت قائمة إلى آخر أيام حياته ـ
أن يمضي إلى مركز الإسلام ومهد الإيمان ، إذا رسخ العمل
الدعوي في الهند ـ في جماعة من زملائه ويقوم ليعرض الدعوة
هناك لأن ذلك هدية ثمينة لهم ، وهم أحق بذلك ، وسيتلقونها
بترحاب وفي سرور قائلين : «بضاعتنا ردّت إلينا» ثم هم بدورهم
يحملونها إلى كل بيت وقرية في العالم» .

وقويت عزيمته وتأكدت إرادته في هذا الشأن في سنة
١٣٥٦هـ ، وارتحل ينوي الحج في الثامن عشر من ذي القعدة[١] .

وقد كان الحديث في الباخرة حول الدعوة والتبليغ ، ومناسك
الحج ، وفي طريقه من جدة إلى مكة نزل بـ «البحرة» وجمع نخبة من
الناس فيها وتحدث إليهم ، وكان الحديث موضع احترام واعتبار
عندهم ، وبما أن أيام الحج قد حانت ، وشغل بتوفير الأسباب

---

(١) ونصب للإشراف على العمل الدعوي في الهند ابن أخيه الشيخ المحدث
محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي .

والبحث عن المنزل الذي ينزل فيه ، فلم يتمكن في مكة المكرمة من حديث في الدعوة والتبليغ ، ولكنه اجتمع بحجيج من مختلف الأقطار في منى وحادثهم في الموضوع ، وألقى حديثاً في لقاء كان له أحسن الأثر في القلوب».

وبعد الانتهاء من الحج تشاور في الموضوع مع بعض العلماء الهنود من أولي الحكمة والتجارب ، فعارضوا فكرة عرض الدعوة نظراً إلى وضع الحجاز ، ولكن الشيخ شفيع الدين[١] أيد الرأي وأشار بالبدء في العمل ، وقال إني أرجو رجاءً كبيراً ، إن نصر الله سيكون حليف هذا العمل.

وكان اللقاء مع جماعة من حجيج البحرين ، وجرى تبادل الرأي فيما يتعلق بالموضوع ، فوعدوا بإسهامهم في العمل في وطنهم ، وكذلك كان الحديث مع نخبة تجار الحجاز الهنود ، فقابلوا الفكرة أولاً بالتنكر والاستغراب ، ولكنهم بعد أخذ ورد رضوا بالعمل إلى حد كبير ، واتفق رأيهم ورأي جميع الأخوة على الحصول على السماح أولاً من جلالة الملك (عبد العزيز بن عبد الرحمن

---

(١) كان من خلفاء الشيخ الكبير الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة ، من سكان بلدة نكينه في مديرية «بجنور» في أترابرديش (الولاية الشمالية) بالهند ، هاجر الهند إلى مكة المكرمة واستوطنها وكان من عباد الله الذين أخلصوا عملهم لله.

آل سعود) وتقرر أن تعرض عليه الأغراض والأهداف مكتوبة باللغة العربية ، وقد اجتمع الشيخ احتشام الحسن في هذا الصدد بدوره بشيخ الإسلام عبد الله بن حسن والشيخ ابن بليهد .

وبعد أسبوعين في الرابع عشر مارس سنة ١٩٣٨م ذهب الشيخ إلياس والحاج عبد الله الدهلوي ، والشيخ عبد الرحمن مظهر شيخ المطوفين ، والشيخ احتشام الحسن ليجتمعوا بجلالة الملك ، وقابلهم الملك بإكرام ، واستقبلهم نازلاً عن بساطه ، وأدنى مجلسهم ، وعرضوا عليه أغراضهم ، فتحدث إليهم الملك مدة أربعين دقيقة على التوحيد ، والتمسك بالكتاب والسنة ، واتباع الشريعة ، ثم ودعهم في حفاوة وإكرام .

وأوجز الشيخ احتشام الحسن أهداف الدعوة في مقال ، وعرضها على رئيس القضاة شيخ الإسلام عبد الله بن حسن آل الشيخ ، فقد اجتمع بالشيخ إلياس والشيخ احتشام الحسن بدورهما ، فأيد الفكرة تأييداً حاراً ، وأكد لهما تقديم العون والدعم ، لكنه أوقف السماح ببدء العمل على سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود .

وفي أيام النزول بمكة المكرمة كانت الجماعة تقوم بالجولة الدعوية وتجتمع بالناس على الانفراد صباحاً ومساءً ، وتقنعهم بالفكرة ، وتهيِّؤهم للعمل ، وعقدت حفلات ، تحدث فيها باللغة الأردية الشيخ إدريس والشيخ نور محمد .

وقد أكد الشيخ للرفقة أن يصرفوا أوقاتهم في الدعوة والتبليغ ، ويركزوا عنايتهم على ذلك أكثر من العمرة والعبادات الأخرى ، لأن ذلك خير أوان ومكان للعمل الدعوي في أقدس ربوع على ظهر الأرض.

وكان لقاء مع نخبة الناس والعلماء ، طرح فيه الشيخ سؤالاً عن سبب تدهور المسلمين اليوم ، وكل أجاب بما رأى ، وأخيراً وضع الشيخ النقاط على الحروف ، ووضع الأصبع على مواضع الضعف ، وضرب على الوتر الحساس ، ودعا الناس إلى العمل الذي نهض به ، فكلهم وافقوه.

تأييد من رجل رباني:

يقول الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد إلياس: بينما نحن جلوس في منزلنا إزاء باب العمرة ، وكان الشيخ محمد إلياس يتحدث إلينا ، ونحن مصغون إليه ، إذ طلع علينا رجل ووقف بالباب وقال: «إن العمل الذي تقومون به أوصيكم بالاستمرار فيه ، لأن في ذلك أجراً وجائزةً ، ولو اطلعتم عليها لطرتم فرحاً ، ومتم جذلاً» ولم يلبث الرجل أن مضى ، ولم ندر من هو ، أما الشيخ فبقي يتحدث ولم يلتفت إليه بتاتاً.

وفي الخامس والعشرين من صفر سنة ١٣٥٧هـ غادر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة على سيارة ، ووصل إليها في صباح

السابع والعشرين من صفر ، وبدأ يقوم فيها بمحاولات دعوية ، لكنه علم أن سمو أمير المدينة المنورة لا يملك السماح بمثل هذا العمل ، وأنه سيرسل الأوراق إلى مكة المكرمة ، ويأخذ بالأمر الذي يصدر منها ، وقد اجتمع الشيخ إلياس مع الشيخ السيد محمود والشيخ احتشام الحسن بسمو أمير المدينة المنورة ، ووضع أمامه أهدافه فأشاد بها وحبّذها .

وجرى الحديث والنقاش في الموضوع مع أناس كثيرين من مختلف الطبقات ، وقد أم الشيخ من أجل هذا الغرض «قباء» مرتين ، وتحدث فيها في حفلة واستعد عدة أفراد للعمل .

وذهب مرتين إلى «أُحُد» وألقى الشيخ نور محمد والشيخ محمد يوسف[١] خطاباً باللغة العربية استمع إليه الناس في ترحيب وإشادة ، وكان الاحتكاك بأهل البداوة أيضاً وكان العمل في الأطفال أن ينطقوا بكلمة الإسلام صحيحة ، والإرادة تتشجع حيناً وتنهار حيناً آخر ، وتتأرجح بين اليأس والرجاء ، لكن تلك الرحلة أكدت الشعور بالحاجة إلى هذا العمل حتى في ديار العرب .

---

(١) هو ابن الشيخ محمد إلياس الذي خلفه بعد وفاته ، وتقدم العمل الدعوي ونشاطه في حياته تقدماً كبيراً ، ليرجع إلى سيرته بقلم السيد محمد الثاني الحسني المرحوم ، توفي سلخ ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ (٢ أبريل ١٩٦٥م) .

العـودة إلـى الهـنـد:

وظل الشيخ في أيام إقامته بالحجاز على اطلاع على تفاصيل العلم ومسيرتـه في ميـوات ودهلي عـن طريـق الـخطابات والرسائل التي يرد عليها في انتظام، ويوجه ويرشد ويحرض ويرغب.

ثم عقدت نيته على العودة إلى الهند ـ على إشارة من أهل الرأي والخبرة ـ بعد ما دامت الإقامة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوماً، ووجه من الهند رسالة إلى رجل في مكة المكرمة رداً على التساؤل الذي ثار في قلبه حول عودته إلى الهند، نثبتها هاهنا، لأنها تدل على شيء من التفصيل.

«صاحب الفضيلة، حفظكم الله ورعاكم، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

إن الباعث على العودة أني كنت قد أشرت على الإخوة ببعض أساليب العمل من أجل البدء في العمل على أُسس متينة، وذلك ذات صباح بعد ما مضت على الإقامة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوماً، لكن جميع أولي الرأي أجمعوا على أنه لابد من قضاء عامين كاملين من أجل إحكام العمل هناك، وترسيخ جذوره، وقد وافقت على الفكرة تماماً، لكن في هذه الإقامة الطويلة هناك كان خطر ضياع الجهود التي بذلت في الحجاز في هذا السبيل في الهند، ومن

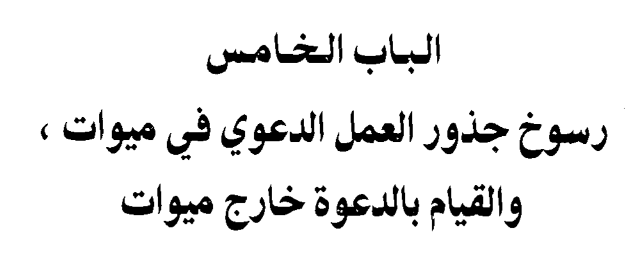
ثم تأكدت إرادتي أن أجعل العمل في الهند ، بحيث أتمكن من العمل في الحجاز في اطمئنان وانقطاع ، وعلى ذلك ، فإن العودة إنما هي من أجل إقامة مؤقتة ، ولئن كنتم تحملون حباً لدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وألماً على ضياعه ، وتريدون في إخلاص أن تحافظوا عليه ، وترون أن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل وأنفع مما أنتم فيه مشغولون ، وأن هذا الطريق الذي بدأنا نسلكه للعمل الدعوي صحيح عندكم ، فلا بد أن تقووا إيمانكم عن طريق التضحية والفداء في هذا السبيل ، منطلقين من الفهم المباشر للمبادىء ، وداعين الناس إلى تفهمها».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد إلياس

نظام الدين ـ دهلي

* * *



الباب الخامس

رسوخ جذور العمل الدعوي في ميوات ، والقيام بالدعوة خارج ميوات

الباب الخامس
رسوخ جذور العمل الدعوي في ميوات ، والقيام بالدعوة خارج ميوات

صعَّد الشيخ في «ميوات» نشاطاته الدعوية بعد ما عاد إلى الهند ، وأكثر من الرحلات والجولات وعقد الحفلات والندوات ، وتسيير الجماعات التبليغية ، وإيفادها إلي أترابرديش ، ومدنها وقراها ، وأقبل أهالي المدن من المسلمين إلى هذا العمل ، وبدأ العمل على إثارة روح العمل الدعوي في أهل دهلي أيضاً ، طمعاً في أجر الله وحرصاً على رضاه وثوابه ، وتكونت الجماعات الدعوية في كل حي من أحيائها وبدأت الجولات الدعوية في كل أسبوع .

انطباعات الشيخ القلبية وسبب إقباله على هذا العمل :

حينما درس الشيخ ما يعيشه أهل المدن ، توصل إلى النتائج الآتية ، والحقائق المرة التالية التي جعلته كأنه يتقلب على أَحرٍّ من الجمر .

١ ـ لا شك أن المدن لا تزال تتمتع بروح الدين ، ولكنها في نقص مستمر ، وانكماش دائم.

إن التدين كان قد انتقل من الجمهور إلى كمية من المسلمين ، ثم ضاق نطاقة على مر الأيام لينحصر في الخواص ، ثم تقلص ليستأثر به أخص الخواص ، ثم انحسر حتى انحصر في بعض الأفراد والسعداء هنا وهناك ، ولا يزالون ينقصون ولا يزيدون.

لا شك أنه قد يتجمع في موطن واحد عدد لا بأس به من المتدينين ، والصلحاء ، مما يجعل المسلمين يستبشرون ، وتقر أعينهم ، ويطيبون نفساً ويقولون في أنفسهم: نحن في خير ما دام هذا النموذج العالي من الدين والورع ، والزهد والصلاح في هذه الكثرة على الرغم من ذلك كله ، فإن التدين وروح الإقبال على الدين ، قد فَقَدَ سِمَةَ الشمول ، ولا تزال هذه الروح في ضعف وانهيار سريع ، مما يشكل خطر غيابها كلياً مع غياب هذه الفئة القليلة ، والقلة الضئيلة من المتدينين حتى تكون نقطة في اليم ، أو كذرة ضائعة في الصحراء المترامية الأطراف.

إن الأسر والبيوتات التي كانت مركز العلم والمعرفة ، والهداية ، والإرشاد ، وروح الإيمان والاحتساب ، والدين واليقين ، تتوارث العلم والدين ، والزهد منذ قرون ، وتتنقل هذه الروح من القلب إلى القلب ، ومن النفس إلى النفس ، ويتنور المشعل من المشعل ، قد أصبح هذا المشعل يفقد زيته ، ينطفىء

نوره ، وكل من يموت يترك وراءه فراغاً لن يملأ ، وكان الشيخ على اطلاع شخصي على ما تعانيه قرى «مظفرنكر» ، و«سهارنفور» ، ودلهي المنتجة للرجال والمخرجة للأبطال ، من الانحطاط الزائد ، وكان يبدي على ذلك قلقه البالغ وأسفه الشديد ، يقول في رسالة غراء:

«واأسفاه! إن الزمان صار ضنيناً بأولئك الذين كانوا يتلذذون بذكر الله ، ويتذوقونه وتغيب البقية من الذين تخرجوا على ذلك بملازمة الأبرار ومعاشرة الأخيار ، ولا يخلفون من يسد مسدهم».

وكان الشيخ يريد تلافي ذلك بالعمل على تعميم روح التدين في عامة المسلمين؛ وأن يوجد في المسلمين خواص المتدينين الذين يكونون على قمة من الإخلاص ، وروح الإيمان والاحتساب ، قد كان ذلك من قبل في كل العهود الإسلامية ، ولا بد أن يكون ذلك اليوم ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وكذلك حال التعليم ، إنها أسوأ من حال الإقبال على الدين ، فكان يرى أنه لا بد من تعميم التعليم الديني ، حتى لا يعود مسلم جاهلاً بأوليات الدين وضرورياته ، ومبادئه وأحكامه التي هي قوام الإسلام؛ وعلى ذلك يحصل كل من أبناء الإسلام من العلم على ما لابد منه لكي يعيش مسلماً ، ثم لا بد أن يتخرج فيهم متعمقون في علوم الكتاب والسنة ، وأصحاب دراسات عالية واختصاص في العلوم والفنون.

٢ ـ صار المشغولون من المسلمين في المدن ، يرون الدين

صعباً عسيراً ، لأنهم قد ظنوا أن الدين معناه الانقطاع التام عن الدنيا وكان ذلك شيئاً غير موجود ، كان الدين مما لا يمكن الأخذ به ، فأقبلوا على الدنيا بقلبهم وقالبهم وتركوا الدين وشأنه ، لا تحدث به نفوسهم ، ومما يدعو للأسف ، أنهم اطمأنوا إلى حياتهم غير الإسلامية واسترسلوا إليها علي علم منهم أنها غير إسلامية مادية محضة ، وعلى ذلك فلم يبق في حياتهم نصيب لله ربهم وخالقهم ، وإنما كل ما فيها للنفس والمادة والمعدة ، وغدت حياتهم تلك التي جاء في الحديث في شأنها: «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وإلا عالم أو متعلم».

وقد بلغ بهم الانحطاط الديني إلى أنهم حينما ينبههم أحد على سوء حالتهم ، يقول بعضهم صراحة «إننا ماديون ، لا تهمنا إلا الدنيا» وبعضهم يتجرأ في القول والصراحة فيقول: نحن عباد البطن ، وكلاب الدنيا ، لانتهالك إلا عليها.

وكان الشيخ يعرف ـ ككل رجل عنده علم من الشريعة ، وإلمام بروح الإسلام ـ أن الدين ، إنما هو عيش الحياة ، والتعاطي فيها ، والقيام بالأشغال ، وإقامة العلائق في ظل أحكام الإسلام وحسب ما يقتضيه الدين والقرآن ، لكن ذلك يحتاج إلى قليل من العلم والعناية ، وكان الشيخ يرى أنه لا بد من تبليغ هذه الحقيقة في المسلمين ، لأن ذلك هو السبب الوحيد في انحراف الكثرة الكاثرة

من المسلمين عن الدين ، واسترسالهم إلى المادة ، وعبادة النفس والشهوة.

يقول في رسالة :

«إن مفهوم الدنيا ، صار مفهوماً خاطئاً جداً في الأذهان ، إن الاشتغال بأسباب الحياة ليس دنيا ، فإن الدنيا قد لعنت ، والله سبحانه جل عن أن يأمر بشيء ملعون ، وعلى ذلك فإن السعي عدا المأمور به ظناً أن ذلك مأمور به من الله ، ومعرفة بالحلال عن الحرام ، وتقديراً وتعظيماً للمأمور به كل ذلك هو الدين ، والإقبال على الحوائج والشعور بها مع غض البصر عن أمر الله ، وظنها ضرورية من أجل سبب آخر دون الأمر الإلهي ، كل ذلك هو الدنيا.

وكان يشبه الدين بلعاب الفم الذي بدون كمية قليلة منه لا يجد الإنسان لذة في الطعام والشراب ، ولا يستطيع أن يسيغهما ، وتلك الكمية من اللعاب موجودة عند كل إنسان ، وكذلك هذا القدر الضروري من الدنيا موجود لدى كل مسلم ، وإنما الحاجة إلى أن يخرجه في أشغاله ، وعلائقه الدنيوية حتى تطيب دنياه ، ويستقيم دينه.

٣ ـ وكذلك أصبح الناس يظنون منذ مدة أن التعليم الديني لا يمكن الحصول عليه إلا بكتب ومقررات دراسية على أساتذة ومدرسين ، وفي مدارس ومعاهد ، أقيمت لهذا الغرض خاصة ،

وبقضاء أعوام عديدة في جد واجتهاد مضن ، وإذا كان الجلوس ـ في المدارس لمدة ثمانية أو عشرة أعوام أو تزيد ـ متعلماً ، لا يمكن ، فقرر المسلمون جلهم أن التعليم الديني لم يكتب في حظهم ، وأنهم يعيشون جاهلين بأحكام الإسلام ، ومنعزلين عن تعاليم الحديث والقرآن .

صحيح أن التعليم الديني يحصل عليه في المدارس ، إلا أن ذلك هو ما يتصل بدراسة عالية ، واختصاص ، وتعمق ، لكن جميع أفراد المسلمين لا يمكنهم قط أن يبلغوا هذه المنزلة ، وليسوا جميعاً في حاجة إلى هذا القدر من العلم والمعرفة .

إن القدر الضروري من التعليم الديني يمكن لكل مسلم أن يحصل عليه مع كل ما هو فيه من الأشغال والعلائق الدنيوية ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ـ إلا أصحاب الصفة الذين كانوا في عدد ضئيل جداً ـ في أشغالهم وعلائقهم ووشائجهم من الأهل والعيال ، كان فيهم تجار ، وفلاحون ، وأصحاب مهن وحرف وصناعات ، وكانت عليهم تكاليف الحياة والعائلة والبيت ، ولم تكن هناك في المدينة المنورة مدرسة تقوم بتعليم العلوم الدينية ، ولو كانت لما أمكنهم جميعاً أن ينتسبوا إليها تلاميذ ومتعلمين ، ويمضوا في رحابها أعواماً طويلة ، ولكن كانوا ـ كما يعلم ذلك كل الناسِ ـ يتمتعون باطلاع على الأحكام وعلى ما لا بد منه من الدين ، ومن المسائل والفضائل ، والفرائض والواجبات والمندوبات ،

والحلال والحرام ، فمن أين يأتي لهم هذا القدر الضروري من التعليم الديني؟ إنما تأتي لهم من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، والاختلاف إلى مجالسه ، والجلوس إلى من كان يفوقهم علماً ، والاحتكاك بأهل الدين والورع ، والعلم والتقوى ، ودراسة حركاتهم وسكناتهم ومصاحبة بينهم في السفر والحضر ، والحروب والجهاد ، وتعلمهم الأحكام وقت الابتلاء بها والحاجة إليها ، وعيشهم في الجو الديني والإيماني ، ولا شك أن هذه المنزلة العالية ، والقمة الشامخة التي كانوا عليها ، لا يمكن لإنسان اليوم أن يسمو إليها ، ولكن مما لا يختلف فيه اثنان ، أنه ليس هناك طريق أمثل وأشبه في العلم والعمل والقول إلا الطريق الذي سلكوه ، فلنسر على طريقهم بإذن الله .

وكان يرى أن الطريق إلى ذلك أن يدعى المسلمون عامة ـ تجاراً وفلاحين وموظفين ، ومشتغلين بعمل من الأعمال ـ إلى تفريغ جزء من أوقاتهم من أجل تعلم الدين ، وأن يؤدوا زكاة أوقاتهم كما يؤدون زكاة أموالهم ، وأن يفارقوا البيئة التي قد جربوا طوال عمرهم أنهم ما قدروا فيها على إحداث تغير ملموس في حياتهم ، وما استطاعوا أن يتعلموا حتى مبادىء الدين وأحكامه الأولية الضرورية ـ على الرغم من شعورهم بأنها ضرورية ، وعزمهم بعض الأحيان على تعلمها ـ ولا يزال المرء على موقف الجهل وقلة العلم الذي كان عليه منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة ، فلا تغير

ولا اختلاف ، ولا تبدل ولا انقلاب ، فمن كانت صلاته خاطئة لا تزال خاطئة منذ خمسة عشر عاماً مثلاً ، والذي لم يكن يعرف صلاة الجنازة ، أو دعاء من أدعية الصلاة أو جزءاً من أجزاء الصلاة ، لا يزال جاهلاً بها على الرغم من الاستماع إلى مئات الخطب الدينية وشهود الحفلات الدعوية ، ومجاورة العلماء ، واحتفال الأسواق والمكتبات بالكتب الإسلامية ، مما دل دلالة أكيدة صارخة على أنه وإن كان هناك إمكان عقلي لحدوث تغير في حياته مع العيش في تلك البيئة ، ولكن التجربة على عكس ذلك .

وإذاً فإنه لا بد أن يهاجر لوقت محدود من تلك البيئة الراكدة غير الإسلامية إلى بيئة إسلامية حية نشيطة متحركة ، حتى يعيش فيها متحرراً من قيود البيئة الأولى وأغلالها من تأثير سيىء ويجد فرصة من أشغاله المرهقة ، وتثور فيه العاطفة الدينية التي ضعفت واضمحلت من أجل معاكسة البيئة ومزاحمة الأشغال والأعمال ، ويصحو فيه الوعي الديني والشعور الإسلامي الذي كان قد خمد ، ويندفع إلى الدين يتعلمه ويُطبقه في واقع حياته .

٤ ـ وكان يرى أن طراز الحياة الإسلامية الأصيل أن يسهم المرء المسلم في العمل الإسلامي وخدمة الإسلام ، وتعزيز شأنه ورفع منارته ، مساهمة شخصية ، أو يساعد العاملين في هذا المجال عازماً على مساهمة شخصية مهما سمحت له الظروف بذلك ، وأن لا ينقطع عن ذلك إلا لعذر شرعي ملح ، أو لمصلحة دينية ،

ولوقت محدود ، وكان يعتقد أن الحياة المدنية الهادئة المشغولة بالتجارة وشؤون الحياة المادية وحدها ـ وقد كان يصفها فعلاً بـ «حياة الهدوء» مقابل حياة الهجرة والجهاد ـ حياة غير طبيعية حائدة عن الصراط الإسلامي المستقيم .

إن الحياة المدنية غدت منذ مدة طويلة حياة تجارية مادية صرفة ، تتسم بكسب المعاش والإخلاد إلى الحياة الدنيا ، والأكل والشرب ، ولا شيء غير ذلك ، وكان الشيخ يتألم منها ، ويود أن لو عاش أهل المدن أيضاً حياة «الهجرة والنصرة» وأن يكون ذلك عرفاً متبعاً لديهم .

كان لا يؤمن بالتقسيم فيما يتعلق بالحياة الإسلامية والعمل الإسلامي ، حيث يعمل بعض الناس على خدمة الإسلام ، على حين يكون البعض منقطعين إلى دنياهم يتقدمون فيها أشواطاً بعيدة ، وإلى تجارتهم وحرفتهم وصناعتهم ، وما إليها ، يتقنونها ويحذقون فيها ، ويتربعون مكان الأستاذية ، أما الإسلام فيكفيهم من جانبه أن يتقدموا إلى المسلمين بعض الأحيان بمعونة مادية مما يفيض عن حاجتهم .

كان الشيخ يرفض هذا التقسيم ، ويقول: إذا كان الناس لا يؤمنون بذلك فيما يتصل بدَنياهم فلماذا يريدون فيما يتعلق بالدين، وهل يرضون أن يتوزعوا عمليات الأكل والشرب ، واللبس مثلاً ، فيأكل أحدهم ويشرب أحدهم ، ويلبس أحدهم ، ويكفي

الكل؟ لا ، إن كل واحد منهم ، يرى كلاًّ من هذه الأشياء ضرورياً بالنسبة إليه بصورة شخصية فكذلك التقيد بواجبات الدين ومسؤولياته ، وتعلم ما لا بد أن يكون ضرورياً ، لكل واحد من أبناء الإسلام إلى جانب كسب المعاش والانشغال بشؤون الحياة.

إقامة الميواتيين بدهلي:

من أجل ذلك كله كان يرى القيام بدعوته ـ فيما بين مسلمي المدن ـ حاجة ملحة ، وكان يريد أن يعرضها عليهم عرضاً متحمساً قوياً ، لكنه كان يرى أن المواعظ والخطب وحدها لا تغني غناء في هذا الشأن ، وإنما الحاجة إلى نماذج عملية من دعاة الإسلام ممن يتمثل الإسلام في حياتهم وسلوكهم ، فأما بدون ذلك فإن الخطب والمواعظ تضر ولا تنفع ، يقول في رسالة:

«ما لم تكن نماذج عملية أمامهم ، لا تحرك الخطب المنطلقة من المنابر ساكناً منهم ، ولا تدفعهم إلى العمل ، وإذا لم يكن هناك تنظيم لهم للدخول في العمل بعد الخطبة ، فإنهم يتعودون على إساءة القول ، ولا يتأدبون في استخدام الألفاظ».

وانطلاقاً من ذلك كله ، بدأ يبعث جماعات الميواتيين إلى مدينة دهلي ، وإلى أمكنة رئيسة أخرى ، وكانت تقيم في مدينة دهلي إقامة طويلة ، وواجهوا صعوبات وعوائق في بداية الأمر ، فقد لا يسمح لهم القائمون على شؤون المساجد بالمبيت فيها ، وقد

لا يتمكنون من قضاء الحوائج إلا إذا وجدوا ملجأً في مسجد وبعد تجرع مرارة الحنظل ، وقد ينالهم الناس بالقول البذيء ، ويشكون منهم شكاية مصطنعة ، فربما يضيقون ذرعاً ، ويتضجرون من معاملة أهل المدن معهم ، فيشكون ذلك إلى أمرائهم ومسؤوليهم ، فيشفعون لهم إلى السكان ، ويجاملونهم ، ويتملقون لهم ، وقد يمسحون دموع إخوانهم الميواتيين بالنصح والإقناع ، والقول العذب الجميل ، غير أن ذلك كان محنة يومية ، وجهاداً قبل جهاد يقومون به كل يوم [١] ، لكن الصعوبات زالت مع الأيام ، وبدأت نظرة الناس إليهم تتغير ، وأصبح الميواتيون يوماً موضع الحب والاحترام بفضل تضحيتهم وإيثارهم ، وحماسهم وإخلاصهم .

الإقبال على العلماء :

وقد قرّر الشيخ منذ أول يوم أن هذا العمل الغريب الدقيق الحساس ـ الذي هو مشفوع بشيء كثير من مراعاة دقيقة ـ لا يمكن الاطمئنان إليه ما لم يدخل فيه أهل العلم والصلاح ، يشرفون عليه ويقومون بتوجيهه ، كان يود أن يقبل عليه من هم أهل لذلك ،

---

(١) وقال الشيخ مرات: أن الشيخ داود ـ الذي كان في أغلب الأحيان وسيطاً بين سكان المدينة والميواتيين الدعاة ـ قد ضاقت نفسه يوماً بعد ما انهالت عليه الشكاوى من أهل المدينة والميواتيين، وتألم قلبه، وبكى بكاءً طويلاً، وكان الشيخ يقول: إن بكاءه قد شق الطريق ، وسهل العمل ، وباركه .

ويضعوا مواهبهم في تصعيد هذا العمل حتى تترسخ جذور دوحة الإسلام ، ويتقوى ساقها ، وتخضر أغصانها وأوراقها.

ولا يريد من العلماء أن يسهموا في ذلك بالخُطَب والمواعظ فحسب ، بل كان يريد منهم أن يقوموا بمحاولة نشر الإسلام ، وتبليغ الدين على طريق السلف ، بجولات ورحلات وزيارات ولقاءات ، يقول في رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي:

«إني أرى منذ مدة ، أن هذا العمل لا يصل إلى مرحلة الكمال والتمام ما لم تتنبه الطبقة المثقفة ، وتؤم الشعب ، وتقرع أبواب بيوتهم ، وتحل بهم ، وتتجول من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى مدينة كالدهماء ، لأن لحركية أهل العلم وعملهم تأثيراً في قلوب الشعب لن يكون لخطبهم الحماسية النارية ، إن حياة السلف تدل على ذلك ، وذلك شيء ليس يخفى على أهل العلم أمثالكم».

وكان يعتقد بعض العلماء والشيوخ الذين يعملون مدرسين ، أن مساهمة المدرسين والطلاب في هذه المحاولة الدعوية ، والإصلاحية ، تكون عائقة لهم في سبيل الأشغال العلمية ، والدراسية ، والتقدم العلمي ، غير أن المنهاج الذي كان يريد الشيخ أن يسير عليه الطلاب والمدرسون فيما يتعلق بهذا العمل الدعوي ، كان في الواقع منهاجاً لهم مستقلاً لرقيهم العلمي وإتقانهم لما يدرسون أو يتعلمون ، يقول في رسالة:

«إن هذا الدين المبارك إنما ينمو ويترقى بقدر رقي العلم ونموه ، وفي ظلال رقي العلم وتقدمه ، فإذا كان هناك في حركتي ما يمس العلم وينال من المحاولة العلمية ، فإن في ذلك خسراناً مبيناً لي ، إني لا أهدف من التبليغ إلى منع المتقدمين في العلم ، أو مسهم بالضر ، بل إنما أريد أنهم في حاجة إلى تقدم أوفر وأكثر ، وأن المكانة التي يصلون إليها اليوم في الرقي العلمي لا يكون غناء لهم».

كان الشيخ يريد أن يتحرك الطلاب من خلال هذا العمل الدعوي تحت إشراف أساتذتهم على أنهم كيف يؤدون ما يجب عليهم نحو العلم ، وكيف ينفعون الخلق بما تعلموه حتى يكونوا فائزين بعلم نافع لهم ولعباد الله ، يقول في رسالة :

«يا ليته قد تم التمرن في أيام التحصيل على القيام بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت إشراف الأساتذة ، فتكون علومنا نافعة مثمرة ، ولا نأسف فيما بعد أنها كانت نفاية وخواء وتحولت ظلمة وجهلاً وضلالاً ، إنا لله وإنا إليه راجعون».

على كل فإنه أراد أن تصل دعوته إلى الدوائر التي تمتاز بالعلم والتدين فوجّهها إلى المراكز العلمية والدينية.

مبادىء العمل الدعوي في المراكز الدينية :

أوفد الشيخ الميواتيين إلى «ديوبند» و«سهارنفور» و«رائفور»

و«تهانه بهون» وأكّد عليهم أن لا يتحدثوا بالدعوة والتبليغ في مجالس المشايخ ، وأن يقوم خمسون أو ستون شخصاً منهم بالجولات الدعوية في القرى المجاورة ، وأن يتجمعوا جميعاً بعد أسبوع في البلدة ، ثم يتفرقوا منها جماعات إلى القرى والأرياف ، ولا يذكروا الدعوة عند الشيوخ الكبار بأنفسهم إلا أن يسائلوهم ، يقول في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي :

«إن لي أمنية أعيشها منذ مدة طويلة ، أن تؤم هذه الجماعات الدعوية زوايا المشايخ ، وأن تستفيد منهم متقيدين بآداب الزوايا ، وأن تقوم بالدعوة فعلاً خلال ذلك في أوقات خاصة ، في قرى مجاورة وأرجوكم أن تحددوا طريقاً لذلك من قبل مع التشاور مع الواردين من تلك النواحي ، ومن الأغلب أن يحضر هذا العقد مع عدة رفقاء ، وأنوي التوجه بهذه المناسبة إلى «ديوبند» و«تهانه بهون» .

اقتناع أهل القلب واليقين بهذا العمل الدعوي :

وعلى ذلك فقد زالت تلك الشكوك والشبهات التي كانت تساور بعض أهل اليقين والإحسان ، فيما يتعلق بهذا العمل ، واقتنعوا به .

كذلك كانت الجماعات في «تهانة بهون» ، تعمل في القرى المجاورة ، وكان الواردون يتحدثون إلى الشيخ أشرف علي

التهانوي[١] عن أعمال الجماعات ، وخدماتها ومنجزاتها ، وعن المبادىء التي تلتزمها ، ومظاهر الخير والبركة التي شهدتها تلك الأمكنة نتيجة تجوال تلك الجماعات ونزولها في تلك المواطن ، وكان الشيخ التهانوي في شك كبير من ذلك ، لأنه كان يعلم أن العلماء والأفاضل الذين تخرجوا في المدارس ، وقضوا في سبيل التعليم ثماني أو عشر سنوات أو أكثر ، ولم يقدروا بعد كل جهد جهيد ، أن يكسبوا نجاحاً كبيراً في هذا المجال ، بل كانت النتيجة معكوسة ، ونجمت فتن جديدة ومفاسد كثيرة ، فكيف بهؤلاء الميواتيين الذين لم يتلقوا التعليم والتربية البتة ، استطاعوا أن يقوموا بهذا العمل العظيم الدقيق ، على كل فكان الشيخ التهانوي لا يطمئن إلى ذلك ـ بحكم طبيعته المتحفظة المتأنية الحكيمة ـ ويخاف أن تكون هذه المحاولة نواة فتنة جديدة ، ولكن أخيراً حصل له الإقناع في هذا الشأن بما تتابع عليه من أخبار البعثات الدعوية الطيبة ، وبما رأى بأم عينيه من تباشير الخير والبركة التي ظهرت من أجل عملها ، ومن هنالك عندما أراد الشيخ محمد إلياس أن يتحدث مع الشيخ التهانوي في هذا الصدد ، قال التهانوي:

---

(١) المربي الكبير والمصلح العظيم الشيخ أشرف علي التهانوي صاحب مؤلفات ورسائل يبلغ عددها إلى ثمانمئة مؤلف ، بين كتاب ورسالة على الأقل ، توفي إلى رحمة الله تعالى في ١٧ من رجب سنة ١٣٦٢هـ.

لا حاجة إلى الدلائل ، لأن الدلائل إنما تقدم من أجل تقرير شيء وتأكيده ، وقد تأكدنا من جانب هذا العمل ، واقتنعنا به عن طريق نماذج عملية ، فنحن في غنى عن كل دليل ، وأحمد الله ، وقد حولتم اليأس رجاء».

ومما كان يجعل الشيخ التهانوي لا يطمئن إلى ذلك ، إنه كان يفكر أن هؤلاء الميواتيين أنى لهم أن يقوموا بمسؤولية عرض الدعوة والتبليغ دون علم ودراسة وتربية ، ولكن زال شكه ذلك حينما أكد له الشيخ ظفر أحمد التهانوي[1] ، أن هؤلاء المبلغين لا يتعرضون لشيء غير الذي تعلموه وتمرنوا عليه بصورة عملية.

حماس الشيخ محمد إلياس وعزيمته وقلة إقبال العلماء:

وقد رسخ إيمان الشيخ محمد إلياس بهذا العمل وفائدته ، وزاد حماسه ، وقويت عزيمته ، على الحين الذي كان أهل العلم والفضل لا يقبلون عليه إقبالاً لائقاً ، مما كان يقلقه ويؤلمه كثيراً ، وكان اعتقاده يزداد مع الأيام أن هذه المحاولة الدعوية التي نهض بها هي علاج كل فتنة ، ودواء كل داء ، وحل كل مشكلة ، يقول:

---

(١) ابن أخت الشيخ أشرف علي التهانوي والعالم الجليل والمؤلف الكبير مؤلف كتاب «إعلاء السنن» تُوفّي في باكستان في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٩٤هـ.

«لا أدري أية قوة أستخدمها للإفهام والإقناع ، وبأي لسان أصارح ، وبأية قوة أثبت في ذهني وبأي حيلة أحول المعلوم البديهي الواضح كل الوضوح مجهولاً ، أو أجعل المجهول معلوماً ، إني اؤمن إيماناً كاملاً بأنه ليس هناك «سدّ سكندري عال» أمام هذا التيار الجارف ، والسيل العرمرم من الفتن العمياء ، والظلمات المتراكمة ، إلا المساهمة في هذه المحاولة التي نهضت بها بكل قوة ، وبكل حماس وعاطفة ، وبالقلب والقالب ، وبصرف كل جهد وعناية إليه» .

ويبدي عن هذا القلق ، ويدل على هذا الخطر الذي كان يلمسه في رسالة أخرى يقول فيها :

«من العبد الحقير الفقير محمد إلياس ، الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات ، اللهم لك الحمد شكراً ، ولك المن فضلاً ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإني لا أجد الكلمات التي أبدي بها عن القلق البالغ الذي يرافقني ، وأنا أكتب إليكم هذه السطور ، صديقي الحبيب ، الأمر الذي أريد تسجيله أنا إذا كان من فضله القيام بهذه الحركة ، ما نلمسه من رضا الله جل وعلا ، ونصره وعونه ، وتقربه وفضله وكرمه ، فإنه في نفس الوقت نخاف بقدر ذلك ، الحرمان والخسران ، واللوم والشؤم والشقاء ، من أجل عدم تلقي هذا الضيف الإلهي المبجل بإكرام لائق وحفاوة مستوفاة» .

إلا أن الشيخ كان يتألم في قلبه ، ويذوب توجعاً في داخله ، ويحاول إلى حد ممكن أن لا يبوح بكلمة شكوى من ذلك ، ولم يكن موقف الشيخ أن يحمل المسؤولية أحداً ، بل عندما يشكو أحد من غير العلماء إهمالهم وقلة حماسهم في هذا الشأن ، يرد عليه الشيخ بقوله :

«أيها الأخوة إذا كنتم لا تملكون أن تنفضوا أيديكم من الأشغال التي ترونها بدوركم أنها مادية صرفة ، فكيف بهؤلاء العلماء أن يتنازلوا عن الوظائف التي يرونها ـ عن جدارة واستحقاق ـ إنها في صالح صميم الدين والمصلحة الإسلامية؟!» .

أسباب قلة إقبال العلماء :

وكانت هناك أسباب فيما كانت هذه الدعوة لا تستقطب من اهتمام لائق ، ولا تتلقى من عناية مستحقة :

١ ـ كان العهد عهد الحركات والدعوات ، وكانت القلوب والأذهان مصروفة إليها ، فكان من الصعب أن يقبل الناس على حركة الشيخ الهادئة الجادة البناءة ، في العهد الذي يموج بالحركات الصارخة ذات الضجيج والضوضاء ، وكانت تجربة الحركات والدعوات المرة التي عاشها الناس ، تقف حجاباً دون نظرهم ، إلى حركة الشيخ إلياس نظرة الأمل والإعجاب .

٢ ـ لم يكن الناس يعرفون عن هذه الدعوة إلا معرفة ضئيلة غير

مشبعة ، ولا يعرف فصها ونصها إلا المتصلون به ، أما المترامون ولا سيما عامة أهل العلم ، فكانوا لا يعرفون عنها شيئاً ، وذلك أنه لم تكن هناك عناية ما بما تلقاه الدعوة من نجاح ، وتحققه من خير ، وتنشره من بركة ، وتشهده من نتائج سارة.

٣ ـ وكانت كلمة «التبليغ» التي كانت عنوان هذه الدعوة ، والكلمة الكثيرة الإطلاق عليها ، تقف سداً منيعاً دون فهم عمقها وشمولها وحقيقتها بعيدة المدى ، فكان الناس لا يقبلون عليها ظناً أنها حركة كحركات سطحيات أخرى كثيرة تطلع وتغرب صباح مساء ، أو يرونها فرض كفاية ، يكفي قيام بعض الأفراد به عن البعض الآخر.

٤ ـ كان الشيخ محمد إلياس هو الشخص الوحيد الذي يعرض هذه الدعوة على أهل العلم والطبقة المثقفة ، وكان يأتي حديثه ملتوياً غامضاً دقيقاً ، مشتملاً على معاني عميقة ، ممداً بلفتات وإشارات بارعة ، أضف إلى ذلك العقدة التي كانت في لسانه ، وحماسه الزائد ، وعاطفته الملتهبة ، فكان الواردون الجدد الذين كانوا يفاجؤون بذلك لأول مرة ، وقد يواجهون اضطراباً فكرياً ، واستيحاشاً عقلياً ، ولا يتوصلون إلى عمق الدعوة وأصالة الفكرة ، ومغزى الحركة.

ثم إنه كانت قد تجري على لسانه معان في غاية السمو والعمق ، لا تشتمل عليها الكتب المدرسية المتداولة ، وكانت تلك المعاني

تأتي بكلمات غير عادية لا يصطلح عليها الناس عامة ، مما يجعل العلماء قد لا يتقاربون إلى الدعوة في الفرصة الأولى ، ولا يسعهم أن يصرفوا في ذلك فرصة ثانية.

٥ ـ وما كان الناس ليعلقوا على الشيخ أملاً كبيراً ، عندما كانوا يرون أن الواقفين بجانبه إنما هم هؤلاء الميواتيون السذج ، كانوا يرون الشيخ كمرشد وشيخ طريق ومرب روحي لهؤلاء الميواتيين قد استطاع أن ينفخ فيهم روحاً دينية جديدة ، ويثير فيهم معاني الإيمان واليقين.

وربما كان ذلك من الخير ـ نظراً إلى بعض النواحي المهمة ـ فقد أتاح ذلك لهذه الحركة أن تجتاز مرحلة التقدم والازدهار الطبيعي مصوناً في سياج الخمول والمجهولية ، وكان ـ الله العليم الحكيم ـ قد أراد لهذه الحركة بصورة خاصة أن لا تكون محط الأنظار ، ومصرف اللفتات ، ومهبط العنايات ، إلا في أوانها.

التألم القلبي:

ولكن الآن كان قد آن لهذا المنبع الفياض أن يطفح ويسيل ، ويسقي القاصي والداني، وأن يعم القريب والبعيد، ويتوسع نطاقه.

وكانت الدعوة تسيطر على أعصاب الشيخ ، وتملك عليه عقله وقلبه ، وتكثر على لسانه معان علمية عالية ، ويتوصل فكره يوماً إلى أساليب ومناهج جديدة متنوعة للدعوة ، ويجد تأييدها في

المآخذ الأصيلة من الكتاب والسنة وسيرة الرسول ﷺ وحياة الصحابة رضوان الله عليهم ، وفي ناحية أخرى لم يكن يستمع إلى هذه العلوم والمعارف ويحاول إساغتها وتشربها إلا فتية من شباب المثقفين والميواتيين السُذّج الذين تربّوا في حضنه وتخرجوا في صحبته ، أولئك الذين ما كان لهم عهد بالمصطلحات العلمية الجارية على لسانه.

ولئن كان الميواتيون لا يسيغون هذه المعاني العلمية السامية الدقيقة ، لكنهم كانوا متجاوبين مع هذا العمل الدعوي روحياً ، يفوقون أهل العلم وسكان المدينة في قوة الإرادة والعزيمة وقدرة العمل والتحرك ، وكانوا عصارة جهود طويلة ، ومحاولات مضنية متواصلة ، وضعها الشيخ في تخريجهم طوال عشرين سنة تقريباً ، فكانوا مادة الحركة ، ووقود الدعوة ، وكان الشيخ يدرك هذه الحقيقة ، وقد اعترف بذلك مرات عديدة ، يقول في رسالة إلى زملاء ميواتيين:

«قد وضعت كل ما كنت أملكه من قوة وهمة فيكم أيها الأخوة الميواتيون ، وعُدت لا أملك إلا رصيداً واحداً ألا وهو أن أضحي بكم أنتم ، فأدركوني وساعدوني».

ويقول في رسالة أخرى:

«إن المنصرفين إلى الأشغال الدنيوية ، في كثرة كاثرة ، أما

مهاجرة الوطن ومفارقة الأهل والعيال في سبيل نشر الدين ، فقد وفق الله لذلك اليوم الميواتيين وحدهم».

اتصال توافد الجماعات التبليغية إلى سهارنفور:

وكان يريد أن يضع المراكز العلمية والدينية في مديرية «سهارنفور» في الاعتبار ، ويود أن تكون مساهمة رجال العلم والدين وعامة المسلمين في تلك المنطقة في هذا العمل أوفر ، وقد دأب يحرضهم على ذلك باللسان والبيان ، وفعلاً كانوا يشتركون في عدد لا بأس به في الحفلات الدعوية التي كانت تعقد من حين لآخر في ميوات ، وكان نصيب أساتذة مدرسة مظاهر علوم بمدينة «سهارنفور» في ذلك أكبر ولا سيما الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي ، والشيخ عبد اللطيف عميد المدرسة ، لكن الشيخ إلياس كان يريد أن ترتفع نسبة المساهمة والاشتراك ، أكثر من إيفاد الجماعات الدعوية إلى «سهارنفور» وما جاورها.

الجولات التبليغية في مناطق «مظفرنكر» و«سهارنفور»:

وقام مع أساتذة «مظاهر علوم» بالجولات الدعوية في مناطق «سهارنفور» من «بهت» و«مرزافور» و«سليم فور» ، وفي قرى أخرى وعقد حفلات واجتماعات.

وخرج بجماعة تبليغية كبيرة العدد ، وقام بجولة تبليغية في نواحي «كاندهله» في الفترة ما بين الثالث عشر من جمادى الأولى ،

والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ ، وكوّن جماعات دعوية ، وبثها في المناطق ، وقد تغلبت في هذه الرحلة عليه عاطفة أداء الحقوق نحو المواطنين ، ولم يكن عنده طريق أقوم لهذا الأداء إلا القيام بالتبليغ فيهم ، لأنه كان يرى ذلك خير هدية يقدمها أحد إلى أحد.

وقرر في سنة ١٣٥٩هـ أن يتتابع توافد جماعات الميواتيين إلى «سهارنفور» ولا يغادرها الجماعة الأولى إلا حين تصل إليها الجماعة الثانية ، وكانت الجماعات والبعثات الدعوية تقيم في مباني مدرسة «مظاهر علوم» وبعد سنة كاملة استؤجر بناء مستقل سنة ١٣٦٠هـ لهذا الغرض خاصة.

ورأى الجماعات تواصل زيارتها لتلك القرى والبلدان الآهلة بالعلم والدين إلى حد كبير ، وقد يكون الميواتيون الأميون ، موضع الانتقاد والسخرية وينظر إليهم نظرة الاستغراب ، ويتساءلون: كيف يكلفون بالدعوة والإصلاح ، وهم بدورهم في حاجة إلى الإصلاح والتعليم ، مما اضطر الشيخ محمد إلياس إلى أن يجلي الحقيقة ، ويضع النقاط على الحروف ، فقال في رسالة:

«لا تظنوهم ـ الميواتيين ـ مصلحين ، وإنما هناك شيء واحد لا بد أن تتعلموه منهم ألا وهو مفارقة الأهل والوطن من أجل نشر الدين ، وأما في غير هذا الشيء ، فلا بد أن تروهم في حاجة إليكم ، وإنما ينتقدهم الناس لأنهم يرونهم مصلحين».

توافد الناس من مناطق بعيدة:

في ٥٨ ـ ١٣٥٩هـ نشرت مقالات في بعض المجلات والجرائد عن هذه الدعوة والحركة ، وتسامع بها الناس كثيراً في مناطق نائية عن ميوات ودهلي فتوافد كثير من الناس ، ممن كانوا يحرصون على هذا النوع من العمل الدعوي ، أو على خدمة دينية على أي طريق ، واجتمعوا بالشيخ محمد إلياس وزاروا منطقة ميوات ، وكان من هؤلاء السعداء بعض أساتذة دار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو ، وقد جذبت إلى ذلك انطباعاتهم عن هذه الدعوة أناساً آخرين ، وقد عبّر بعض أولئك الذين اطلعوا على الدعوة باكتشاف جديد ، وتساءلوا في دهشة واستغراب: كيف أن هذا العمل الكبير ظل يتم إلى هذه المدة الطويلة في هذا الصمت والخمول؟

وأبدى الشيخ سروره البالغ على توافد هؤلاء الضيوف الجدد ، وتلقاهم بكل ما عنده من حفاوة بالغة ، وعلى ذلك فقد بدأت الطبقة المثقفة والمشتغلون بالعلم والتعليم والتدريس يقبلون على هذه الحركة ، واحتفى بهم الشيخ احتفاء جعلهم في حيرة واستعجاب ، فقويت رغبتهم في العمل ، وكثر إقبالهم.

تنسيق العمل الدعوي في مدينة دهلي:

ولتنسيق العمل الدعوي في مدينة دهلي ، وتصعيد نشاطاته ، نصب الشيخ الحافظ مقبول حسن أميراً على جميع الجماعات

التبليغية في دهلي ، وانتظمت الجماعات وانضبطت وزادت فعاليتها ، بمحاولات الحافظ مقبول حسن والحافظ فخر الدين.

وقرر الشيخ أن تجتمع الجماعات كلها ليلة الجمعة في المقر الدعوي في «بستي نظام الدين» بدهلي ، وتجتمع يوم الأربعاء الأخير من كل شهر في المسجد الجامع الكبير ، وتتحدث عن منجزاتها ، وتتخذ البرنامج لما يأتي مع التشاور فيما بينها ، كل ذلك تنشيطاً للعمل ، وزيادة للاتصالات فيما بين الأعضاء والعاملين ، وقد كان الشيخ يشهد هذه الاجتماعات واللقاءات ويحاول أن يشهدها علماء وصلحاء آخرون ، وكان يوجه دعوة عامة للحضور في نظام الدين ليلة الجمعة ، وكل من يقضي لياليا في نظام الدين ، ينشأ في قلبه تجاوب روحي مع هذه الدعوة ، وفي أغلب الأحيان يتناولون العشاء في نظام الدين جماعياً ، وكان الشيخ يتحدث إليهم في الموضوع قبل صلاة العشاء وبعدها ، وربما يتحدث بعد صلاة الصبح أيضاً ، وقد يطلب إلى بعض العلماء والخطباء الآخرين من الحضور ممن كان فيهم بأن يوفي حق التعبير عن أغراض الدعوة ، وقد يحضر صلاة الصبح من لم يحضروا صلاة العشاء ، من وجهاء مدينة دهلي ، والطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وبعض أساتذة «الجامعة الملية» بدهلي ، ولا سيما الدكتور ذاكر حسين[١] ، الذي

(١) من رجال التربية العاملين، مدير الجامعة الملّية بدهلي، ومدير الجامعة:

كان يحضر صلاة الصبح ، ويعود بعدها ليستمع إلى حديث الشيخ ، وكانت تزداد نسبة الحاضرين في اجتماع تلك الليلة مع الأيام ، مما نفخ في العاملين روح العمل والنشاط ، وحرك روح الإقبال على الدعوة في الواردين الجدد.

دبيب روح الدين في تجار دهلي:

كان تجار مدينة دهلي متصلين بالشيخ اتصالاً وثيقاً ، أما الشيوخ المتقدمون في السن منهم ، فكان اتصالهم مستمراً منذ أيام والده وأخيه الأكبر ، والشباب منهم توارثوا هذا الحب والإعجاب من سلفهم وشيوخهم ، وكثير منهم عقدوا الاتصال معه بأنفسهم.

على كل فإن الذين تبنوا دعوة الشيخ ـ بعد الميواتيين ـ وأحبوا الشيخ حباً جماً وأخذوا بأمره في كل احترام واعتبار ووقار ، ووفقوا إلى خدمته والبرِّ به ، أكثر من غيرهم على الإطلاق ، هم هؤلاء التجار في مدينة دهلي ، وكانوا يواصلون الحضور في مجلس الشيخ بنظام الدين ، وخصوصاً في ليالي الجمع ، وفي الأغلب يقضون الليالي هناك ، ويشهدون الاجتماعات التبليغية في الميوات بالباصات ، وقد يحملون الطعام الذي صنعوه في دهلي معهم

الإسلامية بعليكراه بعد ، ثم اختير والياً لولاية بهار ، وأخيراً كان رئيس الجمهورية الهندية ، مات في ٣ مايو سنة ١٩٦٩م.

للإخوة العاملين ، ويقومون بجولات دعوية في المناطق المجاور
مع إخوتهم الميواتيين.

وكان الشيخ يحضر مناسباتهم في حب وعطف ، لكنه ما كان
يتغافل لحظة عن وظيفته في أية مناسبة وأي مكان ، وأي أوان ،
كان يعطف على صغارهم عطف الآباء على الأبناء ، ويقاسمه
المسرات ويشاطرهم الأحزان والآلام ، ولكنه لا يفوت فرصة دون
إصلاحهم وشغلهم بالوظيفة الأصيلة ، ويعامل كبارهم ـ ولا سيم
الذين كانت لهم علاقة مع والده وشقيقه الأكبر ـ معاملة الاحترا
والإكرام ، ولكن يعاتبهم إذا رأى إهمالاً منهم في جنب الدعو
استناداً إلى العلاقة ، ولكن ذلك كله ما كان ينال من علاقته
وحبهم.

وزاد إقبالهم على الدين ، وتمسكهم بالشريعة ، وانصهارهم في
بوتقة الإسلام والإيمان ، وتعاليم الحديث والقرآن ، من أجل
إسهامهم في الدعوة والتبليغ ، واحتكاكهم بالعلماء ورجال الدين
في الرحلات ، واختلافهم إلى الشيخ ، واتصالهم به اتصال الحب
والإعجاب ، والطاعة والانقياد ، وظهر في تعاطيهم ، وأخلاقه
وعاداتهم ، ومظاهر سلوكهم وحياتهم ، تغير ملموس ، وما كان
الشيخ يتعرض للجزئيات والفروع ، وإنما كان يعرض الأصول
والمبادىء ، ولكنهم أقبلوا على الدين بأجزائه وجزئياته ، يطبقونه
في واقع حياتهم ، ويمثلونها تمثيلاً عملياً صادقاً ، لأنهم أحبّو

الدين وأعجبوا به إعجاباً كبيراً ، وتجلّت قيمته في عيونهم ، ومن أجل ذلك كله امتازوا عن إخوانهم الآخرين ، حتى إذا رآهم الناس عرفوا أنهم من المتصلين بالشيخ محمد إلياس والمسهمين في دعوته وحركته ، وبلغ بهم التغير إلى أن التجار الذين كانوا يكرهون أن يوظفوا أصحاب اللحى في دكاكينهم ، عادوا يعفون اللحى بأنفسهم ، والذين كانوا يرون في كون موظفيهم مواظبين على الصلاة ضياعاً لأرباحهم ، وكساداً لتجارتهم ، بدؤوا يقومون بجولات تبليغية في أوقات تفتح فيها الدكاكين ، ويكثر فيها الإقبال عليها ، ويتقاطر فيها المشترون ، ولم يعودوا يكرهون المشي على الأقدام ، حاملين أمتعتهم وفرشهم على كواهلهم في الأسواق وعلى مرأى من الناس ولم يشعروا بالذل والعار والشنار في افتراش الغبراء ، وغمز أرجل الأصدقاء وصنع الطعام بأيديهم ، والتردد على أبواب الفقراء والمحتاجين والمجردين من حارة إلى حارة ، ومن حي إلى حي ، على كل تحولت حياة الكثيرين كلياً ، فما هي التي كانوا يعرفونها ويعيشونها ، وذلك أن البيئة قد تغيرت ، فتغيرت العقلية والنفسية .

إقبال الأثرياء وموقف الشيخ المبدئي منهم :

تسامع بهذا العمل الإسلامي العظيم تُجّار المسلمين في دهلي وخارج دهلي ، واطّلعوا على نفقاته الكبيرة وتكاليفه الباهظة ، فعرضوا على الشيخ معونات مادية كبيرة ، ومبالغ خطيرة ، ولكن

كان موقف الشيخ منهم موقفاً مبدئياً حاسماً ، كان الشيخ يؤمن بأن المادة لا يمكن أن تقوم مكان الإنسان قط ، إنه ككناسة تتجمع من احتكاك الأيدي البشرية فأنى لها أن تسدّ مسد الإنسان الذي لا يقوّم ، فكان يقول لكل من يقدم إليه معونة مادية إننا لا نحتاج إلى أموالكم ، وإنما نحتاج إلى أنفسكم أنتم ، وكان لا يقبل إلا معونة من يسهم في العمل مساهمة عملية ، وكان يرى أن ذلك هو الطريق المطلوب الصحيح لدى الشريعة الإسلامية للإنفاق في سبيل الله ، وكان ذلك هو المتبع في فجر الإسلام ، فإن الذين نرى أسماءهم لامعة في رأس قائمة المنفقين في سبيل الله وإعلاء كلمة الله في الأرض ، هم أولئك الذين كانوا في طليعة المسهمين في العمل الإسلامي مساهمة عملية ، بصورة شخصية .

وجملة القول: إن الشيخ إنما كان يقبل المعونة المادية ممن كانوا يسهمون فعلاً في حركته الإصلاحية والدعوية ، الذين كان يثق بإخلاصهم وحبهم ، وكان في طليعة هؤلاء السعداء في مدينة دهلي الشيخ الحاج محمد نسيم الذي كان يتجر في الرز ، والشيخ محمد شفيع القريشي ، وغيرهما .

اجتماعات «ميوات» الدعوية :

وفي الأغلب كانت تعقد حفلة في كل شهر في مكان بميوات ، وحفلة كبيرة في كل عام بمدرسة مدينة «نوح» تشهدها الجماعات التبليغية في دهلي ، وتجار دهلي ، والمقيمون بنظام

الدين ، وكثير من أساتذة وعلماء «مظاهر علوم» بسهارنفور ، ودار العلوم بديوبند ، ودار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو ، و«مدرسة فتحبوري» بدهلي القديمة ، ويحضرها الشيخ مع رفقته جميعاً ، ويشغل الطريق كله بالحديث الدعوي ، ومبادىء العمل الدعوي ، بأسلوب حكيم ملؤه الحماس والعاطفة والتألم ، وكان الرفقة ـ الذين كان جلهم من الأعضاء العاملين ـ يشعرون كأنهم يستمعون إلى حفلة متنقلة ، بدأت من نظام الدين ، وستنتهي بالوصول إلى المنزل.

وما أن كان أهل القرية يتسامعون بوصول الشيخ ، حتى يتقاطرون إليه خارج المدينة يستقبلونه ، ويتلقونه في موجة من الفرح والسرور ، يصافحونه ويعانقونه في حب وإعجاب ، ويدخل هذا الجمع الحاشد ـ وفيه الأطفال والشباب والشيوخ ـ القرية ، فيتحلق حوله مئات من الناس ، ويصافحهم الشيخ في حب وحنان ، ويعانق بعضهم أيضاً ، ويمسح بيديه على رؤوس بعض منهم ، ثم يجلس فيهم ويحادثهم.

وكان يقضي الأوقات كلها بمر أيام هذه الحفلات والاجتماعات فيما بين هؤلاء الميواتيين المساكين ، ويبيت في حجرة من المسجد ، أو إزاء فنائه ، ويمضي النهار كله ومعظم أوقات الليل في الحديث معهم ، ويزيد نشاطه وانتعاشه ،

وقوته وحماسه مع الدخول في ميوات ، وكانت العلو
والحقائق والمعارف تفيض على لسانه ، وكان الميواتيون
يستمعون إليها وهم آذان صاغية وقلوب واعية ، وتنفذ في
قلوبهم وتتذوقها نفوسهم ، أساغوها أو لم يسيغوها ، وكان
الشيخ لا يتوقف لسانه ، ولا يهدأ باله ، ولا يستجمّ إلا قليلاً ،
فكان يعود من ميوات وهو محطّم ممزق ، وقد تصيبه الحمى
ويغص بالكلام .

وتطبع هذه الاحتفالات والاجتماعات الجو كله بطابع الإيمان
واليقين والروحانية والربانية ، والإشراقة والنورانية ، يؤثر على
القلوب ، ويرقق النفوس ، مهما كانت قاسية أبية ، وتغدو البيئة
آهلة بالذكر ، والمساجد معمورة بالذاكرين والركع السجود ، ولا
يجد المرء مكاناً في المسجد إذا أبطأ قليلاً ، وقد تقوم الصفوف
على الشوارع والطرق ، ويكون الهجيع الأخير من الليل ووقت
السحر معنى طيباً جذاباً بصورة خاصة ، يبعث الإيمان ويغذي
الروح ، وحيث كان يبيت هؤلاء الميواتيون ، الحريصون على
دينهم ، الغيورون على عقيدتهم ، والمتذوقون لحب الله ورسوله
في فناء المسجد ولا يظلهم إلا السماء ، ولا يغطيهم إلا الندى ،
والأيام أيام برد قارس ، وشتاء قاتل ، ويتسمعون إلى الخطب
والأحاديث الدينية صامتين صامدين ، لا يبرحون مكانهم ساعات

طوالاً ، في ليلة مطيرة شاتية ، وتحت خيام متقطرة ، وأشجار متمطرة.

وكانت الخطب والمواعظ في أمثال تلك الحفلات في دوحة ثانوية ، ولا تكون مقصودة منشودة ، وإنما المطلوب هو محاولة تكوين الجماعات الدعوية ، وإرسالها إلى الأرجاء ، وكان ذلك هو المقياس الذي يقاس به نجاح الاجتماعات وإخفاقها ، حيث يوضع في الاعتبار ، كم جماعة تكونت وخرجت ، وكم وقتاً ستشغله في الجولات والرحلات الدعوية ، وكم جماعة تهيأت للخروج إلى خارج المنطقة إلى الولاية الشمالية وما إليها ، كم جماعة رضيت بالتجوال في داخل المنطقة والقرى المجاورة ، وذلك هو الشيء الوحيد الذي يطلبه الشيخ من الحاضرين والمستمعين ، ويراقب الاجتماع بنفسه من هذه الناحية ، ويرى كم طلباً إلى الحضور لذلك ، وكم ألح عليهم في هذا الشأن ، ثم إن الميواتيين المُحنّكين في العمل التبليغي ، والأعضاء العاملين من مقيمي نظام الدين ، يجمعون أقيال القبائل الميواتية ، وعريفي الأسر والبيوتات ، ووجهاء المناطق في ناحية ، ويتحدثون إليهم في الموضوع ، ويستعينون في إعداد الجماعات التبليغية الجديدة.

ولا يطيب له طعام ولا شراب ، ولا يهدأ له بال ، ولا يكتحل

بنوم ، مالم يتم هذا العمل ، ولم يكن ليغادر القرية ، ما لم يطمئن من هذه الناحية ، ولئن اطمأن من هذا الجانب ، عزم على العودة إلى نظام الدين ، ثم لا يمنعه من الرحلة إصرار المستضيفين ، ولا إلحاح المخلصين ، ولا ما أصابه في سبيل المهمة من تعب ونصب.

وأعضاء الأسرة العاملة في المقر الدعوي بنظام الدين ، كانوا يحضرون القرى التي تعقد فيها الاجتماعات ، قبل مواعيد الاحتفالات ، ويعملون على تهيئة الجو ، وتمهيد الأرض ، ويثيرون الحرص ـ بالجولات والزيارات ـ في الناس على الحضور في الاحتفال ، والرغبة في الاستماع ، والجدارة للاستفادة مما سيلقى في الاجتماع من خطب ومواعظ.

ويقيمون بعد الاجتماعات أياماً ، يستغلّون أولئك الذين استعدوا للخروج في الجولات والرحلات الدعوية ، ولا يعودون إلى نظام الدين إلا حين تتم جميع المراحل ، ويتم التخطيط وبرمجة العمل الدعوي ، وتحديد مناطق الجولات وإيفاد الجماعات.

وكان سكان القرية يوفون حق القرى والإكرام ، ويستضيفون الحاضرين ـ القابلين من ميوات وخارج ميوات ـ الذين يبلغ عددهم إلى الآلاف ، في سماحة وشهامة ، إلى أيام ، وعلى

الرغم من ذلك لا يشبع طموحهم ، ولا يرضي رغبتهم في الإكرام ، ويتأسفون على انفضاض الاجتماع ، ومغادرة الضيوف ، إن شهامتهم جددت ذكرى العرب الأجواد ، الذين عجنت طينتهم بالقرى وإكرام الضيف[١] .

وقد خرّج الشيخ هؤلاء الميواتيين على إكرام المسلم أياً كان أصله وفصله ، وعلى تعظيم واحترام أهل العلم والدين ، وبلغت بهم التربية على هذا الجانب إلى أن كل ميواتي يرى كل وافد من الخارج كأنه محسنه الديني الذي تلقى منه الدين والإيمان ، وكثير من الوافدين يعودون يتأسفون على حالهم ، وقد يخافون على أنفسهم النفاق والرياء حينما يدرسون ما يتمتع به الميواتيون السذج القرويون ، من حماس ديني ، وغيرة إيمانية ، وعاطفة إسلامية ، وروح الإخلاص ، والحب والود ، والتواضع وإنكار الذات ، ورقة القلب وتألم الصدر ، والحرص على العبادة والذكر ، وما يتجلى في حياتهم من السلوك الإسلامي والطابع الإيماني والقرآني .

---

(١) وكان مضيف الشيخ في بلدة «نوح» الشيخ الحاج عبد الغفور ، كان ينزل دائماً عليه ، مع رفقته الكثيرين بمناسبة الاجتماعات ويقريهم الحاج عبد الغفور في سخاء نفس ورحابة صدر ، وكان رحمه الله من خلفاء الشيخ الكبير الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة ، انتقل إلى رحمة الله تعالى في ١١ رجب ١٣٦٠هـ.

وقد سأل الشيخ رجلاً قد عاد من مثل تلك الحفلة الدعوية في ميوات: ماذا وراءك؟ فقال: يا سيدي! عدت أستحيي أن أسمي نفسي مسلماً بعد ما رأيت هناك من مظاهر الحياة الإسلامية الأصيلة.

الاحتفال الدعوي الكبير في «نوح»:

عقد احتفال كبير في ٨ ـ ٩ ـ ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠هـ ـ الموافق ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٤١م في بلدة «نوح» بمديرية «جرجانوه» وشهدها حشد إنساني هائل لم تشهد ميوات في مكان واحد وآن واحد مثله قط، يقدر عدد الحاضرين من ٢٠ ـ ٢٥ ألفاً، وجلهم قد حضروا «نوح» من مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلاً، ماشين على الأقدام، حاملين معهم أفراشهم وأزودتهم وأقواتهم، ولا يقل عدد الضيوف الحاضرين من خارج ميوات عن ألف شخص الذين كانوا نازلين في مبنى «معين الإسلام»، يتناولون الطعام في رحابها.

وصلى بالناس الجمعة في سرادق الاحتفال الشيخ المحدث القائد المجاهد حسين أحمد المدني المتوفى في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧هـ وكانت الجمعة في جميع مساجد البلدة أيضاً، ولكنها لم تسع المصلين فصلوا في الشوارع والطرق، والسطوح، وسقوف الغرف والعلالي، وتوقف سير المرور.

وبدأ الاحتفال بعد صلاة الجمعة ، ولا رئيس ، ولا لجنة الاستقبال ، ولا العاملين رسمياً على إقامة النظام وتنسيق الاحتفال ، وتنظم الحضور ، ولكن كانت جميع الإجراءات والمداولات تتم بصورة منظمة وعلى أحسن ما يرام ، ويتجلى في القائمين على الاحتفال نشاط وحماس لا عهد بهما للعاملين الرسميين في عامة الاحتفالات والمؤتمرات ، الذين يرتدون أزياء خاصة ، وشهد الاحتفال سكان دهلي في عدد كبير .

وبعد انفضاض الاحتفال أبدى المفتي فضيلة الشيخ محمد كفاية الله[1] ـ الذي حضر الاحتفال ـ انطباعاته ، فقال: «قد شهدت ـ ولا أزال ـ كل نوع من الاحتفالات والندوات والمؤتمرات الدينية والسياسية لكني ما شهدت حفلة كهذه الحفلة في سعادتها وبركتها وعظمتها» .

وكان الاحتفال في الواقع زاوية إسلامية حية ، كان معظم الحاضرين فيها رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار ، عباداً في الليل ،

---

(١) من كبار علماء الهند ورجال الفتوى ، ومن كبار القادة والزعماء المسلمين في حركة التحرير ، كان رئيس جمعية العلماء في الهند مدة طويلة ، توفي إلى رحمة الله تعالى في ١٣ من ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ.

وخدمة بارين في النهار ، وكان الجمع بين هذا وذاك من أهداف هذه الدعوة.

وكان الشيخ ـ بجانب جلسات هذا الاحتفال ـ يتحدث إلى الحاضرين في موضوعه قياماً وقعوداً ، وبعد كل صلاة الجماعة ، وكان يدعو مع الحاضرين بعد الصلوات دعاء الخاشع الخائف ، المضطر ، المستجير الذي ذلت رقبته لربه ، وخضع له رأسه ، وآمن به قلبه، ولا يقل هذا الدعاء من خطبة مستقلة، مؤثرة مرققة.

الجماعات التبليغية إلى الخارج:

وتوجهت الجماعات التي تكون من الميواتيين، وتجار دهلي، وتلاميذ المدارس إلى الأنحاء المختلفة، وإلى مناطق الولاية الشمالية، ولاية «بنجاب» من «خورجه» «وعلي جراه» و«أكره» و«بلندشهر» و«ميرته» و«باني بت» و«سوني بت» و«كرنال» و«رهتك» ، وتكررت الجولات في بعض الأمكنة ، إذا اقتضت الضرورة ، وتكونت فيها جماعات جديدة ، وبدأ الناس يتوافدون من هذه المناطق إلى المقر الدعوي في نظام الدين بدهلي.

الجماعات الدعوية إلى «كراتشي»:

وتوسّع نطاق العمل مع الأيام ، وتوجهت على دعوة من بعض المخلصين الذين تأثروا بالدعوة جماعتان إلى «كراتشي» الأولى

في صفر سنة ١٣٦٢هـ الموافق فبراير سنة ١٩٤١م ، والثانية في أول أبريل ، وجرى العمل في «كراتشي» و«السند» وقامت جماعات جديدة عديدة في أحياء كراتشي .

وكان الشيخ يتمنى كثيراً أن يعم هذا العمل في المنطقة الساحلية ، لأنه كان يسكنها كثير من العرب وأناس من بلاد أخرى ، فكان يريد أن تنبثّ دعوته عن طريق هؤلاء إلى هاتيك البلاد ، ولا سيما البلاد العربية .

الرحلة إلى مدينة لكهنؤ وزيارتها الدعوية :

كان طلاب دار العلوم ندوة العلماء ، وأساتذتها ، يقومون بالعمل الدعوي في «لكهنؤ» وما جاورها منذ عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م ، على طريق الشيخ محمد إلياس ، وحسب مبدئه وتوجيهاته ، وكانوا يزورون الشيخ في مقره الدعوي بنظام في أيام العطلة وكثير من المناسبات ، وكان الشيخ يحبهم كثيراً ، وتوطدت علاقتهم معه ، وكان الشيخ يتابع أخبار ما ينجزون من العمل الدعوي في رغبة وحرص ، ويعطف عليهم بصورة خاصة .

ورضي الشيخ أن يزور لكهنؤ على دعوة منهم في رجب سنة ١٣٦٢هـ ، وحضر لكهنؤ قبل قدوم الشيخ جماعة الميواتيين وتجار دهلي الذين كان يتراوح عددهم بين ٣٠ أو ٤٠ شخصاً ، حتى تعمل على تهيئة القلوب والأذهان بالتجوال في أحياء

المدينة ، حتى تكون زيارة الشيخ مثمرة نافعة ، وموضع الاستفادة الكاملة ، وأقامت الجماعة في مبنى دار العلوم ندوة العلماء.

وكان برنامج الجماعة أنها كانت تخرج كل يوم بعد صلاة العصر إلى المدينة ، وتقوم بالجولة بعد صلاة المغرب ، في حي من أحياء المدينة ، وبعد صلاة العشاء في مسجده تتحدث عن مبادئها وأهدافها في خطبة أو خطبتين ، ثم تعود بعد تكوين جماعة جديدة إلى المنزل ، ثم تتناول العشاء ، ويستمر ذلك إلى نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً.

ثم تشغل بعد صلاة الفجر بالتعليم ـ الذي كان أهم برامج الرحلات التبليغية ـ وتصرف بعض الوقت في التجويد وتصحيح مخارج الحروف ، وتنفق بعض الوقت في تعليم الأحكام الدينية والحديث عن الفضائل ، وبعض الوقت في الاستماع إلى أحوال الصحابة وأخبار جهادهم وبطولاتهم ، وتتمرن بعض الوقت على عرض أصول الدعوة ومبادىء التبليغ ,تعليمها وتعلّمها ، ثم يأتي وقت تناول الطعام والاستجمام ، وصلاة الظهر ، وبعد صلاة العصر تقوم بتحقيق برنامجها كالعادة.

وقد حضر الشيخ في ١٨ من يوليو سنة ١٩٤٠م ، ويرافقه الحافظ فخر الدين ، والشيخ احتشام الحسن والأستاذ محمد شفيع القريشي ، والحاج نسيم ، ودعا طويلاً ، في ميدان قبل

جسر «موتى محل» في كل خشوع وإخبات وإنابة ، وصلّى النفل .

ودخل دار العلوم ندوة العلماء ، فبدأ بالمسجد ، وقد كانت الجماعات فيه موزعة في حلق كثيرة ، مشغولة بالدروس والأذكار ، والذكر والتعليم ، كل حلقة يراقبها أميرها ، ومعلمها ، ولم ينهض أحد من مكانه ، ولم يبرح وظيفته ليصافح الشيخ أو يعانقه ، أو يستقبله ، على الرغم من الحب العميق ، والاحترام الذي كانوا يكنونه نحوه ، ولم يزد هو على أنه ألقى عليهم نظرة العطف والحنان ، وصافح أميرهم الشيخ مقبول حسن ، وتوجّه إلى منزله .

وقد سبقه إلى دار العلوم «ندوة العلماء» العلامة السيد سليمان الندوي وكان نازلاً معه في حجرة واحدة ، وقد اتفق العلامة أن يرافق الشيخ في القطار قبل ذلك بأيام ، في طريقه من «تهانه بهون» إلى «كاندهله» وتحدث معه ، ثم أبدى انطباعاته عن دعوة الشيخ في حفلة في حارة «حبش خان» بدهلي ، واستطاع أن يعايش أحدهما الآخر طيلة أسبوع كامل أو أكثر .

وحضر في اليوم التالي الشيخ المُحدّث مولانا محمد زكريا الكاندهلوي ، والشيخ محمد منظور النعماني ، والشيخ عبد الحق المدني ، وبعض أساتذة مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور .

وعقدت مجالسة بعد صلاة العصر ثلاثة أيام في قصر السري

الشيخ نعيم الله ، ويومين في منزل الشيخ إقبال علي المحامي ، والمعروف بقصر بهوفال (BHOPAL HOUSE)[١] وتحدث إلى الحاضرين عن أهداف الدعوة ، وعرّفها إليهم.

وبالإضافة إلى تلك المجالس كان يعرض الدعوة ومبادئها وأغراضها ، وحقائق الدين وأسراره على كل من يغشاه في مضيف دار العلوم ، ويستمر ذلك إلى وقت الظهر ، وبعد صلاة الظهر تعقد الحفلة فعلاً في مسجد دار العلوم ، وعلى ذلك فلا تفوته فرصة دون الحديث في الدعوة ، وتعريف الحركة إلى الزوّار والحاضرين.

وزار ـ خلال إقامته بلكهنؤ ـ الشيخ الجليل عبد الشكور[٢] رحمه الله في منزله ، وعرّج في عودته على «فرنكي محل»[٣] ومكتب «هيئة التعليم الديني».

---

(١) كان منزل السري الفاضل الأمير نور الحسن خان بن المؤلف الكبير العلامة الأمير السيد صديق حسن خان أمير بهوفال.

(٢) المعروف بإمام أهل السنة ، وصاحب الاختصاص ، والدور الإصلاحي الجدلي الكبير في الرد على الشيعة ، وإثبات عقيدة أهل السنة ، نفع الله به خلقاً كثيراً ، مات في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٣٨١هـ.

(٣) حيّ معروف قديم ، نبغ فيه علماء كثيرون ، كحيّ «الميدان» في دمشق ، ومنه انتشر المنهاج الدراسي المعروف بـ «درس نظامي».

وكان اليوم الأخير ـ هو يوم الجمعة ـ مشغولاً جداً ، فأولاً شرّف قاعة جمعية الإصلاح لطلبة دار العلوم ، وشهد حفلتهم التي عقدوها بهذه المناسبة الكريمة ، ثم توجه إلى كلية «أمير الدولة» الإسلامية ، التي كان فيها اجتماع كبير ، ينتظره بفارغ الصبر ، وتحدث إلى هذا انتجمع أولاً العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله ، وكان الحديث مؤثراً قوياً جداً ، وأعقبه الشيخ فتحدث ، وصلى في مسجد حي من أحياء المدينة ، الذي كان فيه العمل بعد الصلاة على تحريض الناس على مرافقة الجماعات الدهلوية الدعوية إلى «كانفور» .

وتوجه بقطار الليل مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، والحافظ فخر الدين ومع رفقة آخرين إلى «رائي بريلي» ليزور قرية الشيخ علم الله الحسني(١) رحمه الله المتوفى في ٩ ذي الحجة سنة ١٠٩٦هـ ، ووصل القرية في الساعة الرابعة ليلاً ، واستمر مشغولاً بوظيفته ـ رغم سهره في البارحة وكونه مجهوداً ،

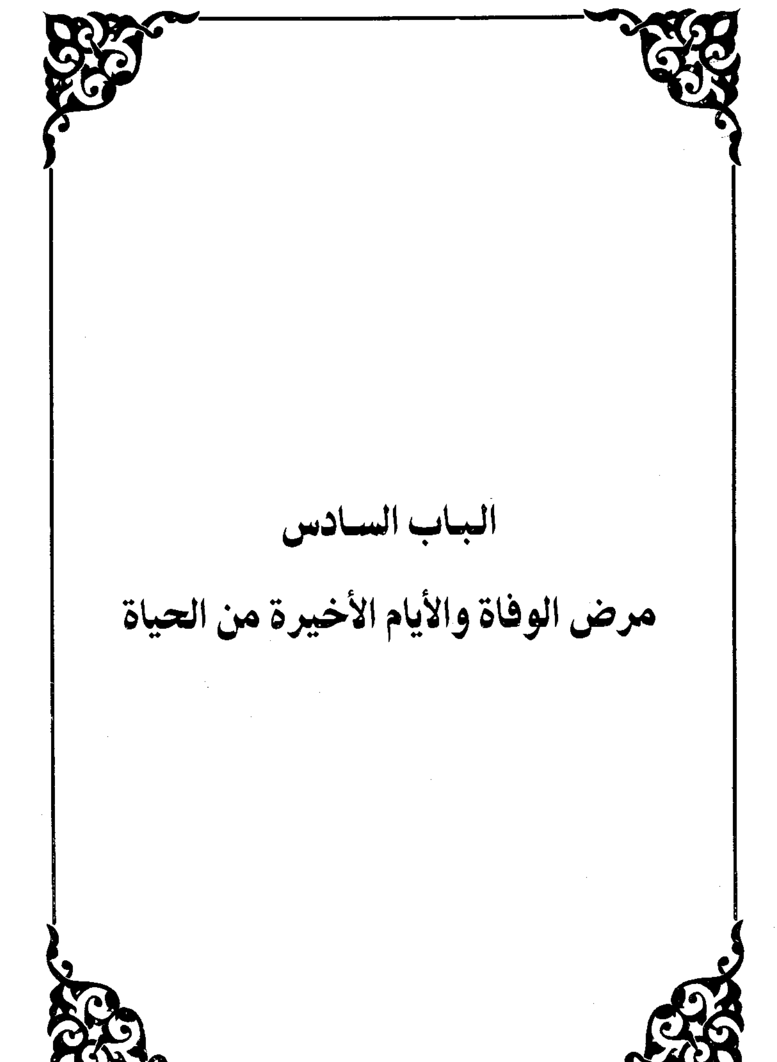
---

(١) تقع القرية التي تعرف بدارة الشيخ علم الله الحسني خارج مدينة رائي بريلي على ساحل نهر «سئي» ، وهي قرية صغيرة أنشأها الشيخ علم الله ، ولا يسكنها حتى الآن إلا أفراد أسرته وهو وطن السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد ، الذي كان من سلالته ، وهو وطن ومقر مؤلف الكتاب .

مكدوداً ، وألقى حديثاً حول علاقة الدين بالسادة الأشراف ، وعلاقتهم مع الدين ، وكان الحديث حكيماً ظريفاً ، رقيقاً لبقاً ، وحرضهم للنهوض للعمل الإسلامي ، واعتباره الوظيفة الأولى ، وجعله الشغل الشاغل ، والهمّ الوحيد ، وقال: إن السادة لئن لم يقوموا بهذا العمل كماً يكون له ذلك الرقي الذي يمكن أن يتحقق بقيامهم لهذا العمل ، ولو قعدوا عن العلم الإسلامي الدعوي لما حصل لهم الهدوء والقرار ، الذي يحصل للمرء ، إذا قام بوظيفته الأولى الأصيلة.

وعاد بقطار الظهيرة إلى لكهنؤ ، وتوجه من المحطة إلى كانفور ، وأقام بها يومين ، ثم رجع إلى دلهي.

❊ ❊ ❊



الباب السادس

مرض الوفاة والأيام الأخيرة من الحياة

الباب السادس

مرض الوفاة ، والأيام الأخيرة من الحياة

كان الشيخ محمد إلياس ضعيفاً ، ضئيلاً ، نحيلاً منذ البداية ، وزاده ضعفاً مواصلة الجهد ، وملاحقة الأشغال ، وقلة الاستجمام ، أما ضعف الأمعاء ، فقد توارثه من أبويه ، لكن كثرة الرحلات والزيارات ، واللقاءات ، وما يتبعها من عدم الالتزام بالحمية وعدم الاحتياط في تناول الطعام والمنام ، زاده انهياراً على انهيار ، وفي نوفمبر سنة ١٩٤٣م أصيب بالإسهال الذي لازمه إلى آخر حياته ، وكل من يرد من دهلي في هذه الأيام ، يقول: الشيخ لا يزال يشكو المرض ، بل يزيد ضعفاً ووهناً مع الأيام ، غير أن الإمعان في العمل ، والحماس لدعوته ، والإقبال على وظيفته لا يفتر ولا ينقطع ، وقد كتب أحد الزملاء من دهلي في رسالته المؤرخة بـ١٣ يناير سنة ١٩٤٤م ، يقول:

«الحمد لله ، إن الشيخ قد حصلت له الإفاقة إلى حد كبير ، لكنه لا يكاد يسكت لسانه رغم وصية الطبيب الأكيدة في هذا الشأن ،

ويقول: إني أفضّل أن أموت بجرَّاء الكلام الدعوي على أن أسكت عن أمر الدعوة والتبليغ كي تعود صحتي، ويقول: إن السبب الأكبر في مرضي هو عدم إقبال العلماء على هذا العمل، إن على العلماء أن يقبلوا ويتفهموا الدعوة، ويتلقوا مبادئها وإن اضطرهم ذلك إلى الاستدانة، ولا يهمهم ذلك ولا يضيقون بذلك ذرعاً، فإن الله يباركهم، وكنت أرجو أنهم سيحضرون لعيادتي وأن مرضي يجذبهم، لكنهم لا يعيرون اهتماماً بذلك، وإني لأشاهد مظاهر الخير والبركة بأم عيني».

وتوجهت جماعة من عدد من المحبين والمخلصين من لكهنؤ إلى دهلي في ٢١ محرم الحرام سنة ١٣٦٢هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٩٤٤م، وفيهم الشيخ محمد عمران خان الندوي الأزهري[١] عميد دار العلوم ندوة العلماء، آنذاك، فوجدوا الشيخ يشكو ضعفاً أيَّ ضعف، لكنه يمشي بنفسه يصلي بالناس في الأغلب، يواصل الخطب والحديث كالعادة، غير أنه لا يكاد ينهض من الجلوس إلا بمساندة واشتد المرض وآذن بالخطر، وكان منصرفاً في هذه الأيام إلى تقريب الدعوة إلى العلماء، وغرس قيمتها وعظمتها في

---

(١) كان من العلماء العاملين النشيطين المنتجين، يرجع إليه الفضل في إتمام بناء الجامع الكبير في بهوفال، والاحتفال السنوي الأكبر المنعقد في كل سنة في هذا الجامع، توفي في ١٧ من اكتوبر ١٩٨٣م.

قلوبهم ، وكان ذلك يومئذ هو همه الوحيد ، وكان يرى الحاجة أكيدة إلى أن يليه أولو الأحلام والنهى منهم، وأن يستمعوا إلى حديثه ويسيغوا دعوته ويتلقوا مبادئها وأهدافها ، ويتشرَّبوا روحها ويثبتوا القيام بها ، وكان يهيب بالعلماء أن هذه الحركة لا تليق إلا بهم وهم لا يليقون إلا بها، وأنها لا تنال امتداداً لائقاً، ولا تجاوباً مشبعاً ، إلا حين تسير في إشرافهم وتتمتع بقيادتهم ، وإنما مثلي مثل الذي رأى الحريق وقع في بيت فنادى في الناس أن أدركوا البيت وأطفئوا الحريق.

وكان يؤكد على المُبلّغين من تجار دهلي أن يستفيدوا من العلماء ، وأن يعقدوا في أنحاء المدينة حفلات ولقاءات ، ويستمعوا إلى كلماتهم ، ويدعو الجماهير للاستفادة ويقووا بذلك كله دعوتهم ، ويدعموا حركتهم ، ويكسبوا الأنصار والتجاوب ، فعقدت عدة حفلات ، تحدث إليها كبار العلماء والفضلاء والمثقفين ، أمثال المفتي الأكبر محمد كفاية الله ، والشيخ محمد عمران خان الندوي ، والشيخ عبد المنان وغيرهم ، وقد دعا المفتي محمد كفاية الله دعوة حارة إلى مساندة الدعوة وتبنيها.

وكان في حنين إلى الاطلاع على مداولات وإجراءات ، ومنجزات هذه الحفلات ، ولا ينام حتى يسمع أخبارها عن عدد من الناس ممن يثق فيهم ، وكنا نرجع إلى نظام الدين بعد انفضاض الحفلات ، ومضي معظم أجزاء الليل ، ونجده ساهراً ، فما أن

يسمع وقع أقدامنا حتى يطلبنا ، ويسمع عن مجريات الحفلات في لذة ولهفة ، ونهامة وإمعان.

ويتحدث في موضوع الدعوة بانتظام بعد تناول الشاي في الصباح وتناول العشاء في المساء وقد يجري الحديث إلى ساعات طويلة، مما يزيد في ضعفه ، ويمنعنا التأدب أن نمنعه من الحديث.

وكانت في تلك الأيام رحلة تبليغية موفقة ـ في إمارة الشيخ محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس ـ إلى «كهات ميكا» (GHAT MIKA) جمعت بين جميع مزايا وخصائص الحفلات في ميوات التي كان يشهدها الشيخ محمد إلياس بنفسه.

الارتباط بالعلماء:

وكان من أعظم أهداف دعوة الشيخ محمد إلياس إزالة ما نشأ بين فئات الأمة من التباعد وسوء الظن ، والنفاق والشقاق ، وإحلال الحب والوئام والانسجام محل ذلك ، حتى يكونوا جميعاً كلمة واحدة ، ويداً واحدةً ، في مصالح الدعوة الإسلامية وخدمة الإسلام والمسلمين ، ويبذلوا تعاوناً متبادلاً في هذه السبيل ، ويحترم بعضهم بعضاً ، ويثق بعضهم ببعض ، حتى يتمكنوا من الاستفادة بالمحاسن والمواهب أينما وجدت.

وكان يريد أن لا يغض البصر في هذا الصدد حتى عن الطبقة التي

حادت عن سواء الطريق ، وأصيبت في عقيدتها بشيء كثير من الانحراف ، وكم كان يتألم على الفجوة التي وقعت بين العلماء والشعب ، وكان يرى ذلك شقاء كبيراً للأمة ، وخطراً على مستقبل الرسالة ومصير الدعوة ، ومنفذاً إلى الإلحاد واللادينية ، وكان يأمل في أن المساهمة في الدعوة التي نهض بها ستكون عاملاً في تقليل هذه الفجوة وبالتالي على إزالتها ـ وقد بدت مؤشرات ذلك ـ وتوجد فرصة التعارف والالتقاء والتلاحم فيما بين الشعب والعلماء ، وإذا رأى كل منهما أنه في حاجة إلى الآخر.

قال كاتب هذه السطور في حديث ألقاه إلى علماء ميوات «كهات ميكا» على أمر من الشيخ محمد يوسف: «إن العلماء لابد أن يدركوا أنهم لئن لم يتقاربوا إلى الجمهور عن طريق هذه الدعوة ، ولم يدعموا علاقتهم معهم ، فإنهم ربما يعودون أقلية غريبة منبوذة في البلد ، تصبح ثقافتها وآداب اجتماعها ، غريبة على الجمهور ، وقد تغدو أفكارهم ولغتهم غريبة عليهم ، ربما تعوز الحاجة ـ في بعض الأحيان ـ إلى ترجمان لا يمكن التفاهم إلا بمعونته» وقد استحسن الشيخ هذه الفكرة ـ التي كانت مستمدة من أحاديثه ومجالسه ـ عندما سمعها على لسان الشيخ محمد يوسف.

وإذا كان الشيخ يطلب إلى العلماء أن يتصلوا اتصالاً قوياً بالجمهور عن طريق هذه الدعوة ، ويطلعوا على معاناتهم ويتألموا على أحوالهم ، فإنه في ناحية أخرى يوصي العوام أن يعرفوا للعلماء

قدرهم وقيمتهم ، وأن يجالسوهم متأدبين ويستفيدوا منهم ، ويدلهم على ما ينالونه على زيارتهم من أجر ، ويعلمهم آداب زيارتهم ولقائهم ، وآداب الاستفادة منهم ، ويدربهم على إحسان الظن بهم وتأويل ما لا يفهمون من حديثهم ، ويبعثهم لزيارتهم والجلوس إليهم، ثم يسألهم بعد العودة: كيف جالسوهم، وكيف كان الحديث معهم ، وعلى ذلك أوجد بين العلماء والعوام من التقارب والتلاحم ما لم يشهده الناس منذ سنوات طويلة بعد حركة «الخلافة» الجبارة.

ومن سوء حظ المسلمين قد نشأ الامتعاض والكراهية في قلوب العوام نحو العلماء ، وذلك جراء الحركات السياسية ، والخلافات المحلية ، ونشأ في القلوب مع الأيام روح العناد والبغضاء نحو رجال الدين ، والممثلين له دون استثناء.

وبفضل سعي الشيخ وحكمته العملية والدعوية ، فقد تقلصت الفجوة فيما بين العلماء والعوام في مناطق نفوذ دعوته والدوائر التي تأثرت بها ، وعاد الشعب يبعد الخلافات والخصامات السياسية عن الدين والدعوة والعقيدة، ووجدت في القلوب روح حفاوة العلماء ، وحبهم واحترامهم رغم الخلافات السياسية ، وعاد كبار التجار الذين كانوا يستوحشون من العلماء منذ مدة طويلة ، يحضرون مجالسهم مدفوعين بالحب والأدب ، ويدعونهم إلى الحفلات التبليغية مع كل ثقة وإكرام ، وكان الشيخ في بداية مرض وفاته مصروف الهمة إلى هذا الجانب ، وقد كسب في ذلك نجاحاً موفقاً.

العناية بمختلف جماعات المسلمين:

وقد نشأ التباعد والتحاسد فيما بين جماعات أهل السنة والجماعة، من أجل شيء قليل من الاختلاف في الآراء والأفكار، وبحكم مجانبة بعضها لبعض منذ مدة، وصارت كل جماعة ترى بقاء دينها وعقيدتها في التحاشي عن غيرها، والفرار عن ظلها، فقام الجهل بالمحاسن والفضائل، وعاد الكل لا يعرف ما عند غيره من مزايا ومنافع، فغدا طريق الانتفاع والتعاون المتبادل مسدوداً.

وما كان الناس يعرفون طريقاً إلى القضاء على تلك الخلافات إلا المناظرة والمناقشة، والرد على مذهب الآخرين، وتقرير مذهبهم وتعضيده بالدلائل والحجج، لكن التجربة أكدت أن ذلك يزيد الخلافات قوة، ويشتد منه الداء ويستفحل البلاء، فضلاً عن القضاء عليها.

أما الطريق الناجع إلى ذلك عند الشيخ، فهو تقريبهم بالدعوة اللينة والحكمة، وحل العقد التي أخذت بحُجْز عقولهم، بلباقة دينية، وقدرة دعوية إسلامية، وخلق عظيم وسلوك مستقيم، وحسن الحفاوة والوفادة، لأن التعايش، وتجربة البعض للبعض، وتدارس السلوك والعادات، يقضي على سوء الظن، ويحل عقدة القلب، والاشتغال بالوظيفة الدينية الأصيلة، والاختلاط والاحتكاك على منبرها يوجد الاعتدال، ويرفع التطرف.

وقد عني الشيخ في المرض الذي توفي فيه بهذه الناحية ، عناية زائدة يعطي في ذلك توجيهاته وإرشاداته ، وكان يستخدم من أجل كسب النجاح في هذا الصدد ، ملاحظات دقيقة وتحفظات عجيبة ، ووسائل قريبة وبعيدة ، قد لا يستخدمها رجال السياسة فيما يهمهم من الأمور الدقيقة الحساسة .

اشتداد المرض :

واشتد المرض في مارس سنة ١٩٤٤م ، وبلغ به الضعف إلى أنه لم يعد يستطيع أن يؤم الناس في الصلاة ، لكنه كان يأتي المسجد يتهادى بين رجلين ، ويؤدي الصلاة قائماً ، وقال مراراً : أعتقد أني لا أعافى من هذا المرض، وتدل المؤشرات على أنه ليس هناك رجاء في الصحة وتحسن الحالة ، ولكن لست يائساً من رحمة الله ، وكان يشكو أبناء الزمان والأصدقاء والخلان ، أنهم مشغولون بالفروع والأوراق ، ولا يبالون بالجذور والأصول ، ويهتمون بالقشور دون اللباب ، وفي هذه الأيام ألقى حديثين حكيمين ، أشار فيهما إلى أنه ربما قد حانت الأيام الأخيرة ، والله تعالى فيما يصنع حكيم عليم .

تردد العلماء للزيارة والعيادة :

اتصل الشيخ الحافظ هاشم خان المجددي[١] بدعوة الشيخ

---

(١) كان من ذرية المصلح الكبير الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي =

وحركته عن طريق الجماعة الدعوية التي توجهت إلى السند، وأعجب بشخصية صاحب الدعوة والحركة، فلما علم بمرضه، أراد أن يزوره في مقره بدهلي، فقدمها في شهر مارس سنة ١٩٤٤م، وقد تلقاه الشيخ بحسن الوفادة وبالغ الحفاوة، وعني بزيارته عناية كبيرة، وأبدى سروره العميق، لأنه كان قد سر سروراً كبيراً بمساهمة من كان يتمتع بمواهب خاصة في هذه الناحية ممن كان لسلفهم دور بارز في خدمة الإسلام ورفع شأنه ومكانه، ولا غرو فقد كان الشيخ هاشم من سلالة الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الذي أدال من الجاهلية للإسلام.

وفي نفس الشهر زاره شقيق كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني[١]، فعانقه الشيخ مضطجعاً، واهتم بقدومه كثيراً، وأبدى سروراً بالغاً، وقال: إنه قد تحسنت حالتي إلى حد كبير منذ أن سمعت عن مقدمكم، وكان من عادة الشيخ أنه

= المعروف بمجدد الألف الثاني، وكان من المشائخ الكبار. توفي في باكستان.

(١) كان من نوادر الرجال الجامعين بين الثقافة الدينية القديمة في رسوخ ووعي، والثقافة العصرية المدنية في توسع وإتقان، دام مديراً لندوة العلماء ثلاثين(٣٠) سنة وتقدمت في عصره تقدماً ملحوظاً، كانت وفاته في ١٣٨٠هـ، وهو شقيق المؤلف الأكبر وصاحب الفضل في تربيته ودراسته وتكوينه العقلي والثقافي رحمه الله وجزاه خيراً.

كان يتحسن حالته، ويخف مرضه إن علم بشيء يسره فيما يتعلق بدعوته، لأن السرور الروحي، والنشوة النفسية والاهتزاز القلبي، يزيد من نشاطه الجسماني، وكان من عادة الشيخ أنه كان يحول الزيارة الشخصية إلى الإفادة والاستفادة للدعوة الإسلامية.

وتجمع مرة - على طلب من الشيخ - عمداء المدارس وعلماؤها، واستشارهم فيما عسى أن ينفع الدعوة ويخدمها في ناحية من النواحي، من بين هؤلاء العلماء، فضيلة الشيخ محمد طيب مدير جامعة دار العلوم بديوبند، والمفتي الأكبر محمد كفاية الله، والشيخ محمد شفيع عميد مدرسة «عبد الرب» بدهلي، والشيخ عبد اللطيف عميد مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور، والشيخ إعزاز علي أستاذ دار العلوم بديوبند، والشيخ المحدث محمد زكريا أستاذ الحديث بمدرسة مظاهر علوم، وفي آخر شهر مارس انفض هذا التجمع العلمي النوراني.

الجماعة الدعوية الثالثة إلى «السند»:

توجهت جماعة تبليغية مكونة من ٦٠ إلى ٧٠ شخصاً إلى السند، في إمارة الشيخ الحافظ مقبول حسن، وذلك في أوائل شهر أبريل سنة ١٩٤٤م، وكان المنزل الأول لهذه الجماعة في مدينة لاهور، حيث أقامت ليومين أو ثلاثة أيام، وقامت بالجولة الدعوية، ثم توجهت إلى «السند».

قدوم البعثة التبليغية من «بشاور»:

قررت جماعة من المخلصين والإخوان الذين كانوا قد تعرفوا على دعوة الشيخ، واتصلوا بها أن تزور الشيخ في دهلي في شهر أبريل، وأرادت أن يسمح الشيخ بهذه الزيارة، فوجهت إليه رسالة قالت فيها: إن حياتكم مفيدة للإسلام والمسلمين، فنرجو أن تدعو الله لعودة صحتكم بدوركم أيضاً، فكان رد الشيخ على هذه الرسالة بما يلي:

«مرحباً بقدوم الجماعة في دهلي في شهر أبريل غير أني أرى من المناسب أن تعمل هذه الجماعة قبل قدومها إلى دهلي متقيدة بالمبادىء، في تلك النواحي وإذاً فإن قدومها إلى دهلي سيكون مفيداً جداً، إني أتضرع إلى الله أن يعيد صحتي شريطة أن يوفقني أن أقضي أوقاتي مع نظام وحسب المنهج العملي، ولا تضيع علي لحظة دون الفائدة كتلك التي نعيشها الآن ١٤ مارس سنة ١٩٤٤م».

توجهت جماعة صغيرة من بشاور إلى دهلي في ٨ من أبريل بعدما واصلت الجولات والزيارات التبليغية، وأقامت بدهلي في الفترة ما بين ١٠ أبريل إلى ١٤ أبريل، ومن بين الإخوة الذين

كانوا في الجماعة الأستاذ أرشد[1] والشيخ إحسان الله الندوي، والأستاذ عبد القدوس وطفلان.

جو نظام الدين والبرنامج العملي فيها:

وقد سجل الأستاذ أرشد بهذه المناسبة ما رأى وشاهد في المقر الدعوي في نظام الدين، ونريد أن نثبت هاهنا منه ما يلقي الضوء على الوضع الديني، والجو الإيماني والقرآني في نظام الدين:

«جاء إلينا طفل يقول: تفضلوا إن الطعام مهيأ، فدخلنا حجرة الشيخ في ناحية المسجد، فوجدنا المائدة ممدودة، والطعام منسقاً، وكان الشيخ على السرير متغطياً بلحاف، مستنداً إلى وسادة، أمامه طعام الحمية، تعلو وجهه إشراقة إيمانية، أما جسمه، فكان مجموعة عظام، وكان عند سريره طبيبه الذي يداويه، فسلمنا عليه، وجلسنا حول المائدة وكنا ٢٠ أو ٣٠ شخصاً، تحدث الشيخ خلال تناول الطعام، وقال:

---

(١) كان من نوادر الرجال العاملين في مجال الدعوة والتبليغ إخلاصاً وفقهاً وسعة أفق، نفع الله به في اليابان وأسلم على يده عدد كبير من أهل البلاد، اشتغل مهندساً كبيراً في مصلحة الهاتف الأتوماتيكي في جدة ومات شهيداً في حادثة سيارة وكانت وفاته في ١٥ من شعبان سنة ١٣٨٣هـ.

(١) سيدي الطبيب إني أرى التقيد بوصيتكم واجباً شرعياً ، أفما يكفيكم أني محروم من أجر القيام في الصلاة.

(٢) إخواني! إن لله سبحانه وتعالى علاقة خاصة مع عباده ، حتى الكافرين فضلاً عن المؤمنين وتلك العلاقة هي التي جعلت القرآن يقول في شأن سيدنا يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢] وضغط الشيخ على كلمة «مليم» في الأداء ، وإذا كان هذا شأن علاقة الرب مع الكافرين فكيف بالمؤمنين ، واعلموا أن خدمة المؤمنين هي أصل العبودية ، إن العبودية الحقيقية هي الفوز بعز الذل للمؤمنين ، وذلك هو المبدأ الأهم الجذري لدعوتنا ، وهو مبدأ سوف لا يتنكر له رجل اجتهاد (العالم) ورجل تقليد (رجل الشارع) أو المادي (الذي لا يهدف من كل عمل يقوم به في الحياة إلا الحصول على المال والثروة ، وحطام الدنيا) ثم توجه الشيخ إلى الاستكبار والرياء ، وندد بهما ، ثم انفض المجلس.

ثم خرج الشيخ وقت الظهر متهادياً بين رجلين ، ومعتمداً على عصا ، وجلس مستنداً إلى المنبر وقال:

١ ـ أيها الإخوة! إننا لم ننحرف عن طريق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل حدنا عنها كثيراً ، إن الحكومة والسلطة السياسية ليس مما يهدف إليه المسلم ، نعم! لو فزنا بها من خلال سلوكنا

على درب النبي لما برحناه، غير أن ذلك ليس مما نجعله همّنا وموضع تفكيرنا، وإنما المقصود هو التضحية بالنفس والنفيس في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ ـ واعلموا أن المساوىء التي تسربت إلى المسلم لا يمكن القضاء عليها بتشهيرها، والتنديد بها، وإنما الطريق إلى ذلك أن ننمي فيه جوانب الخير المنقية، ثم تزول المفاسد بنفسها.

ثم قامت الصلاة وأخذ الشيخ رجلان وأقاماه بيديهما وقضينا من عجبنا حين رأينا شخصاً يقوم في الصلاة باستقامة ويتم أربع ركعات في تمام الهدوء، ولا يقدر على أن يبرح مكانه دون معونة أحد.

وتوجه الشيخ إلينا بعد الصلاة قائلاً: إنكم ما أتيتم للاستجمام والراحة ولا تضيعوا أوقاتكم، اشغلوها بالذكر والتعليم، إنكم أتيتم لمدة قليلة جداً، إنها لا تكفي، ثم قال في إلحاح: لا بد أن تحضروا للمرة الثانية لوقت أطول، وبجماعة كبيرة العدد، إنكم في حاجة إلى إقامة طويلة هاهنا.

توجه بعد الصلاة إلى حجرته معتمداً على رجلين، ووزع الحاضرون بين طائفتين، طائفة مثقفة بالثقافة العربية، وطائفة مثقفة بالثقافة الأردية، أما الطائفة الأولى فتليت عليهم أحاديث من كتاب الإيمان، وكانت المذاكرة حولها، والطائفة الثانية، فقرئت

عليهم كتب أردية في التعليم والتربية، وعلمنا فيما بعد أن تلك المقررات الدراسية والتعليمية لا بد أن يتمها كل الحاضرين في المقر الدعوي.

وتوجهت جماعة «بشاور» في الليل إلى «بهاركنج» ـ حي من أحياء مدينة دهلي ـ وقامت بالجولات الدعوية، وقضت الليل هناك.

وكانت قبل الظهيرة مذاكرة الحديث النبوي، وكانت لذيذة مثيرة، وكان الشيخ نشيطاً عند تناول الشاي، وقال يخاطبني: يا أخي لا بد أن توفد جماعة وفيرة العدد، إن عملاً تافهاً من الأعمال الدنيوية لا يمكن القيام به دون تعلمه حتى السرقة، لا بد أن يتعلمها المرء على أستاذ، ولو راح يقوم بعملية السرقة بدون أن يتعلمها، لوقع فريسة القبض، وأخذ على غرة، فكيف بعمل في غاية الدقة والأهمية كالتبليغ، ثم قال في حنان: أفلا توفد الجماعة؟ فقلت: يا سيدي لو ذهبت جماعة من دهلي إلى «بشاور» وعملت بها، لأقبل الناس على هذه الدعوة في يسر وسهولة.

فقال: اكتبوا إلى فلان وفلان أن يأتي بالجماعة إلى مدينتكم، وظل الشيخ مشغولاً ذلك اليوم بعد الظهر في تكوين الجماعات، وإيفادها، وتقديم توجيهات وإرشادات مما يهمها.

وبعد صلاة الظهر كانت مذاكرة الحديث، الحبيبة الأثيرة، وتلا علينا الأستاذ واصف أحاديث من كتاب الجهاد.

وخرجت الجماعة الدعوية في الساعة الخامسة مساءً كالعادة، لتقوم بالجولات الدعوية.

في ١٣ أبريل سنة ١٩٤٤م، تحدث الشيخ فقال: إن سيدنا النبي الأعظم قد جاء بشريعة كما جاء آخرون من الأنبياء بشريعة، وإن إنجيل سيدنا عيسى لم ينسخ التوراة، وإنما عدّل في أحكامها، ولكن القرآن الذي نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نسخ جميع الكتب، وإن اتِّباعها اليوم مباشرة لا يجوز والشيء الذي يمتاز به سيدنا النبي ﷺ هو أسلوب التبليغ وطريق عرض الدعوة، إن الأنبياء الآخرين بعثوا وسلسلة النبوة متتابعة، وبعثة الأنبياء لم تتوقف فلم يحتاجوا إلى تلك العناية التي لازمها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بحكم انتهاء سلسلة النبوة بعده، وتحمل أمته بعده القيام بمسؤولية الدعوة والتبليغ، فكان يبعث أصحابه جماعات لتعليم أحكام الدين، ونحن بأمس الحاجة اليوم، إلى أن نحيي هذا الطريق للدعوة والتبليغ.

«ثم ألقى الشيخ ضوءاً على مسألة «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]، وقال: لا بد أن نضع ذلك في الاعتبار في المعاملات،

---

(١) حديث شريف وقاعدة أصولية تنصح بأن الطاعة واجبة من الصغير للكبير ومن الابن تجاه أبيه ووالديه والأكبر إلا إذا كانت لمعصية الله فساعتها لا تجوز الطاعة تحت قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والعلاقات الدنيوية، حتى العلاقة مع الوالدين، والمرشد والمربي، والأستاذ.

والتفت إلى الأستاذ إحسان الله الندوي[1]، وقال: لا بد أن تعلم ـ أيها الأستاذ ـ أن هذا العمل جوهر من جواهر القرن الأول، ولا بد أن تضحوا في سبيل ذلك بأنفسكم وأموالكم، وستنالون بقدر التضحية، وتجدون بقدر الإنفاق، إن هذه القصص والأحاديث التي تسمعونها كمثل الذي ينظر إلى الفواكه في بستان غيره، وإنما السرور الحقيقي أن يثمر بستانك، وأن توجد الفواكه في حديقتك أنت، وذلك ما لا يحصل بدون الاجتهاد والتضحية.

وأمطرت السماء وقت العصر مطراً غزيراً، وأجّل الأصدقاء برنامج الجولة اليوم، ولكن الشيخ خرج وقت العصر من حجرته، وأبدى كراهيته لهذا التأجيل، وتحدث عن مجهودات الميواتيين في سبيل التبليغ، وقال: إن الميواتيين محسنون إليكم، حيث دلوكم على الطريق الصحيح، ثم دعا ميواتياً في غاية السذاجة، وأدنى مجلسه، وقال: لما قلت لهذا للمرة الأولى: رح وقم بعمل التبليغ، فقال ـ بصوت منكسر ـ: إني لا أدري ما هو «التبليغ»

---

(١) كان من خريجي دار العلوم ندوة العلماء، ومن الشباب الصالحين العاملين توفي في بلده في الحدود الشمالية الغربية.

فقلت: اذهب وعلّم الناس الكلمة، فقال: إني لا أعرف الكلمة فكيف أعلمها الآخرين، فقلت له: اذهب إلى الناس، وقل لهم: أيها الأخوة انظروا إليّ قد بلغت إلى هذه السن من عمري، وما عرفت الكلمة لأني ما تعلمتها من أحد، إخواني أوصيكم أن تتعلموا الكلمة من أحد، ولا يكونن مصيركم مصيري.

وقد فعل حديثه فعله في القلوب، وخرجت الجماعة بعد صلاة العصر فوراً، وكان من فضل الله أن توقف المطر مع خروجنا، وتلطف الجو، وقصدنا قرية على بعد نصف ميل، وقمنا بعمل التبليغ حتى المغرب ثم صلينا المغرب وعدنا.

يتجمّع في المقر الدعوي ليلة الخميس خيرة الناس من مدينة دهلي، وكان التجمع حاشداً، والمجلس مشهوداً، رغم نزول المطر في النهار.

ووجدنا معظم الحاضرين مشغولين بالذكر والتهليل والتسبيح وقت السحر وصلى بالناس الفجر مرافقنا الشيخ إحسان الله على أمر من الشيخ، وكان في مجلس الشاي ٥٠ أو ٦٠ شخصاً، وتحدث الشيخ، فقال:

١ ـ إن لتلاوة سورة قصيرة كالفاتحة في الصلاة أجراً، ليس لتلاوة كل القرآن خارج الصلاة، أما الجماعة التي تدعو الناس إلى الصلاة فلا يستطيع أحد أن يقدر ما لها من أجر جزيل عند الله، وكل

عمل له تأثيره في أوانه ومكانه ، وكذلك للذكر خلال الجهاد (محاولة نشر الدين) من الأجر ما ليس له قابع في الزوايا ، أو ناحية البيت ، فأكثروا من الذكر.

٢ ـ إن هذه الحركة ليست إلا عبارة عن العمل بقوله تعالى ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] ولا بد من التقيد بالمبادىء في هذه الدعوة.

٣ ـ إن الشيطان يقيم حواجز من نوعين أمامنا: «حواجز الظلمة» أعني أنه يغري النفس بالشهوات والأهواء ، ويقدمها إليها حلوة لذيذة ، فتهفو إليها ، و«حواجز النور» أعني أنه يصرف الإنسان من عمل مهم إلى غير المهم ، فيشغل بالنوافل وقت الفرائض ، وترضى النفس أنها مشغولة بالخير ، وكذلك يصرف المرء من مسؤولية الحاضر إلى مسؤولية المستقبل ، وإن مسؤولية الحاضر الكبرى هو التبليغ ، وإن التقصير فيه لا يعوض بعبادة أخرى مهما كانت جليلة.

وتقرر أن ترتحل جماعة بشاور مع جماعة دهلي إلى سهارنفور ، للقيام بالجولات التبليغية ، وذلك غداً وقت الصباح وذهبنا إلى الشيخ نستأذنه للرحلة ونسلم عليه ، فقال: لماذا ما جئت بالأطفال؟ قلنا: إنهم لا يفهمون الدعوة والتبليغ ، فقال: إنكم عاجزون عن تفهيمهم ذلك ، ولكنكم تحملونهم المسؤولية ، ولا حاجة إلى الفهم والإساغة ، وإنما الحاجة إلى أن يسمعوا ذلك

بآذانهم، ويروه بعيونهم، ويشعروا به بقلوبهم، وذلك هو المقصود من الأذان في أذن المولود حين الولادة.

ثم أكد علينا بملازمة الذكر وقال: إن الذكر كالحصن الحصين، تتقون به غائلة الشيطان، ومعركة كيده ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وظل يتحدث عن فضائل الذكر إلى أن ارتحلنا»[١].

الانهماك في أمر الدعوة والتبليغ:

ونريد أن نسرد هنا قصصاً ـ كما رواها فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني مدير مجلة: «الفرقان» الشهرية ـ تدل على مدى انهماكه في أمر الدعوة والانقطاع إلى التبليغ، رغم اشتداد المرض، وتهدّم جسمه، وانهيار صحته كلياً.

زاره في أواخر شهر أبريل الشيخ السيد عطاء الله البخاري[٢]، وكانت للمرض نوبتان شديدتان عليه، زادتاه تهدماً وضنى، وصار لا يستطيع أن يتكلم عدة دقائق، ولما علم بقدوم السيد عطاء الله

---

(١) مقتبس من المذكرة التي سجلها الأستاذ أرشد الباكستاني.

(٢) هو الخطيب المصقع، وقائد جماعة الأحرار، مثل دوراً كبيراً في الرد على القاديانية وبث روح الكفاح ضد الحكومة الإنجليزية. توفي في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ (٢١ أغسطس ١٩٦١م).

طلبني وقال: إني بأمس حاجة إلى الحديث معه، ولكن بطريقة هي أن تدني سمعك إلى فمي، وتنقل إليه ما أقول لك، على كل طلب الشيخ عطاء الله إلى داخل الحجرة، وبدأ الحديث معه على هذا النحو، وما إن مضت دقائق حتى دب فيه دبيب القوة والنشاط، وخاطبه مباشرة واستمر يتحدث معه إلى نحو نصف ساعة.

وفي نفس هذا الشهر أملت به نوبة شديدة، وإغفاءة طويلة استمرت إلى نحو ساعتين حتى انطبقت أجفانه، واعتقل لسانه، وفتح عينيه بعد وقت طويل، وهو يقول: «الحق يعلو»، «الحق يعلو ولا يعلى عليه»، ثم ملكته نشوة عجيبة وبدأ يتغنى ثلاث مرات بالآية من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ورفع صوته بالتلاوة وكنت في المسجد، فأتيت إلى باب حجرته جرياً، وهو يسأل الحاضرين حوله عنّي: أين هو؟ فدخلت عليه، فقال:

«يا أستاذ إن الله قد وعد بإتمام هذا العمل وسيكون نصر الله حليف العاملين إلى نهاية المطاف، ولكن الشرط أن تطلبوا منه العون والنصر على إيمان كامل بوعده بالنصر، لا يكونن منكم تقصير فيما يسعكم من بذل المجهود».

وما إن أتم هذه الكلمات حتى انطبقت عيناه، وبعد إمعان عميق في السكوت، قال: «يا ليت العلماء قد تبنوا هذا العمل، ثم ارتحلنا نحن».

«ومما يدهش أنه بقدر ما كان يزداد انهياراً وضعفاً، يزداد رغبةً في إحياء الدين، وحماساً للدعوة، وعاطفةً لإعلاء كلمة الله، وعاش الشيخ شهوراً طويلة في حالة من الضعف والهرم لا تسمح للشجعان الأبطال إلا بأن يستجموا واجمين صامتين، لكنه لم يره الناس طول تلك المدة إلا في ثلاثة أحوال:

١ ـ إما وهو غارق في التفكير في صالح هذا العمل، أو يتضرع إلى الله تضرع المنكسر القلب، ويطلب من ربه ـ للعاملين ـ الإخلاص والثبات والاستقامة والتوفيق لاتباع الطريق النبوي والالتزام بالمبادىء التي ترضي الله ورسوله، ولهم ولنفسه الاستجابة والرضا والقبول بقلق واحتراق قد يبكي الحاضرين.

٢ ـ أو يعطي الأحكام والتوجيهات في هذا الصدد.

حتى إن الطبيب الذي يزوره لاستطلاع حاله يعرض عليه أولاً دعوته، ثم يفسح له المجال للكشف والاستطلاع، وقد أحضر يوماً ـ المفتي محمد كفاية الله (رحمه الله) طبيباً شهيراً بدهلي، فتعرض له في هذا الأسلوب اللبق الظريف:

سيدي الطبيب إن لديك علماً يستفيد منه الخلق، لكنه فنّ من الفنون، بعث الله سبحانه سيدنا عيسى عليه السلام لكي يبهره بمعجزات (كإعادة البصر إلى الأعمى وصحة الجسم إلى المجذوم، وإحياء الموتى) وأعتقد أنه لا يخفى عليكم أن العلوم

الروحية التي أكرم بها سيدنا عيسى كانت تفوق هذه المعجزات الظاهرة مرات عديدة ودرجات كثيرة، لكن العلوم الروحية والأحكام الإلهية التي بعث بها سيدنا خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قد نسخت علومه الروحية والشريعة التي جاء بها وجعلها كاسدة لا تغني غناء مما تستطيعون أن تقدروا منه مدى الخسران الذي يلاحق المعرضين عنها، وأن رجائي من الناس أن يستغلوا هذه النعمة ويعرفوا قدرها وإلا فإنهم في خسارة أي خسارة.

وما كان يسمع شيئاً لا يتصل بهذا الموضوع فضلاً عن الحديث فيه ولو تعرض أحد من الحاضرين والواردين بشيء آخر، لما تحمله ومنعه فوراً، ولو استطلعه أحد من الخدم حاله، قال: إن الصحة والمرض يلازمان المرء، وهو يتقلب بينهما فما معنى السلامة والعافية، أو عدم ذلك في هذا الشأن؟ إنما السلامة والعافية أن نؤدي الوظيفة التي من أجلها خلقنا، حتى ترتاح روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1]».

وأتاه عدد من أقربائه من قريته: «كاندهله» يزورونه ويعودونه، فقال لهم: ما الذي أقدمكم؟ فقالوا: لنعودكم، فنطلع على أحوالكم، فقال: يا للعجب جئتم من «كاندهله» لتطلعوا على

(١) نقلاً عن مجلة «الفرقان» الشهرية عددي رجب، شعبان ١٣٦٣هـ.

أحوال من خلق للفناء ، ولكنكم لا تدركون دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعث ليبقى حياً خالداً ، وتتوجه الضربات للقضاء عليه ، ولا تتداركونه[١].

وقد ألقى كاتب هذه السطور والشيخ محمد منظور النعماني بعد صلاة فجر أحد أيام الجمع ـ حديثاً موجزاً ، ورقت قلوب الحاضرين ، واغرورقت عيونهم بالدمع حينما تذكروا أن هذا الموقف كان يقفه الشيخ محمد إلياس ، ويتحدث إليهم ، وعيل صبرهم حينما أشار الخطيب إلى المكان قائلاً : أبقى الله هذا المنبر والمحراب معمورين بالمصلين والدعاة والركع السجود.

وكان من عادة الشيخ أنه يتحدث إلى الناس ليالي الجمع بانتظام ، وكان الناس يحتشدون هذه الليالي بصورة خاصة من مختلف أحياء المدينة وأرجائها ، وقد يتوافدون من خارج المدينة ، وزادت نسبة الحضور في أيام المرض ، الذي توفي فيه ، وكان لا يقدر على الحديث بنفسه، ولكنه ما كان يرضى أن يعودوا مجردين كما جاؤوا ، ويكون مقدمهم لزيارة شخصية وحدها تاركين راحتهم ووظائفهم ويرجعوا إلى بيوتهم بعد إلقاء التحية والمصافحة ، وغمز الرجلين واليدين ، وكان يرى خيانة أي خيانة أن يوضع حبهم في الله، في غير موضعه ، أو يترك وشأنه ، يضيع هدراً ، فكان يهفو إلى أن يشغلهم

---

(١) مذكرات الجماعة التبليغية بقلم الأستاذ أرشد.

بوظيفة دينية ، وتعرض عليهم تلك الدعوة الدينية التي انطلقت من فوق هذا المنبر والمحراب وما كان يتحمل تأجيلاً في ذلك .

جمع الناس في إحدى ليالي الجمعة على سقف المسجد ، وأمرني الشيخ بالحديث إليهم ، وتأخر الحديث لبعض أسباب ـ دقائق ـ فتتابع رسله يقولون: إن الشيخ يأمر بالبدء في الحديث دون أي تأجيل، فإن كل دقيقة تمضي عليه كانت ثقيلة أي ثقل ، ولم يهدأ إلا حين أخبر بأن الخطبة المأثورة ـ التي تفتح بها الخطب الدينية ـ تتلى .

الشهر الأخير:

وازدادت صحته انحرافاً ، وقوته انهياراً ، وجسمه تحطماً ، فلم يعد يستطيع الصلاة قائماً ، فكان يوضع سريره في جانب الصف ، ويصلي مع الجماعة .

وكان الشيخ ظفر أحمد التهانوي مقيماً في هذه الأيام بنظام الدين ، يشرف على معالجة الشيخ ويلقي الأحاديث في الاجتماعات والحفلات في أغلب الأحيان ، وكان الشيخ مسروراً ومرتاحاً بإقامته .

وفي ٢٨ من جمادى الآخرة ٢١ يوليو قدم الشيخ محمد زكريا ، وذلك بمناسبة عقد الحفلة السنوية في مدرسة «معين الإسلام» بـ «نوح» ، وفي ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ ـ ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٤م ـ وكانت الحفلة الأولى التي لم يشهدها الشيخ .

وفي صباح ٢٣ يونيو ، ارتحلت جماعة الخطباء والمبلغين والمسؤولين من نظام الدين إلى «نوح» من بينهم مولانا محمد يوسف بن محمد إلياس أمير الجماعة يومئذ ، والشيخ ظفر أحمد ، والشيخ محمد منظور النعماني ، وغيرهم من رفقة جماعة «لكهنؤ» ، وقطعوا الطريق في الذكر والتذكر ، والمذاكرة العلمية ، ووصلنا إلى «نوح» في نحو الساعة الثانية ، وافتتحت الحفلة مباشرة ، وكانت غراس الشيخ أمامنا مزهرة ، مثمرة خضراء ، نضرة ، أما البستاني ، الذي غرسها بيديه ، وسقاها بدمه وعرقه ودموعه ، فلم يكن موجوداً.

وبدأت الجلسة في الليل وفوجىء الحاضرون خلال استماعهم إلى الحفلة بوقوع حريق في رواق مدرسة إنجليزية ثانوية في «نوح» ، وما تغلبوا على المشكلة إلا بعد ما استنفدت جهودهم الطويلة ، وشغلوا به طويلاً عن الحفلة ، وتضرر جزء كبير من البناء.

وليلة رأينا ناحية المسجد ـ التي كان يعمرها الشيخ ، ويكون فيها سريره ، ويتساقط فيها الميواتيون عليه تساقط الفراش على النور ـ مقفرة ، وكان الجو حاراً في الأيام الأخيرة من شهر يونيو الحار ، ولكن جو «نوح» كان «بارداً» ولم تكن القلوب تشعر بتلك الحرارة التي كان يشعر بها عندما تستمع إلى أحاديث الشيخ ، وتشهد مجلس دعاء الشيخ بعد الصلوات في اضطرار ، وابتهال ،

وإنابة تامة، ينسى فيها نفسه، وتسود روح القلق والاضطراب، والتوجع التي كانت ميزته وتزداد في أيام نزوله بـ «نوح».

وبعد العودة من «نوح» استمع الشيخ إلى إجراءات الحفلة، ولما علم بوقوع الحريق، قال: إنكم قصرتم في الذكر، فوجد الشياطين فرصة إيقاع الشر.

وكان يشعر شعوراً قوياً بأنه على وشك الارتحال، وبقرب موعد غروب شمس الحياة، وقد يبدي عن شعوره هذا بإلحاح على زيادة مجهودات العاملين.

وجاءه الشيخ ظفر أحمد يستأذنه للعودة، فقال له: كنت وعدتني بمنح أوقاتك للانشغال بالدعوة، وما وفيت بالوعد حتى اليوم، فقال: يا سيدي إنها أيام حر شديد، وسأحضر في عطلة رمضان المبارك ـ إن شاء الله ـ وأصرف في ذلك وقتاً لا بأس به، فقال: إني لا أرجو أن أدرك شعبان فضلاً عن رمضان، فقرر الشيخ ظفر أحمد توسيع مدة إقامته، وحل عزمه على العودة.

فقال لأحد الحاضرين: قد قرب موعد الفراق، ولم يبق إلا عشرون يوماً. وقد كان، فلم تمض العشرون يوماً التي قالها حتى لحق بربه، رحمه الله.

وقال لكاتب هذه السطور أيضاً مرات عديدة: إني لا أرجو

الصحة من هذا المرض، ولكن الله فعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير.

عدم ارتياحه إلى العلاقة الشخصية المحضة:

وكان يغضب كثيراً إن تفرس من أحد أنه لا يحب إلا شخصيته، وليس له إلا علاقة شخصية معه، ويقول: إنما الأصل أن تكون العلاقة مع الدين، وما كان يقبل خدمة من كان يكتفي بخدمة شخصه دون دعوته، ويحبه دون حركته، فقد جلس يوماً عنده ميواتي، ووضع الدهن على رأسه، بعد دقائق عرف الشيخ أنه الشخص الذي لم يسهم ولا مرة واحدة في عمله الدعوي، فقال: إليك عني، فإنك ما ساهمت مرة ما في العمل الدعوي.

وكان هناك رجل عجوز، معجباً بالشيخ إعجاباً كبيراً، يحبه من أعماق قلبه، جاء يزوره يوماً، فقال للشيخ محمد منظور النعماني: إنه يحب شخصي حباً لا مزيد عليه، ولكنه لم ينزل عند وصيتي يوماً، ولم يقبل دعوتي، فاخل به أنت، وقل له أن يسهم في ذلك، وأما بدون ذلك فإن قلبي يتأذى ويتضايق صدري، فخلا به الشيخ محمد منظور النعماني، وفاوضه، فقال: جئت عازماً على الدخول في العمل، فهرول إلى الشيخ، وأبلغه الخبر، فتهلل وجهه وقبّل يديه.

امتداد الدعوة في المناطق النائية:

كانت ترد الرسائل من المناطق الأخرى البعيدة، تبشر بانتشار الدعوة، وتوفر السهولة للعمل في الأمكنة التي كانت صماء بكماء، وأنه انبعث النشاط والحماس في كثير من المواطن وبذرت بذرة العمل في تلك الأيام في بعض المناطق الجديدة، في «بهوفال» و«جي بور» و«مراد آباد» وغيرها.

النشاط الدعوي:

وكلما قرب اليوم المحتوم، يزداد احتراقاً للدعوة، وحماساً لها، ولا يرضى أن يرى أو يسمع شيئاً لا يتصل بهذا الموضوع الأم، وكان ـ على الرغم من الانهيار الكلي ـ يشرف على جميع النشاطات وهو رهين الفراش، ويطلب أولي الأحلام والنهى مرات عديدة في اليوم، ويعهد إليهم بتوجيهات ووصايا، ونداءات إلى الناس، وكان يراقب دائماً أن ينصرف أحد لحظة في حلق الدرس والذكر والتعليم أو مجالس الوعظ أو على موائد الطعام، إلى شيء سوى الدعوة والتبليغ، ويوصي دائماً بالإمعان في الذكر والتعلم، والتبليغ، ولا يستخدم الزجر والملامة، وإنما يوجه إلى الموضوع بالترغيب والكناية الحكيمة، والإشارة اللطيفة، وقد يتحدث عن الأجر والفضيلة التي يحوزها المرء على هذا العمل، حتى تميل النفس، ويرغب القلب، وتتحرك الإرادة.

وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يستمع إلى مداولات الحفلات، وكانت هناك حفلة في المدينة، ولم يتمكن المسؤولون أن يصلوا إلى نظام الدين في الليل، لأنهم لم يجدوا مركباً، فسأل عنهم مرات، وما أن وصلوا في الصباح حتى استسمعهم جميع التفاصيل بفصها ونصها.

وحدث مرة أن تعرض الناس في حفلة الدرس والتعلم لموضوع تاريخي، أفاضوا في الانتقاد على السلاطين المسلمين في تقصيرهم في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وتوجيه ذلك لهم، وبذل الجهود في ذلك، ولم ندر كيف بلغ ذلك الشيخ حتى وجه رسولاً يأمرهم بأن يغيروا الموضوع.

وكان يوصي فيما يتعلق بالخطب والأحاديث الدينية أن تكون على مستوى «ما قل ودل» وأن تفوق الكيفية الكمية، وتمثل الكيفية التي كانت روح خطب النبي «كأنه منذر جيش، يقول: صبحكم ومساكم».

وما كان يرضى أن تكون الخطب والمواعظ محتوية على القصص والأمثال والنكت، والأبيات، وأن يستخدم الخطيب التنويع والإطالة، والتفصيل في الحديث، وكان يقول: إني لا أريد الإكثار من الخطب، لأن المدارس والحفلات تموج بها من هناك، كان الممرضون يحاولون أن لا يبلغه صوت الخطيب، حتى يتم حديثه، ولا يتأذى الشيخ.

وكان هناك تجمع كبير في نظام الدين في صباح إحدى الجمع ، وانتدب كاتب هذه السطور ، للحديث ، فبدأ الحديث على أسلوبه المتبع لدى الخطباء ، ونوع الخطاب ، وفضّل الكلام ، وإن مضت ساعة حتى صدر أمر الشيخ بأن أوجز الحديث ، وآتي على أصل الموضوع.

ويتجمع الناس بعد العصر ، وكان الشيخ يبعث نداء إلى الحاضرين ، يعرض عليهم ، واشتدت به الحمى يومئذ ، فلم يأمر بشيء ، وأشار إليّ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، أن أتحدث إلى الحاضرين ، ولكني كنت خائفاً مما حدث في الصباح ، ولما أفاق سأل الحاضرين ، لماذا لم يكن الحديث اليوم ، ولماذا أضيع الوقت هدراً؟ فقيل: يا سيدي إنكم ما أمرتم اليوم بشيء ، فقال: لماذا لم تسألوني ، قيل: كنتم في حمى شديدة ، فقال: لماذا آثرتموني على الدين ، ولماذا لاحظتم عدم إزعاجي؟

وكنت يومئذ متضايقاً ، صليت المغرب دون لذة وسرور ، تساورني الأفكار ، وتزاحمني الوساوس وجمد نشاطي ، وما إن سلمت ، وانتهيت من الصلاة ، حتى طلبني ، فوضع يده على رأسي في حنان الأم ، وعطف الأب ، وقال: لماذا أسقطت همتك وفتر نشاطك؟ تجلد ، وكن قويَّ الأمل ، بعيد الهمة.

الأمور التي كان يعنى بها عناية خاصة في آخر أيامه:

وهناك أمور كان يبذل عليها من العناية ما لم يبذله عبر حياته، التحريض على الاشتغال بالعلم والذكر، مخافة أن تعود هذه الدعوة جسداً بلا روح، وخطاً بلا وضوح، ومجموعة من القواعد والأشكال الفارغة، كالحركات المعاصرة الكثيرة، كان خائفاً حذراً من ذلك، يحذر من هذا المصير المشؤوم تحذيراً ولا تحذير بعده، فكان يقول دائماً، وعلى لسان إخوته وزملائه: إن العلم والذكر هما عجلتا هذه الحركة، ولا يمكن أن تندفع إلى الأمام خطوة بدونهما، وجناحان لا يمكنها أن تحلق بغيرهما، والعلم والذكر كل منهما يلازم أحدهما الآخر، وكل منهما في حاجة إلى آخر، فإن العلم بدون الذكر ظلمة وضلال، والذكر بدون العلم فتنة وفساد، وهذه الحركة بدونهما مادية خالصة.

والترحم والتوجع على الطبقة المتخلفة من المسلمين ديناً وعلماً وخلقاً، ومن أجل القيام بعملية التبليغ والتعليم فيهم أقام كُتّاباً على جانب من الشارع بجوار المسجد، وكُتّاباً آخر[1] على

---

(١) وليكن ملحوظاً أن المراد من الكتّاب ليس الكتّاب المعروف، الذي يشرف عليه «فقيه» أو «عريف» وإنما كان هذا الكتاب عبارة عن فراش من مسوح تحت شجرة، يجلس عليه جماعة من المبلغين، يعملون =

مفترق الطرق، ووفر فيهما الشيشات، التي كان يدمنها أهالي تلك المنطقة، وأمر جماعة من الميواتيين ومبلغي مدينة دهلي أن يجلسوا فيهما، ويجذبوا المارة من المسلمين في عطف وشفقة، ويكرموهم بالشيشة وما إليها، ويطلبوا إليهم بحكمة دعوية، أن يسمعوهم كلمتهم، ويحرضوهم على تعلم الدين وتشرب الإيمان ويوصوهم بالخير والصلاح، وكان الشيخ يهتم بهذا الأمر اهتماماً كبيراً، ويسأل عن ذلك دائماً، ويؤكد على توفير الشيشات وما إليها، ويذكر ما في هذه الحكمة الدعوية من أجر وثواب عند الله الكريم، وكانت الأيام هي الأيام التي يزور فيها جماهير المسلمين الجهلة، ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتي[١] رحمه الله، في أجمير ويعرّجون في العودة على دهلي ويزورون ضريح «نظام الدين أولياء»[٢] وغيرهم من الصالحين في

= على تبليغ الدين وتعليمه على أسلوب أصحاب الصُّفّة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام، كانوا يجذبون المارة بجرَّاء الشيشة التي كانوا يدمنونها، ويلقّنونهم الدين، وهذا الكتّاب يهدف أصلاً إلى ذلك.

(١) هو الشيخ الإمام الزاهد الكبير والداعية العظيم الحسن بن الحسن السنجري شيخ الإسلام معين الدين الأحمدي (٦٢٧هـ) أسلم على يده خلق كثير لا يحصى لجدّ وعدّ. مات ودفن بأجمير (ولاية راجستهان) يرجع للتفصل إلى كتاب نزهة الخواطر ج١.

(٢) هو الشيخ الإمام العالم الكبير نظام الدين محمد البخاري البهابوني =

دهلي، وضريح نظام الدين يقع بجوار المقر الدعوي، وكان هؤلاء الزوار، يقفون في الطريق إلى الضريح، يستجمون تحت الأشجار الوارفة الظلال، وينفضون متاعب الرحلة عن نفوسهم، ويصيبون من الشيشة، ويرضون حاجتهم إلى الشراب البارد العذب، فيستلفتهم المبلغون، وينتهزون هذه الفرصة التي أتاحها الله لهم، ويعرضون عليهم رسالتهم في لين وعطف، وحب، وعلى ذلك استطاعوا أن يعرضوا الدين على مئات من المسلمين ويبذروا بذرة الإيمان واليقين في قلوبهم، والله هو الذي يعلم كم من عباده الحائدين عن الطريق المستقيم اهتدوا إليه عن هذا الطريق.

والعناية بتعليم الطريق الشرعي الصحيح للإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة، فلم يتمكن الشيخ من العناية اللائقة بهذا الجانب في حياته، كما عُني به في هذه الأيام، كان يتوافد التجار والأثرياء في عدد كبير، فكان الشيخ يكرر بيان هذا المعنى بلسانه وبلسان غيره من الزملاء، يقول: لا بد أن يهتم المرء بأداء الزكاة من أمواله، اهتمامه بالعبادة، وأن يبحث عن مستحقيها بنفسه، وأن يكون هو المدين بأدائه، وقد ألقى الشيخ ظفر أحمد التهانوي أحاديث في هذا الموضوع.

= انتهت إليه الرئاسة في دعاء الخلق إلى الله (٣٣٣ـ٧٢٥هـ) (نزهة الخواطر ج٢).

وكذلك الاهتمام بالبريد ، فقد كان يأمر بتلاوة ما ورد منه في المساء وقت الصباح على الحاضرين ، إذا كان يتعلق بالدعوة والتبليغ ، وأن يجري التشاور معهم فيما يتعلق بالرد على هاتيك الرسائل ، ويعرض عليهم ما تشتمل عليه الرسائل ، من القضايا والأحوال ، ويستوحي لهم الحل والرد ، وقبل تلاوة الرسائل عليهم ، يلقي إليهم حديثاً عن غرض العرض ، وأنه إنما تعرض عليهم حتى يتعودوا على التفكير في القضايا الدينية وأن يصرفوا قواهم الفكرية ـ التي لا عهد لها حتى الآن إلا بالأمور الدنيوية والشؤون المادية ـ إلى المسائل التي تتصل بالدين والعقيدة ، والدعوة والرسالة ، وربما كانت هذه الرسائل الدعوية تحمل مواد تمس فيها الحاجة إلى الاستشارة مع المبلغين المحنكين من الميواتيين وسكان مدينة دهلي فكانوا يستخرجون لها الحل في ضوء ما عاشوه من تجربة طويلة في حقل الدعوة وعرضها ، فربما كانت الرسائل تحمل الحديث عن عوائق في طريق زرع الدعوة في مكان ، فكانوا يدلون على آلة إزالة هذه العوائق ، وقد تحمل تفاصيل العمل الدعوي في مكان ، فكانوا يضعون الأصبع على مواضع الضعف إذا رأوا تقصيراً ، وقد تحمل طلباً لمزيد من وفود المبلغين وجماعات الدعاة ، فيفكرون في الأمر ، ويتخذون له التدابير.

وقد كانت هذه الرسائل تعرض في البداية على مسمع من

الشيخ، فقد يعطي توجيهات بلسانه مما يزيده ضعفاً وتعباً، فبدؤوا ـ أخيراً ـ يقومون بهذا الأمر على بعد منه، وكان هذا الأمر موكولاً إلى كاتب هذه السطور، وقد يطلبني إذا وجد فرصة في النهار ويسألني عن نوعية مواد الرسائل، وما توصل إليه الأخوة من الحل والرد، فكان يصلح ويوجه، ويرشد، إذا رأى حاجة إلى ذلك.

وعلى ذلك فكان يدرب الزملاء على القيام بالدعوة من بعده، ويعلمهم آدابها وسليقتها، ولا غرو فقد كانت توجيهاته هذه، وحكمته تلك ذات ثمار ناضحة حلوة.

الحفلات الدعوية في دهلي:

كان يطلب دائماً إلى تجار دهلي أن يعقدوا حفلات دعوية، ويطلبوا فيها الكلمات من الشيخ ظفر أحمد التهانوي ومن العلماء الآخرين، فعقدت حفلات كثيرة في أرجاء المدينة بالإضافة إلى الحفلة المستقلة التي كانت تعقد كل يوم أربعاء بالجامع الكبير الذي بناه الإمبراطور المغولي شاه جهان، كانت الحفلات في مساجد المدينة الرئيسية في أحياء مختلفة، وكان الشيخ يضع في الاعتبار بصورة خاصة، الجولة والحفلة التي كانت تعقد كل يوم أحد في مسجد على شارع مشهور في المدينة، فقد كان الشيخ يعتبر هذا المسجد مقراً تبليغياً لمناطق «نيودهلي»، وقد كان يسهم في هذه السعادة الكبرى في أغلب الأحيان كاتب هذه السطور، والأستاذ

محمد معين الندوي (نائب أمين عام ندوة العلماء بلكهنؤ حالياً) والأستاذ واصف علي البخاري.

ازدياد الزحمة والتجمع:

ويزداد التجمع في نظام الدين مع الأيام، قد يبلغ العدد إلى مئتين أو ثلاثمئة أو أكثر، وتغطي الزحمة الإنسانية كل ناحية من نواحي مبنى المقر والمسجد، وفي الصلاة يزداد الجو منظراً بهيجاً وبهاء، لو أبطأ أحد قليلاً ولو أغفل قليلاً، لما وجد موضع ذراع يمتد فيه في الليل.

وقد ألقي نظرة على هذا التجمع المبارك، وأقول في نفسي: إن هذا الربيع الإيماني، والبهاء النوراني، والنشاط الدعوي، وكله يرجع الفضل في ذلك إلى هذا الشيخ العجوز، الذي أصبح حلس الفراش، ورهين الدار، وهو مشرف على الموت، يعدد أنفاس حياته، يأكل مئات من الناس من مائدته، وهو يكتفي بما يسد رمقه، من الدواء، وبأقل قليل من الغذاء، أرى هذه الوجوه النيرة الخيرة ومناظر الركوع والسجود، ومشاهد الذكر والتلاوة، وحلق الدرس والمذاكرة والإفادة والمناجاة مع الله في الخلوات، ووقت السحر وأقول في نفسي: أبقى الله على مجلسك معموراً يا مربي الجيل.

وقدم الشيخ محمد زكريا ومعه المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرائفوري لعيادته وقضاء بعض الوقت فيه.

الشائعة الكاذبة:

كان أهل المدينة على اطلاع متصل على أحوال الشيخ، وكانوا يتوافدون إلى نظام الدين بالسيارات والحافلات، وعربات الحصان، ويرجع الذين وفدوا مساء وقت الصباح وبالعكس، وكان الوافدون يطلعون الغائبين على الأخبار وعمت شائعة كاذبة عن وفاته، لا ندري كيف عمت وانبثت كالبرق، وقعت على أهل المدينة كالصاعقة، فتتابعت السيارات والعربات، والدراجات إلى نظام الدين، وبدأ الناس يتصلون هاتفياً، وهكذا تجمع آلاف من الناس على الرغم من الرد على الشائعة، وألقى الشيخ محمد منظور النعماني خطبة في ضوء الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] كانت خطبة مؤثرة تدعو الناس إلى التفكير، ورأى استجابة دعوة الشيخ محمد إلياس فإنه إذا كان خبر وفاته كاذباً، فقد يكون صادقاً لأن الأجل لا يؤخر ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ آل عمران: ١٤٥].

الأيام الأخيرة:

في الساعة الثانية عشرة ليلاً في الثامن من يوليو، خرجت إلى مفترق الطرق أتجول، ولما عدت قال أول رجل لقيته: كان الشيخ يطلبكم، وأرسل رجالاً يبحثون عنكم، فدخلت عليه عدواً، وأدنيت سمعي إلى فمه، فقال في صوت مرتعش ما تبينته

إلا بعد تكريره للكلمات، فقال: قولوا للناس: أن يلازموا الذكر، ويجالسوا الشيخ عبد القادر الرائيفوري، العالم الرباني، والمربي الكبير الذي جاء يعود الشيخ، وذكر أشياء أخرى ما أحفظها اليوم.

وفي ليلة التاسع من يوليو مررت بحجرته قريباً من نحو الساعة الواحدة، فرأيت الشيخ وحوله ممرضون ساهرون، فدخلتُ عليه، وجلست في ناحية، وكان مغمى عليه، فأفاق بعد قليل، فذكر رجلاً وقال: أفهل يبدأ العمل في منطقته، فقلت: وكنت على بينة من الأمر ـ نعم إن شاء الله سيبدأ، وهو صاحب كلمة مسموعة في منطقته فسيكون لعمله تأثير كبير إن شاء الله، فقال: إي والله إنْ أهل القلوب هم أصحاب كلمة مسموعة، وأمر مطاع.

ومساء العاشر من يوليو أكد على العلماء أن يعملوا، كل حسب مستواه، في مجال الدعوة والتبليغ، وفي صباح الحادي عشر من يوليو شرب من ماء زمزم، ودعا دعاء عمر رضي الله عنه: «اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك».

وفي نفس اليوم طلب رجلاً، وأمر أن يسأل عنه عما إذا كان يعزم على القيام بهذا العمل في قومه، وما الإعدادات التي قام بها لذلك، وقال يوماً للطبيب الذي كان يداويه: إن جميع أعضائه قد

شلّت، وإنما يقوم بقوته القلبية، وقال: لا تقيسوا على أنفسكم، إن ما ترون فيه من النشاط لا يرجع إلى قوة الجسم، إنما يرجع إلى القوة الروحية، ولكن الناس لا يدركون.

الليلة الأخيرة:

وبدأ يستعد في ليلة الثالث عشر من يوليو للرحلة، سأل أحد الحاضرين: هل الغد يوم الخميس؟ فقالوا: نعم، قال: انظروا في ملابسي لئلا تكون نجسة، فقالوا: إنها طاهرة، ثم نزل من السرير، وتوضأ، وصلى العشاء مع الجماعة في داخل الحجرة، وأوصى الناس أن يكثروا الليل من الدعاء والنفث عليه، فقال: ليكونن اليوم عندي أناس يميزون بين فعل الشيطان وفعل ملائكة الرحمن، ثم قال للشيخ إنعام الحسن: ما تمام الدعاء: «اللهم إن مغفرتك؟» فذكر الدعاء بتمامه: «اللهم إن مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي»، وظل يردد الدعاء، ثم قال: أحب أن تغسلوني وتنزلوني من السرير، وأركع ركعتين، سيكون لهما شأن.

وفي الساعة الثانية عشرة غشيته إغفاءة من الإغماء والانزعاج، فدعي الطبيب هاتفياً، فحضر، وأعطاه حبات، وظل يردد طول الليلة: الله أكبر، الله أكبر، وفي السحر طلب ابنه الشيخ محمد يوسف، والشيخ إكرام الحسن، وقال للشيخ يوسف: تعال

نلتقي، فلا بقاء بعد هذه الليلة، فإني مرتحل. وانتقل إلى رحمة الله قبل أذان الفجر، وانتقل المسافر المكدود ـ المجهود، الذي ربما لم يكتحل عبر حياته بنوم هادىء ـ إلى نوم عميق، لأنه قد وصل إلى منزله ومستقره، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وبعد صلاة الفجر نصب الناس ـ وهم مستعبرون منكسرون ـ الشيخ محمد يوسف خليفة له، ووضعوا عمامته على رأسه.

الغسل والتكفين، والدفن:

ثم غسله العلماء، والفقهاء، ولازموا في عمليته جميع السنن والمندوبات، وطار الخبر في المدينة، وتقاطر الناس، وما إن مضت ساعات حتى كان الحشد هائلاً، الحشد الذي ما كان للشيخ المرحوم أن يراه فارغاً مهملاً، عاطلاً، وأمر الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف أن يجمع الناس في الميدان المجاور، ويلقي الحديث إليهم، وقد تحدث الشيخ ظفر أحمد، والمفتي كفاية الله، وغيرهم، وأوصوا الناس بالصبر والاستقامة.

وصار الحشد هائلاً يكاد لا يجمعه جامع، ولا يقيده نظام، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا، ووضع جثته ـ بعد مشاق طويلة

من الزحمة التي تفوق السيطرة ـ في قبره بجوار شقيقه، ووالده في الجانب الجنوبي من المسجد، واختفت في الأرض هذه الشمس الإيمانية المشرقة التي تنورت بها نواحي قريبة وبعيدة؛ قبل غروب شمس اليوم الثالث عشر من يوليو.

أخلافه:

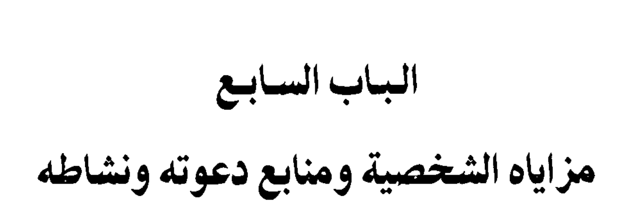
وخلف الشيخ ابناً وبنتاً، أما الابن فهو الشيخ محمد يوسف، وأما البنت فهي زوجة الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ محمد زكريا حفظه الله ابن أخيه الأوسط محمد يحيى، وتلميذه، وممن كان يثق بهم، ومن ذكرياته الحية ـ بالإضافة إلى هؤلاء الأخلاف ـ ألوف من المتصلين به، والمؤمنين بدعوته، ولا سيما أهل ميوات، الذين وقفوا حياتهم على حركته، ولا غرو إذا قال قبل وفاته بأيام: إن الناس يخلفون أشخاصاً وقد خلفت ـ والحمد لله ـ بلداً كاملاً.

وما مات من كانت بقاياه مثلهم
شباب تسامى للعلى وكهول

وكان رحمه الله أسمر، قصير القامة، نحيل الجسم، غاية في التحرك والنشاط، لا يعرف الكسل والكل، كث اللحية السوداء، تتخللها شعرات بيضاء لا ترى إلا من قريب جداً، ينمّ وجهه عن طول التفكير، والسهر والمجاهدة في العبادة، وتشفّ

جبهته عن بُعد الهمة والطموح، والألمعية والفراسة، في لسانه عقدة، ولكن في صوته قوة وصلابة وفي حديثه حماس، وقد يتحول الكلام عندما يصطدم بالعقدة في لسانه، إلى شلال يتدفق.

* * *



الباب السابع

مزاياه الشخصية ومنابع دعوته ونشاطه

الباب السابع

مزاياه الشخصية ومنابع دعوته ونشاطه

من الصفات التي كان يمتاز بها الشيخ محمد إلياس «الإيمان والاحتساب» ، اللذان كانا السمة الغالبة ، ويسودان كل ناحية من نواحي حياته العملية ، وكانا روح أعماله وجوهر نشاطه وتحركاته.

وهما: أن يعمل العبد وهو يؤمن بالله رباً وإلهاً بمعنى الكلمة ، ويعتبر طاعته غنماً وإشارته حكماً ، ويقدره حق قدره ، فيكون اليقين والإيمان بما وعد الله من أجر وثواب وإنعام وإكرام ، والحرص على نيل رضاه ، والإخلاص لوجهه الكريم ، مصدر أعماله ومحور حركاته الوحيد ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

والواقع أن ذلك هو روح العمل وحقيقته التي تجعله يصل في طرفة عين من الأرض إلى العرش ، ومن الثرى إلى الثريا ، وأما

بدونه فالعمل مقصوص الجناح لا يكاد يطير ، وإليك حديثاً آخر يلقي مزيداً من الضوء الكاشف.

«عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»[1].

وقد استرعت كل هذه المعاني في قلب الشيخ انتباهاً واسعاً ، فأعارها الشيخ نصيباً أكبر من العناية والاهتمام ، وظل يرعاها طيلة حياته ، وبذل لها قصارى جهده ، وما أدل على المبلغ الذي بلغته هذه الحقيقة ـ عنده من العناية والتقدير ـ من المقتطفات التالية من رسائله:

١ ـ «باطن الدين»: «الإيمان والاحتساب» ، وقد قيل في كثير من الأعمال: «إيماناً واحتساباً» فالنظر في جميع الخطابات التي وردت في كل من الأعمال ، واستزادة اليقين والإيمان والثقة بالله ، وتصعيد التقرب منه ، واستعظام عظمته وكبريائه ، ثم الأجر والثواب والنعم الكثيرة والعطايا المتنوعة الوفيرة من الدين والدنيا مما وعد به الله سبحانه وتعالى ، اعتبار كل ذلك إنعاماً منه وإحساناً خالصاً لا جزاء وعوضاً ، هذا هو «الباطن».

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الهبة ، باب فضل المنيحة.

٢ ـ «إن الأعمال بنفسها ليست لها أية قيمة ووزن ، وإنما الذي يجعلها ذات قيمة واعتبار هو: نية طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، والحرص على الاتصال به ، وتعزيز العلاقة معه ، فقوة تلك الصلة تقوي الأعمال ، وبقدر ما تصدر الأعمال عن طمأنينة قلب وعن يقين وإيمان ، تزداد قيمتها ، ويثقل وزنها ، ويتعزز اعتبارها.

٣ ـ فقدان التحمس والاندفاع الذي ذكرتموه في رسالتكم جعلني أغتبط به ، فحقيقة امتثال أمر الله أن يجعل هذا الأمر ـ نفسه ـ المؤمن يخضع أمام حقانية هذا الأمر وعظمته ، وحماسته واندفاعه ، فإن الحماسة وليدة الطبيعة والجبلة ، فإن صدر العمل عن الحماسة فهناك «حب طبعي» وإن كان عظمة الأمر ونية الامتثال والشعور بلزوم الطاعة وفرضية العبادة ، فذاك «حب عقلي» «حب إيماني».

٤ ـ إن الاغتباط بالعمل القليل ربما يسبب عدم الشعور بالتقصير والإهمال اللذين قد يرافقان الأعمال ولذلك فيجب أن نبالغ في التوقي من الوقوع في مثل هذا الخطأ والانخداع ، وإنما النجاح الحقيقي هو الجد في العمل ، دون اكتراث أو نظر إلى ما يترتب عليه من الأثر الحسن في الحياة الدنيا ، فإن الغرض من كل ما أمر به العبد هو الأجر الذي وعد به الله في الحياة الآخرة وذلك إنما يتعلق بالعمل والعمل وحده ، ومرة ثانية يجب التحصن كل

التحصن من أن نؤخذ بما يأتي به العمل في الأثر الخادع في الحياة العاجلة الفانية ، فيقف دون إدراكنا أخطاؤنا وتقصيرنا ودون استدراكنا لما فاتنا ، ولذا فيتحتم علينا أن نركز عنايتنا على ذلك الجانب تفادياً من التبجح بالنتائج والثمار.

٥ ـ لنواظب على العبادات والأذكار جاعلين جميع النصوص التي وردت فيها نصب أعيننا ، واثقين بما وعد الله عليه من الثواب ، ولنعلم أن رأس الأمر هو الفوز بتلك الثقة واليقين ، وبما أن ذلك يتعلق بالقلب ، فإن اليقين والثقة مكانتهما من الأعمال مكانة القلب.

٦ ـ لكل وقت بركاته وفضائله الخاصة به ، وقد وردت السنة في كل ذلك مصرحة به ، وحسب العامة أن يدعو الله عند أداء كل صلاة أن يجعل الله لهم نصيباً من بركات ذلك الوقت.

٧ ـ قد كتبتم تذكرون عدم إقبال القلب وعدم الالتذاذ ، فاعلموا أن ذلك أمر لا يهم فلا حاجة إلى العناية به والإقبال عليه ، والذي يتطلب منا تمام الاهتمام وكل العناية هو أن نقوم بالعمل ونعتبر الطاعة والامتثال هما كل شيء له مكانة وأهمية لا يستهان بهما.

وقد ركز الشيخ كل حركته ونشاطه على «الإيمان والاحتساب» فلم يَـرُمْ بأي عمل من أعماله إلا رضا الله ، ولم يهدف إلا إلى التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم ينو إلا الحصول

على الأجر الموعود على السعي المتواصل والجهد المتتابع في سبيل الدلالة على الخير والدعوة إلى البر والتقوى ، ولم يرد إلا التهيؤ للحياة ، فقد قال في رسالة :

«إن عملية الدعوة والتبليغ تتعلق بالقلب كما تتعلق بالجوارح ، أما علاقته بالقلب فهي كما يلي :

١ ـ طلب رضا الله ، والانتساب به تعالى وبالأنبياء عليهم الصلاة والسلام عامة ، وبسيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة .

٢ ـ الإمعان في مضمون «الدال على الخير كفاعله» بكل قوة وإرادة ، ثم كل من تذكر بسعيه واهتدى بدلالته ، فقام بالصلاة والتلاوة ، والذكر والعبادة ، اعتبار كل ذلك أجراً وذخراً .

٣ ـ إيجاد القوة في الدعاء والالتجاء والإنابة إلى الله ، والإيمان بكونه سميعاً عليماً ، والتضرع إليه لنجاح الدعوة والتبليغ .

٤ ـ اعتبار التوفيق لهذا العمل الصالح فضلاً من الله ، ونعمة ، فلا يضيع عليه أية فرصة .

٥ ـ التمرن القلبي على التواضع والحلم والتودد مع المسلمين .

يقول في رسالة أخرى :

يجب على المسلم أن يضع نصب عينيه مشاهد القيامة ، فإن ذلك يساعده على تدعيم العمل الديني ، ويقويه على المواظبة

عليه ، ويعتبر الأجر ـ الذي أشار إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ على كل عمل قام به لله ، ذخراً له ليوم القيامة ، متذكراً جلالة النبي عليه الصلاة والسلام.

رعـايتـه للحقـوق:

وكان لديه عناية كبيرة بحقوق الناس ، ولا سيما إذا كانوا من ذوي العلم والثقافة ، والدين والشرف ، وكانت بصيرته بهذا الخصوص نفاذة ذات دقة وعمق «واجتهاد» تدل على ذلك صفحات هذا الكتاب أوضح دلالة ، ويشهد بذلك كل من صاحبه وعاشره معاشرة ذي وعي وإدراك ولو لعدة أيام ، وسيشاركني في الاعتراف كل من خالطه بأنه كان من رجال «الاجتهاد» في تلك الناحية ، وتعامله مع الناس ، وأقواله وأعماله وأحواله كل ذلك يدلنا دلالة صارخة على أن رعاية الحقوق وأداءها إلى أصحابها ، كانا رمزاً لمعظم سلوكه وتصوفه وربانيته ، ومن هنا فكان يعتبر ذلك من أهم الواجبات ، يقول في رسالة له:

تبادل الحب والاحترام والإكرام فيما بين الإخوان لأهم وأخطر شيء وإن رعاية هذا الجزء الواحد من الحقوق ، وتوطين الطبع على ذلك لأفضل وأقوى وأبلغ إرضاءً لله جل وعلا من الكثير ، سواء من القضايا الحقة.

وكان يتعهد كذلك الحقوق الإنسانية العامة ، فكان لا يجوز

عنده غمط أي حق من تلك الحقوق ، ولا ما يتعلق بالكفرة والمشركين ومن إليهم من غير المسلمين ، ولا فرق في ذلك في الحل والترحال.

فهو يمنع رفيق سفره ـ وقد حجز على مقاعد القطار من المكان أكثر مما كانا يحتاجان إليه ـ أن لا يفعل ذلك ، قائلاً: إن ذلك من الحقوق العامة ، وها هو ذا يريد أن يصلي المغرب في القطار فيحاول رفيق من رفقاء سفره أن يمنع الركاب من المرور أمام المصلين ، فيرفض هو قائلاً: إن ذلك من الحقوق العامة ، فاتخذوا أنتم سترة ، ولا تجعلوا المسافرين يضيقون ذرعاً بنا.

وكانوا في رحلة راكبين سيارة ، فاستوقفوها في بعض الطريق لصلاة قد حان موعدها ، وبعد أداء الفرض راح بعضهم يصلون النوافل ، فقال: إخواني! إن هذه الزحمة من الركاب الذين لجؤوا إلى الوقوف من أجلكم أحق بطي الطريق.

أخلاقه وتواضعه:

الخلق الحسن ، والتسامح مع الناس ، والتواضع مما لا يندر وجوده في عالم الناس ، أما أن تكون تلك الخلال والصفات محكومة بالإيمان والاحتساب ، منسجمة مع مبادىء الإسلام ، متوافقة مع روح الشريعة المطهرة ، فذاك شيء من القلة بالمكان الذي يصعب مناله.

وكانت فكرة شيخنا فيما يتصل بالأخلاق ، أنها ليست بشيء حتى تكون تحت قدمي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد قص علينا مراراً أن الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند الذي كان من قادة حركة تحرير الهند ، ومن أجلة علماء شبه القارة الهندية إخلاصاً وربانية ، وتعمقاً في فهم روح الشريعة والكتاب والسنة ـ لما عاد من «مالطة» بعد ما أطلق سراحه ، وقد كان اعتقل من أجل قيادته لحركة تحرير البلاد ، وأقيمت له مآدب كبيرة ، وقد حضرت أنا إحدى تلك المآدب وجلست على المائدة بجانبه ، لا يحول بيني وبينه شيء فجعل المضيف يذكر محاسن ومكارم ضابطه الإنجليزي حتى أتى من الثناء على نواحيها ، ومضى في عدها بإمعان واستغراق ، حتى حشا مسامع «شيخ الهند» وأصبح شيخ الهند لا يطيق الإساغة مع الكمية الكبرى التي كان يتمتع بها من قوة التحمل ، فعيل صبره ، وهمس إلى أذني : «أفهل يكون لدي الكافر ما يسمى بالخلق»؟!

ولو عاشره معْنِيٌّ بالسنَّة لأدرك مدى نفوذ نظره إلى دقائق خلقية ، وكم كان يراعيها في سلوكه وأعماله التي كان يمارسها ليل نهار ، وقد كتب هذا العاجز ـ كاتب هذه السطور ـ إلى تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء الذين كانوا ملازمين الشيخ منذ أيام للاستفادة: إنكم قد درستم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد اطلعتم منها على ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، فادرسوها الآن

في الشيخ ، وانظروا كيف يعمل بها ، وتعلموا كيف يكون تطبيقها على الحياة تطبيقاً واقعياً علمياً.

يقول في رسالة إلى صديق له ، يقول فيها :

«مهما كان المسلم وضيع المنزلة ، ضعيف الرأي ، فدربوا نظركم على أن يقع عليه بالإجلال والإكرام لأن الإسلام فوق كل شيء».

وقد بلغ من تمرنه على ذلك أن كان لديه من ينتسب إلى الإسلام مكرماً مبجلاً ، ولو كان أحط ما يكون درجة وأسوأ ما يكون سلوكاً ، لا يصوم ولا يقوم ، ولا عهد له بالفرائض والواجبات مما نروح نظن أنه يعتبر أفضل من نفسه إرضاءً لربه ، وكلما كان يجتمع بمسلم لا ينسى صفة إيمانه وإسلامه ، وكان يتغلب دائماً إكرامه لهذا الإيمان وحفاوته على شعوره بعيوب صاحبه ومواضع ضعفه ، وقد انتهت به قوى إدراكه في هذا الباب إلى أن كان لا يلبث أن يميز بين مواطن الخير والشر في كل من يلاقيه ، فيركز نظره على ناحية الإكرام ويشمله بالاحتفاء والإكبار.

ولقي مرة رجلاً ، وقضى فيه حاجته إلى التوقير والاحترام ، ثم قال :

«إني لأعلم ما قام به الرجل من دور فعال في إلحاق الضرر الفادح بجماعة تعمل للدين ، وقد آلمني ذلك الإيلام كله ، ولكني

أعلم كذلك ما يتمتع به هو من المكانة في العلم ، وقد أكبرت فيه هذا العلم».

الدلالة على الخير:

يرى الشيخ أن كل من حبسته وظيفته أو شغله عمله أو هو عاجز ضعيف ، ورغم الأشغال والأعذار يريد أن ينال في هذه الحياة الوجيزة القصيرة ، الأجر الذي لا ينقضي ، والثواب الذي لا يغيض ، والعوض الذي لا يقل ، والذخيرة التي لا تنقص ، فليس له هناك سبيل إلا الدلالة على الخير ، وممارسة الدعوة والتبليغ بالإخلاص والاحتساب ، وكان يرى أنه لو كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل ويتلو القرآن كل يوم أو يتصدق بآلاف الروبيات كل يوم ، فسوف لا يبلغ به كل هذه الأعمال باجتماعها بالقياس إلى البركة والنور والقبول الحسن المبلغ الذي يبلغه الدالون على الخير ، الداعون إلى الله ، باستحقاقهم كل لحظة من لحظات اليوم والليلة أجر مئة ألف رجل عن طريق صلاتهم وصومهم وإيمانهم واحتسابهم ، وبما ينزل على أرواحهم منذ قرون من شآبيب الأنوار والبركات ، والرحمة والغفران ، والأجر والإنعام ، وبحكم دلالتهم على الخير ، فكيف يعدل يا ترى عمل رجل واحد وإخلاصه ، أعمال المئات من الناس وإخلاصهم وانهماكهم وشوقهم؟ كلا!

ولذلك فالشيخ كان يفضل «الدلالة على الخير» بحكم أنها الخير

المعدي على العبادات الشخصية ، والأعمال النفلية ـ على شدة حرصه واعتنائه وانكبابه على كل ذلك يرجو الثواب في الدعوة إلى الله أكثر من أي شيء آخر ، فاقتُرح على شيخ قد عمل في حياته أعمالاً جليلة ، ثم أصبح يتدرج إلى ضعف في الجسم وخور في العزيمة والقوة ، فاقتُرح عليه عن طريق زميل له : إنك أصبحت لا تطيق العمل مثل ذي قبل والوقت قصير والعمل كثير ، وحينئذ فالنظر في المصلحة ، والدقة في النظر ، والتفقه في الدين ، والمعرفة بمتطلبات الوضع ، كل ذلك يقتضي أن تسهم في الأجر والثواب بالدعوة والتبليغ ، إلى كل من الأصدقاء والزملاء والمجتمعين بك والجالسين إليك ، ومن يستمع من الناس إليك ، عن طريق الكتابة والخطابة والمكاتبة والمراسلة ، والتشويق والترغيب .

إن هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ كان يراها أسهل الطرق وأقواها للحصول على «الإيمان والاحتساب» غير أن طلب الإيمان والاحتساب قد أخذ منه كل مأخذ ، فلا يخطو خطوة إلا ويريد بها وجه الله تعالى ، ويرجو فيها الصواب ، ويرى فيها نفعاً من المنافع الدينية ، وربما كان من المستحيل أن يقوم بعمل دعته إليه نفسه ، فكأنه أصبح «لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه» ـ كما جاء في صفة النبي عليه الصلاة والسلام في شمائل الإمام الترمذي فكل حركة أو سكون أو فرح وسرور إنما كانت تصدر عن الطمع في الأجر ، والحرص

على ما فيه مصلحة الدين ، فلا يتكلم إلا لذلك ، ولا يحضر المناسبات والحفلات إلا لذلك ، ولا يغضبه إلا هذا ، ولا يرضيه إلا هو وحده ، ولا يعنيه كل ما لا صلة له بهذه الغاية ، ولا يفوته ذلك حتى في الأشغال اليومية والأعمال التافهة ، وكان كما قال الشيخ محمد منظور النعماني : ربما لا يشرب كوباً من الشاي بدون النية ، ولا يقدمه إلى أحد إلا وينوي رضا الله تعالى .

ففي كل عمل يعمله ، وكل مناسبة يشهدها ، وكل وظيفة يقوم بها ، ويحرص في كل ذلك على أن يحصل على خير ما فيه من المنافع الدنيوية والأجر الأخروي ، والتقرب إلى الله تعالى وكان يوجه كل عمل من أعماله إلى العبادة بحيلة عجيبة وبطريقة لطيفة ، وقد تعدت قوته الفكرية وذكاؤه المتوقد في ذلك مستوى الثقافة الدراسية والعلم الكتابي إلى درجة الحكمة والتفقه ، وقد بلغ في ذلك الحد الأقصى من إرهاف الحس ودقة الشعور وحضور الخاطر ، حتى كان يشير على أشخاص ذوي مستويات مختلفة بالحصول على الثواب في عمل واحد بنيات مختلفة .

وقد حكى الشيخ محمد منظور النعماني قصة طريفة تدل على ذلك ، فقال :

«قد حضرت» إلى بستي نظام الدين في دهلي في وقت الظهيرة ، والشيخ يقضي آخر أيام حياته ، وقد بلغ به المرض الذي توفي فيه - إلى أن لا يقوى على القيام ولا على القعود ، وكان بعض الخدم

الميواتيين يساعدونه على الوضوء لصلاة الظهر ، إذا به قد وقع نظره عليَّ فدعاني بإشارة من أصبعه وقال يعظني :

«فضيلة الشيخ! إن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان يشاهد علياً رضي الله عنه حينما يتوضأ هو ، مشاهدة متعلم ، مع أنه كان قد رأى مباشرة شخص النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعده أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، كيف يتوضؤون ، فلما فرغ الشيخ من قوله جعلت أدرس وضوءه دراسة إمعان وتلق ، فانتهت بي تلك الدراسة وهذا الإمعان إلى أن توضأ الشيخ في هذه الحالة الضارية ، وهو يعاني من شدة المرض ما يعاني ، يحمل لنا عبراً ، ويلقي علينا دروساً ، وأضاف الشيخ ـ محمد إلياس رحمه الله ـ قائلاً وهو يشير إلى الميواتيين الذين كانوا يعينونه على الوضوء :

هؤلاء المساكين ـ الذين ترونهم يعينوني على الوضوء ـ دوماً أقول لهم : إنكم تحبونني وتخدمونني من أجل طلب رضا الله ، وأنتم تظنون أنني أحسن القيام بالصلاة ما لا تحسنون أنتم ، إذاً فأعينوني راجين من الله أن يجعل لكم نصيباً من أجر صلاتي ، وأدعو الله : اللهم إن عبدك هذا يحسن القيام بالصلاة ـ كما نعتقد نحن ـ ما لا نستطيع نحن ، فنساعده على وضوئه رجاء أن تجعل لنا الحظ من صلاته ، وأنا بدوري أدعو الله : اللهم! إن هؤلاء السذج من عبادك يعتقدون فيَّ هذا الاعتقاد الكبير ، ويحسنون بي الظن

ما لا يخفى عليك ، فلا تفضحني ، وتقبل مني صلاتي ، واجعل لهم نصيباً منها .

وأضاف قائلاً: لو رحت أعتقد أني أقوم بالصلاة أحسن القيام بالنسبة إلى هؤلاء لأكون من المطرودين الخاسرين ، نعم إني أرجو الله تعالى أن يقبل صلاتي بفضل هؤلاء السذج المساكين المخلصين من عباده» .

انظر كيف دل ثلاثة أصناف من الناس ـ حسب مستوياتهم ـ لنيل الثواب على طرق مختلفة عجيبة في وضوء واحد ، بنيات مختلفة ، فدل الشيخ محمد منظور النعماني على فضيلة التعلم ومكانته الكبيرة ، على طريق تلقي الثواب عن طريق نية تتبع السنة وتحسين الوضوء وتصحيحه في ضوئها ، ودل الميواتيين على طريقة نيل الثواب عن طريق المشاركة في الصلاة التي هي تحمل درجة الإحسان. ودل نفسه على طريق الحصول على الثواب عن طريق حسن الظن بالعباد ، وعن طريق رجاء قبول صلاته بفضل حسن ظنهم به .

كيفية الإحسان الذي صوره الحديث:

يبين الحديث الشريف كيفية الإحسان فيقول : «أن تعبد الله كأنك تراه» وفي رواية «أن تخشى الله كأنك تراه» ، وكان رحمه الله نموذجاً عملياً لذلك في معنى الكلمة ، وربما يكون في الجلوة كأنه في

الخلوة يناجي ربه ، وقد صدق الشيخ محمد منظور النعماني ـ وقد شاهدت ذلك مباشرة ـ حينما قال:

«إنه كان يقرأ الكلمة الجامعة الشاملة: سبحان الله وبحمده ، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك ، لا شريك لك ، أستغفرك وأتوب إليك ، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ـ وقلما كان يتوقف عن قراءته بأسلوب وكيفية كأنه يقرؤها بين يدي عرش ذي الجلال والإكرام».

استحضار القيامة وتمثل الآخرة:

كذلك بلغ من استحضاره للقيامة وتصوره للآخرة أنه كان يجعلنا نذكر قول سيد التابعين الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ في وصف قوة صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ رضي الله عنهم ـ لتصور يوم القيامة «كأنهم رأوه رأي العين».

فسأل مرة أحد سكان ميوات: ما الذي جاء بك إلى دلهي؟ أجاب الرجل بحكم سذاجته: جئت لأزور دلهي ، إلا أن أسلوب سؤال الشيخ جعله يشعر بخطئه في الجواب ، فبدله بآخر من ساعته قائلاً: أتيت لأتشرف بأداء الصلاة في المسجد الجامع ، ثم لم يلبث أن أتى بجواب ثالث ، فقال: إنما أتيت لأزورك ، سمع الشيخ كل ذلك وقال: أين دهلي أو المسجد الجامع من الجنة؟ ثم من أنا حتى

أتيت لزيارتي ، جسم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم راح يفيض في ذكر الجنة ونعيمها ، فعدنا كأننا نراها .

الإيمان بفناء العاجل وبقاء الآجل قد بلغ منه كل المبلغ ، حتى يتجلى ذلك في رسائله وكتاباته وحديثه في الليل والنهار ، فقال في رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي :

«أطلب إلى الشيخ عبد القادر الرائيفوري أن يشرفنا بقدومه الميمون إلى «بستي نظام الدين» ولو لأسبوع أو أقل ، فإن الدنيا ظل زائل» .

وقد قال لكاتب هذه السطور مرة : «سنتقابل ـ إن شاء الله ـ في لكهنؤ ، فما هي إلا ثانية أو أقل حتى قال : ما لذة اللقاء في السفر؟ إن شاء الله سنلتقي في دار القرار» فشعرنا كأن مسافراً بالقطار يقول لمسافر : ما لذة اللقاء في القطار؟ سنجتمع في البيت ، ونلتقي هنا! فالبساطة بساطة المسافر في القطار ، واليقين يقينه .

وقد ذهب يعزي عمّنا الشيخ محمد طلحة الحسني[1] الذي

---

(١) كان من كبار علماء الهند المشاركين في علوم كثيرة خصوصاً التاريخ والآداب ، كان أستاذاً في الكلية الشرقية (ORIENTAL COLLEGE) في لاهور ، وهو من أعضاء الأسرة الحسنية أسرة الإمام السيد أحمد الشهيد ، من أولاد ابن أخته السيد محمد علي الحسني التونكي ، توفي في سنة ١٣٩٠هـ في كراتشي .

كانت توفيت زوجته ـ وهي عمتي ـ فقال له فيما قال: إنما مثل الحياة مثل باب يغلق أحد مصراعيه أولاً ثم الآخر ، وهكذا كل نفس ذائقة الموت هذه أولاً ، وهذه ثانياً.

الإقبال الكامل على مهمته والانهماك البالغ فيها:

ونفض يده من أجل مهمة الدعوة والتبليغ من كل شيء ، وتفرغ من كل عمل منذ أعوام ، فلم تعد له علاقة بما سواها ، قال في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا قبل مدة غير قصيرة: «إن أمنيتي الحبيبة الأثيرة أن يتجرد عقلي وقلبي ، وقوتي ووقتي ، من كل شيء سوى هذه المهمة» ، وكثيراً ما يقول: كيف يجوز لي الاشتغال بما عدا الدعوة والتبليغ بينما نرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن روحه في أذى مما يمر به المسلم المعاصر من الوضع السيىء وضعف الدين والعقيدة ، والانحطاط والذلة ، وفقدان المنعة والعزة ، على حين أن الكفر له صولة وجولة.

وقد شكا إليه أحد ممن كان يتمتع بعطفه وحنانه: «إنني أشعر بالقلة والدون في العطف والكرم البالغين اللذين كنت أحظى بهما من قبل سماحتكم» ، فرد عليه الشيخ قائلاً: إن لي شغلاً شاغلاً عن كل ذلك ، إنني جد منهمك في هذه المهمة الكبرى ـ الدعوة والتبليغ ـ فإني لأشعر بما تعانيه روح النبي الطاهرة صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى فلست لأقبل على شيء ما سواها.

وربما يمثل نفسه بالشرطي الذي يقف على مفترق الطرق ، يلاحظ المراكب والسيارات ، والعجلات والدراجات ويراقبها ويعطيها إشارة الوقوف والسير ، وكان يقول: لست أنكر أن هناك عمليات أخرى ذات الأهمية ، والنفع العظيمين ، إلا أن الانصراف إليها عن المهمة التي نعالجها شيء ذو خطر خطير وضرر كبير ، وقد استرعت عملية الدعوة كل عنايته ، واستجلبت كل تفكيره وتدبره ، ووقفت سداً حديدياً بينه وبين التفكير في شيء سواها ، وانتهى ذلك إلى أن سأله مرة صديقي المحترم الأستاذ محمد ناظم الندوي[1] ـ ونحن في جولة نمر بدلهي الجديدة ـ عن مبنى ذي شأن ، فقال: مولانا! ما لي ولهذا المبنى. إن العلم بذلك في واد وأنا في واد.

ولذلك كان يمتنع عن الحضور في المجالس التي لا تتيح له الفرصة لعرض الدعوة ، أما الحضور لمجرد المداراة والملاطفة ، فكان يشق عليه كثيراً ، كانت فكرته هي: «لابد من عرض الدعوة في الحل والترحال ، وإيثارها على كل شيء في كل حال ، وقد حكيت له مرة حديثاً للعلامة السيد سليمان الندوي ، فقد قال بعد

---

(١) عميد دار العلوم ندوة العلماء ، عميد الجامعة الدينية بهاولبور (باكستان) سابقاً ، ومن كبار أدباء العربية ، وعضو مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

الإياب عن حفلة: «لكي أعرض على الحضور كلمة مني واحدة، أحتاج إلى أن أسمع عشرات من الكلمات» فظل يقف عليها طويلاً يتلذذ بها.

وما أكبر عليه أن يسمع أحداً يخوض في حديث لا يحمل مصلحة ولا يرمي إلى هدف، ولذلك تراه ربما يتوقف عن مثل تلك الأحاديث، فقام يؤنبهما: اطلبا مكاناً آخر من القطار تتكلمان فيه، ففي المكان متسع، وكل من يجالسه ويختلف إليه كانوا يراعون ويحتاطون اطلاعاً منهم على طبعه الشريف، ومعرفة منهم بما يؤذيه وما يسرّه، لكن الموقف كاد يكون أحرج ما يكون، إذا ما يتوافد الوافدون الجدد، ولا سيما إذا كانوا من طبقة العلماء، فنقضي من عجبنا، بما نراه يكلف نفسه تحمل ما لا طاقة لها به، وهو طلق الوجه، منبسط الأسارير.

ولم يكن ينسى عمله مهما قصد وطنه «كاندهله»، أو زار أحداً من أقربائه، وكان يوجد الفرصة لعرض دعوته، بطرق عجيبة وأساليب ظريفة، ويجد مادة للكلام في كل شيء في سفر يقوم به وفي مجلس يحضره، وفي مناسبة يشهدها، ويعرض دعوته عرضاً تستسيغها العقول دون كلل وملل، وتلتذ بها النفوس الواعية طويلاً.

اتفق له أن يحضر مناسبة عقد الزواج لأحد من المخلصين له في دهلي، فلم يدع الفرصة المتاحة تفوته دون أن يستغلها، فقال

يخاطب الفريقين (فريق الزوج وفريق الزوجة): إنكم تسعدون اليوم بمناسبة يتمنى فيها كل واحد منا أن يرضي الناس حتى اللئام والأراذل والأدنين من الناس ، فما صنعتم إزاء إرضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دعا الناس إلى الدعوة وتكريس الجهود الممكنة لإحياء ما جاء به عليه الصلاة والسلام ، مقرراً أن ذلك أنشد عمل لإرضائه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقوى ذريعة للتزلف إليه .

ولم يكن يكتب كتاباً إلى أحد إلا فيما يتصل بالدعوة والتبليغ ، وإن اضطر إلى كتابة رسالة فيما لا يتصل بذلك ، لم يدع أن يستهل الرسالة بما يتعلق بالدعوة ، ويختمها بذكر الحاجة ، وقد رأينا طالباً من «ميوات» يريد الانتساب إلى «دار العلوم ديوبند» يلتمس إليه أن يكتب كتاباً يشفع له لدى مدير الجامعة سماحة الشيخ محمد طيب ، فملأ الكتاب مما يتعلق بالدعوة إلا سطرين أو أقل ينطويان على الشفاعة .

وأذكر أنا ـ كاتب هذه السطور ـ أني كلما كنت أقوم بزيارة قريب أو صديق ، يسألني أول ما يسألني لدى رجوعي هل عرضت دعوتك؟ هل قمت بأمانة التبليغ فيهم؟ ويقول ـ كلما يكون الجواب : أيها الأستاذ «إن العلاقات» كلها ميتة ما لم تكن تحت قدمي رسول الله ﷺ «يعني إن العلاقات إذا لم تُستغل لنشر الدين

والقيام بالدعوة وتدعيم النشاطات الإسلامية فهي متجردة من الروح فارغة من كل خير وبركة.

وكان يرى أن الحضور في المناسبات وتلبية الدعوات إنما يصحان إذا رافقهما عرض الدعوة، وكان يعتقد أن هذا هو المكسب الوحيد الذي من أجل الحصول عليه يشهد المسلم المناسبات، ويقبل الدعوات، ويحضر الحفلات والمأدبات، ويتبلور ذلك في الأسلوب الذي يختاره لدى توجيهه الدعوة للحضور في مناسبة عقد الزواج لأحد من أفراد أسرته في بيته، بالكلمات الآتية:

«إنني أرى ـ المسلم يعيش ما يعيش من الانحطاط والانهيار وفقدان الوعي الديني ـ الاحتفال بمثل هذا المناسبات دلالة على فقد البقية الباقية من الوعي الصالح، إلا أن ذلك مما سيجمع بين علماء الدين ورجال اليقين وأولى الوعي والغيرة من المخلصين، سمحت نفسي بتوجيه الدعوة إلى جميع السادة زملائنا وأحبائنا فليتكرموا علينا بالحضور، وليحظوهم بسعادة الدنيا والآخرة، وليتفضلوا علي بإتاحة فرصة سعيدة تمكنني من عرض برامج الدعوة والتبليغ».

وكان ـ رحمه الله ـ أكثر ما يكون تحصناً واستنكافاً من كل ما لا يعنيه وما لا صلة له بالدين، ولا يحمل نفعاً عاجلاً أو آجلاً، وكان يوصي بالتحصن من مثل ذلك كل من يختلف إليه ويتحلق حوله،

ولا سيما الذين يقومون بجولات الدعوة ، ويخرجون في الوفود التبليغية ، وكان يقول: إن الاشتغال بما لا يعني ومعالجة ما لا ينطوي على فائدة ما ، يذهبان بروح العمل ، ويضيعان ماء وجهه ، وكان يعتبر الخوض فيما لا يتعلق بالدين لا من قريب ولا من بعيد ، إضاعة للوقت ، ويدل على ذلك ما اتفق لي معه ، فكنت أنا ـ مرة ـ أستمع ـ وأنا في لهفة وحنين ـ إلى ما يقص على السيد رضا حسن[١] مما جرى له في جولته الدعوية الواسعة الطويلة المدة التي قام بها في فترة من الوقت ، فإذا بنا يرانا الشيخ ـ وقد سمع ما قص علينا رضا حسن ـ فيقول: «إن ذلك عرض للتاريخ وإعادة لذكرى الماضي ، فالأفضل أن تخوضا في حديث غيره يفيد كما فيما يأتي».

وكان يقدر الوقت حق قدره ، وكان يؤلمه أن تضيع لحظة في غير موضعها ، يدل على ذلك ما شهدته ، وهو جالس يسمع الرسائل والكتابات ـ وكان يضعها في غلاف ـ فإذا الغلاف الذي قد سمع ما فيه يعترض له ، ويخرج القارىء منه رسائل ويعيد قراءتها ، فيدرك ـ بعد ثانية أو أقل ـ أنه قد سمعها ، فيقول ـ في

---

(١) أحد العاملين في مجال الدعوة المنقطعين إليها في مركز التبليغ في دلهي.

أسلوب فيه شي كثير من الحسرة ـ: «خرقها كي لا تضيع وقتي مرة أخرى ، فإنه رأس مالي».

ولا أدل على تقديره للوقت ، واستغلاله في معنى الكلمة ، ووضعه في موضعه مما قام به من العمل الجليل الذي لم يعد خافياً على العالم ، إن مثل هذا العمل ذي الأهمية القصوى يحتاج القيام به إلى استغلال كل لحظة ، وانتهاز كل فرصة ، والضن بكل آن وثوان على ضياعها في غير موضعها.

قد عرّف الشيخ مرة «العشق» فقال: هو أن ينحصر كل لذة الإنسان في شيء واحد ، وينحسر كل ما فيه من معاني الغرام والوله في ذاك الشيء ، هذا هو «العشق» ، وقد انطبق عليه «العشق» هذا كل الانطباق فيما يتصل بالدين فقد عشقته روحه عشقاً تغلّب على كل لذة في الحياة ، فأصبحت كل أمنية بعده شيئاً لا معنى له لديه ، وأضحت تلك اللذة الروحية والمعنوية عنده لذة محسوسة ملموسة فكانت تكسبه من القوة والانتعاش ، والنشاط والحماس ، ما لا يكسبه أحد من الغذاء والدواء ، فكتب إلى أحد ممن شكا إليه القلق النفسي الذي كان يغالبه لدى قضائه لوقته في بيته بعد ما بذل القدر الكثير من وقته في نشاطات حركة الدعوة والتبليغ ، كتب إليه ما أن كان لا ينطبق على أحد حتى المكتوب إليه فإنه سينطبق عليه كل الانطباق.

«صديقي الموقر إن هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ بمنزلة

الغذاء لروح الإنسان ، وقد أغدق عليكم الله هذا الغذاء بمجرد فضله وكرمه ، ومن ثم فالقلق والاضطراب ـ اللذان تعانون منهما في هذه الأيام ـ نتيجة حتمية منطبقة لفقد هذا الغذاء أو لقلته ، ولو لوقت قصير محدد ، فلا تحسب لذلك حساباً ، ولا تلق له بالاً».

وطالما رأيناه قد نسي مرضه ، وتجددت فيه قوة انْهَارَ أمامها كل ما كان فيه من المرض ، حينما سمع خبراً ساراً عن نشاطات التبليغ ، أو قابل رجلاً توسم فيه صلاحية الإفادة لمهمة الدعوة ، وبالعكس من ذلك اشتد مرضه ، وازداد حزنه كلما سمع نبأ مقلقاً ، فكأن كل آلامه تجمعت في ألم واحد ، يقول في كتاب له :

«أنا بخير ـ والحمد لله ـ إلا الألم الناجم عن التفكير في الدعوة ، وسبل توسيع نشاطاتها وتصعيد تحركاتها».

وانحسرت نواحي شعوره ، فتركّزت على شيء واحد ، وهو الدعوة ـ والدعوة وحدها ـ وسمعناه يقول : إن كثرة الأشغال ربما تجعلني أفقد الشعور بالجوع ، وحينئذ فإنما آكل لأني أكون قد تحلّقت مع المتحلّقين حول الطعام ، أو لأن مواعيد الأكل تكون قد حانت .

وتسره الكتابات والأنباء عن نشاطات التبليغ سرور رسالة العشيق للعاشق الصادق الهائم الذي طال به الهجر وبرّح به الشوق ، يقول في كتاب له إلى عامل في حقل الدعوة كان يكتب

محضر نشاطات التبليغ في فترة من الوقت :

«إن تصور كتاباتكم يفعل فيَّ ما تفعله الروح في الجسد ، وإن لم أصدق في قولي هذا مئة في المئة ، فبالتأكيد ليس ذلك مجرد كذب أو مبالغة ، لأن كتاباتكم لأكرم عندي من نفسي ، فإياك أن تهمل في توجيهها إليّ» .

وكان انتظاره لرجوع وفود الدعاة الذين كان يوفدهم إلى مختلف الأرجاء أحلى لديه من انتظار هلال العيد ، فيكتب إلى عضو من أعضاء «جماعة التبليغ» كان كرئيس لوفد :

«إن بعثة الدعاة التي سترد إلينا عن طريق شواطىء نهر «جمنا» أنتظرها انتظاري لهلال العيد ، فائتِ بها بكل إجلال وإكرام» ، وبلغ من تركيز عنايته على حركة الدعوة والتبليغ مبلغاً قد لا يتحمل فيه «ثقل» السرور البالغ ، فمرة رجع وفد الدعاة المكون من أهالي مدينة «لكهنؤ» من مدينة «كانفور» إلى مقر حركة الدعوة في «بستي نظام الدين» في «دلهي الجديدة» وكنت أحد أعضاء الوفد فقال لي يوماً بعد صلاة الفجر ـ وهو يستفسرني ـ: «ربما يكون قد توقف نشاط الدعوة في مدينة «كانفور» بعد إيابكم منها؟» ، فقلت : إن النشاط مستمر ، والعمل ماض ، فقد ناب عنا وفد آخر من أهالي «لكهنؤ» وخلال هذا الحديث أِشرت إلى رجل كان معي في هذا الوفد الراجع ، فبادر إليه يصافحه ويقبل يديه ثم قال : إنه قد جر السرور «الغامر» إلى رأسي صداعاً فلا تغمروني بما لا أطيقه من

السرور ، فقد بلغت من الشغف أن أصبحت لا أتحمل «مفاجآت سارة» .

وبالعكس من ذلك ، ربما كان يلحق به المرض أيما إهمال أو حيد عن المبادىء أو قلة عناية يراها في وفود المبلغين ، فقد حضرت مرة «بستي نظام الدين» فقال لي : مرضت بعد رجوعي من «سهارنفور» فسألته عن السبب ، فقال : هو عدم التزام الوفود بالمبادىء ، وعدم اكتراثها بالغايات فقد يخوض القوم فيما لا يعنيهم ، من التفرج في المدينة ، والتسكع على الشوارع والتجول الفارغ في أنحاء المدينة وحاراتها .

ويدل على هذا الحماس والشغف البالغين المقتطفات التالية من رسائله إلى كاتب هذه السطور :

«لا بد أن يخرج رجال يحسنون التضحية بأنفسهم وأموالهم في هذه السبيل ، دون أيما تلعثم وتردد ، فقد آن أوانه ، ولا مبرر لأي تخلف هناك» .

«لو ذقتم الجنة ونعيمها في هذه الدنيا الفانية ، لو ركزتم جهودكم على هذه الغاية الكريمة مؤمنين بمفهوم : «إن الله لا يضيع أجر المحسنين» ومتمنين أن يدعوكم الناس «مجانين» معتبرين أن الفناء في هذا السبيل وفي السعي وراء هذا الغرض النبيل ، هو البقاء في معنى الكلمة» .

وقد تكيفت حياة الشيخ بهذه الكيفية ، فكان يجد لذة الجنة في هذه المساعي ، كانت السموم اللافحة في هذا الطريق أشد إنعاشاً له من النسيم العليل في الصباح ، فقد كنت أنا وهو والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي ، والشيخ إكرام الحسن[1] ، في الطريق إلى حارة «قطب» في «دهلي» وكانت السموم تلفحنا من نوافذ السيارة التي نركبها فأشار الشيخ محمد إلياس بإغلاقها ، فقال الشيخ محمد زكريا: نعم ، إن السموم حارة لافحة الآن ، ولو كانت في سفر دعوة وتبشير وجولة دعوية لكانت باردة عليلة ، فقال: «نعم ، ولا شك».

وكان يتمنى لكل من يتوسم فيه الفضل والكمال والموهبة والصلاح ، والكياسة والعبقرية والذكاء والفطانة ، والخبرة والتجربة ، يتمنى أن لو ركزت هذه كلها على المحاولات التي تبذل في سبيل الدين والدعوة ، لأتت بأينع الثمار.

لم أر عند أحد ما رأيت عنده من الاضطراب والتألم والزفرات والأنّات ، ولا يكاد يتصوره من لم يعاشره ، فربما وجدته يتململ تململ السمك خارج الماء ، وكثيراً ما كان يتأوه ويقول: رب ماذا أصنع وأرى السعي يضيع ويذهب سدى؟ وكثيراً ما كان يجعله هذا

---

(١) أحد كبار أعضاء أسرة الشيخ ، وهو والد أمير الجماعة الحالي فضيلة الشيخ إنعام الحسن مد الله في حياته. توفي في سنة ١٣٩١هـ.

التوجه والتألم يتقلب على الفراش لا يقر له قرار حتى ينهض ويتمشى ، ومثل ذلك كان يعاني منه ذات ليلة فقالت له زوجته: ما الذي أطار النوم من عينيك وأقض مضجعك؟ فقال: حبذا لو فَهِمْتِ ذلك؟ وحينئذ ستعانين مما أعاني منه ، وهنالك فسيكون المحروم من النوم اثنين ، وطالما كان الناظر إليه يرق له فيواسيه ويطمئنه ، وأحياناً رأيناه يتحدث فنشعر كأن قلبه تُنُّور يشتعل ناراً ، وكان يتدفق عاطفة وحمية وغيرة تدفق السيل العارم ، مما كان اللسان قد لا يطاوعه ، والكلمات تتكسر عليه ، وربما يفصل خواطره ، ويطيل الكلام ، ثم ينشأ يتغنى البيت الأردي السائر للشاعر الأردي الكبير «أسد الله خان غالب» بتعديل خفيف:

«إني مجنون أثرثر ما أثرثر ، غير أن في هذه الثرثرة فوائد نفيسة ونكتاً دقيقة فليفهم الناس ولو بعضها».

وقد يفتر عن الكلام مخافة أن يكون قد سئم بعض السامعين ، إلا أنه يتغنى بلسان حاله الشعر الفارسي الذي أكثر من سوقه الشيخ الكبير أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندي ، المعروف بـ «مجدد الألف الثاني» في ختام الشيء الكثير من رسائله:

«إنما أطوي حديثي عن الألم والهم اللذين يعاني منهما قلبي خشية أن يُسأم وإلا فإن الحديث طويل».

كل ذلك يدل على السر وراء إطلاق الكفار والمشركين لكلمة «مجنون» على الأنبياء عليهم صوات الله وسلامه ، ويزيح اللثام عن

سر تكرير الله سبحانه وتعالى لأمثال قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وإن مثل هذا القلق والاضطراب ليعطينا صورة يمكن أن نقدر في ضوئها تلك الكمية الكبرى التي كان يتمتع بها أسلافنا العظام من التململ والتألم من أجل بؤس الإنسانية عامة وانحطاط المسلمين وضعف العقيدة والدين خاصة، ذلك الذي يجعل مجدد الألف الثاني يخط بقلمه مرات:

«وا ويلاه، واحزناه، وامصيبتاه! إن محمداً رسول الله ـ وهو حبيب رب العالمين ـ أتباعه يعانون الذل والهوان والصغار وأعداؤه يتمتعون بالعز والمنعة والاعتبار».

إنه كان يتوصل ـ بعد المقارنة بين كمية المساعي التي تبذل من أجل إعلاء كلمة الله وبين شدة الحاجة إلى هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ ـ إلى أن هذه الكمية أقل بكثير وكثير مما تحتاج إليه أمثال هذه الحركة، فكان يخاف أن يؤاخذه ربه على هذا التقصير والإهمال في أداء الحق الذي عليه وذلك يسبب له الألم المضني، يقول في رسالة إلى كاتب هذه السطور:

«أين المحاولات التي أبذلها، والصوت الذي أرفعه، من المسؤولية الضخمة التي تعود علي من قبل الدعوة، والتي أرانيها الله سبحانه وتعالى، فإن عاملني هو باللطف والكرم فذلك شأنه، وإن عاملني معاملة العدل فلا سبيل إلى النجاة».

وكانت ضآلة المحاولات الدينية التي تنفق من أجل مكافحة

الفتن السوداء وسيل الإلحاد واللادينية العارم الجارف ، وتيار الإباحية العاتي في العصر الذي يعيشه يسبب له الكآبة البالغة ، كلما يوازن بين الضعف وقلة الجهود وقوة الفتنة وسرعتها ، وينتهي به ذلك إلى أن قد لا يسره ولا النبأ السار عن المجهودات والنشاطات ، يقول في رسالة إلى الأستاذ عبد الغفار المجددي الندوي :

«منذ أيام تسلمت رسالتكم وكان عهدي بها من قبل أن تهبني الشيء الكثير من النشاط والانتعاش والسكينة والطمأنينة ، لكن الفتنة المظلمة التي تسلب الإيمان والعقيدة والتي تقضي على الشعور الديني والوعي الإسلامي أسرع - زميلي الموقر - بكثير وكثير من «سيارات البريد» وبالعكس من ذلك هذه الحركة - وهي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يقاوم هذه الفتنة مقاومة فعالة - أبطأ بقدر ذلك حتى من النملة ، وبالتأكيد إن هذه الكمية الضئيلة من الجهود سوف لا تسمن ولا تغني من جوع بالقياس إلى سرعة الفتنة وتمكنها وتأصلها.

حينما كانت بعثات الميواتيين تخرج للجولات ، فكانت تسر الناظرين إلى عَدَدها وعُدَدها من الهمة والعزيمة ، والإرادة المحركة ، إلا أن القلب الكئيب الحزين الملتهب في صدره كان يريد أكثر من هذا ، وكانت بصيرته النافذة تنفذ إلى قلوب الوفود ، فتحسسها ، فتعود حزينة كليلة ، كلما تجد شيئاً ما من الخور في

العزيمة والفتور في الإرادة أو ما يسمى بالزيف في النية ، من الشوق إلى العودة ، والحنين إلى الأهل وما إلى ذلك ، وحينئذ فتنقلب كل مسرته حسرة.

يقول في رسالة يتحدث فيها عن الأنباء السارة عن نشاطات التبليغ والدعوة:

«قد وصلتني رسالتكم التي تصف نشاطات حركة الدعوة والتبليغ ، وتفيد أن وفداً مكوناً من ٨٠ رجلاً قد وصل إلى هناك ، وأن وفداً آخر يتألف من ٢٥ رجلاً على وشك الخروج في رحلة دعوية ، فالحمد لله ثم الحمد لله ، فإن ذلك لمن مجرد كرمه وفضله ، ومن نعمه الجليلة ومنته الكبيرة ، أن قد عقد ٨٠ رجلاً النية على الخروج من وطنهم من أجل نشر الدين وإصلاح العقيدة في هذا العصر العصيب الذي اشتد فيه الاستخفاف بالعمل في حقل الدعوة والإرشاد ، لكنه بجانب الشكر لله العلي القدير يطلب دقة وخطورة الموقف منا وقفة متأملة ، وقفة نتمكن فيها من تدقيق النظر ومراجعة الحساب ، فسندرك أن هذا القدر أقل من القليل بالنسبة إلى هذه الكثرة الكاثرة الهائلة من الشعب المسلم ، ويزيد الأسف والحسرة النظرة المتفحصة في هذا الزهد في النشاط والحماس بجانب هذه العزة والبركة وأنواع السعادة التي تجليها هذه الحركة الكريمة ، والتي تتضح اتضاح الصبح لذي عينين ، ويضاف إلى ذلك الحنين الزائد إلى الوطن الذي يصعب معه الثبات والصمود ،

ولا يكادون يخرجون من وطنهم إلا بعد تدابير كثيرة وحيل عديدة ، وإذا ما تجذب الدار الفانية هذا الجذب العنيف فكيف يتم عمارة الدار الباقية الآتية ، وبالتأكيد سوف لا تذوقون حلاوة الإيمان حتى تروح الإقامة في الوطن تصعب صعوبة الخروج للجولة الدعوية الآن ، ويكبر العودة إلى الوطن على النفوس كبر الخروج إلى التبليغ اليوم ، وحتى تنهضوا لبذل الجهود الجبارة من أجل تعويد الشعب المسلم على بذل أربعة أشهر في الجولة وتركيز العناية البالغة على تعميق جذور هذا العمل الجليل في حياة الأمة المسلمة» .

ويقول في رسالة أخرى :

«رفيقي العزيز ! كيف أعبر عن آلامي المبرحة؟ إن هؤلاء لا يكادون يثبتون ولا عدة شهور ، وإنني أعتقد أنه سوف لا يستتب الإيمان في قلوبنا ولا تتأصل العقيدة في أعماق صدورنا ، ولا نستطيع تمكين وتدعيم العلاقة بيننا وبين الدين التي نرمي إلى الحصول عليها ، لا يتم كل ذلك حتى يلزم كل واحد منا نفسه بالقيام بالجولة الدعوية ، ولا أقل من أن يلزم كل بيت من بيوتنا أنه سيجهز واحداً من أعضاء أسرته تناوباً للخروج والغدو والرواح من أجل تشييد بيت الدين والعقيدة .

أليس ذلك غريباً ـ يا أخي ـ أو ليس يبعث الأسف العميق أن يتكالب كل من أعضاء بيوتنا على ما يتصل بالحياة الدنيا ، ولا نكاد

نرضى أن نتصدق على الخدمات الدينية والنشاطات الدعوية ولا برجل واحد!

وربما يواجه قلقاً واضطراباً حينما يريد أن يعبر عن معنى دقيق فلا يجد من الألفاظ ليفصح عن مشاعره ، يقول في كتاب:

إن هذا العبد الضعيف لفي وضع محير بشأن هذه الدعوة ، حتى ربما أكون لا أقدر على التعبير عما يجيش في الصدر.

ويختتم رسالة له تحدث فيها عن المجهودات الدينية والسعي وراء نشر الدين ووصفها بأنها هي التي تستطيع أن تدفع البلاء ، وتحيي العزم ، وتحرك الإرادة ، أما أن نعيش الحياة المتجردة عن الحراك والجهد للدين ونتوقع انكشاف الكربة ، وانجلاء البلاء عنا ، فذاك وهم وجنون ، وتصور خاطىء كل الخطأ بهذه الكلمات!

إنه بما قد أصابني قلق واضطراب لدى إملاء هذه السطور فإني أكتفي بهذا القدر.

وإنه لمن فضل القلب الكبير الشجاع القوي الذي كان في صدره أنه ـ بجانب هذه الحرارة ، وهذا القلق والاضطراب وهذا الألم المضني ـ ظل دائماً متهلل الوجه ، سمح النفس ، ضاحك الجبين ، يتبسط مع الناس في الكلام ، يكرم الضيوف ويباشر الأعمال العادية ، وإلا فإن الشعلة المحرقة الملتهبة في صدره منذ

زمان لو أنهكت قواه ، وأضنت عقله ، وعطلته من الأعمال ، لما دب إلينا العجب .

تحمل متاعب في سبيل الدعوة:

قد جرت العادة ـ بشأن نشر الدين والدعوة إلى الخير ـ على استخدام البيان والبنان ، والقلم واللسان ، أما مزاولة التجوال والترحال والجولات والرحلات ، وإعارتها كبرى الأهمية والدرجة الأولى للحصول على هذه الغاية ، والاعتقاد بأن الحاجة ـ بهذا الشأن ـ أشد إلى الحركة العملية منها إلى حركة القلم واللسان ، فإنما يرجع الفضل في ذلك ـ في عصره ـ إليه ، وشرح الله لذلك صدره شرحاً تاماً ، فكان يوصي بالصمود على هذا المبدأ ويدعو الله لذلك ويستدعي الصلحاء من عباده ، يقول في رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي :

إني لأرجو منك رجاءً نابعاً من الإيمان ومن أعماق القلب أن تدعو الله بكل اهتمام أن يجعل هذه الحركة ـ التي قمت بها ـ حركة عملية في معنى الكلمة ، وألا تخدش ولا تقلل كثرة الأقوال من عمليتها ولتقتصر الخطب والأقوال على قدر الحاجة ، وما ذلك على الله بعزيز .

وكان يقول : إن إثارة الحنين في القلوب إلى التضحية بالنفس ، في سبيل إعلاء كلمة الله ، والشعور بأن بذل النفوس والأرواح متاع

رخيص جداً في هذه السبيل ، ذلك هو جوهر حركتي ، وتلك هي الغاية التي نرمي إليها.

وقد تجشم منذ اليوم الأول ـ على الرغم من الضعف الناتج عن تقدم السن ـ في الرحلات الدعوية ولا سيما في منطقة ميوات من المشاق والأعباء ، ما لا طاقة به للشبان من أولى الجلادة والقوة ، وهذا التفاني في السعي وراء المقصد الشريف هو الذي ربما كان يفقده الشعور بالجوع والعطش فضلاً عن النوم والاستراحة ، فيتداخل الليل والنهار ، وتمضي ليال وأيام دون أن يمس شفتيه ذواق ، وربما مضت عليه ست وثلاثون ساعة وهو جائع ، وطالما خرج من نظام الدين صباح أو مساء يوم الخميس أو صباح يوم الجمعة فلم يأكل ولم يشرب إلا بعد ما رجع إلى نظام الدين يوم الأحد.

سهر الليالي الطوال ، وعبر الجبال ، وقطع أشد الطرق ، وصبر ـ في شهر مايو ويونيو ـ للسموم اللافحة في صحارى ميوات اللاهبة وللقر القارس ـ في شهري ديسمبر ويناير ـ للنفحات القاتلة للرياح الزمهريرية في المناطق الخالية والميادين المجردة.

وهناك رحلات إلى ميوات قام بها في شدة من الحر ، وضعف في الصحة ، قل معها الأمل في الحياة وكثر عليها الخطر من الموت ، غير أنه عد هذا الخروج في سبيل الله خروجاً إلى الجهاد

وأرض ميوات ميداناً للجهاد ، فأقبل إليها دون اكتراث بالأخطار والأعباء.

يقول في رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي المؤرخ ١٦ مايو ١٩٣٦م:

قد انتهى بي الضعف إلى أن الحديث إذا كان ملتوياً غامضاً يختلج في صدري ، ويخفق منه قلبي وتنبو عنه نفسي ، حتى يعز علي السفر إلى دلهي في سيارة مريحة ، غير أني رغم ذلك كله ، والحمد لله عزمت على القيام بجولة ستستغرق شهراً كاملاً ، متأكداً من أني سأكون غرضاً للسموم اللافحة ولأحاديث جهلاء ميوات التي تكون غاية في الغموض والالتواء ، فحاولت أن أخاطر بنفسي وتصورت هذا الخروج خروجاً إلى الجهاد ، فكأني مصمم على الخوض في الجهاد لكن أخوف ما أخافه هو ضعفي وفتور همتي ، وأخشى نفسي الباغية أن تتولى عن مواجهة الشدائد والمشاق منهزمة خاسرة خائبة ، فادع الله جل وعلا أن يرزقني الصبر على المكاره ما دمت حياً ـ وما ذلك على الله بعزيز ـ أو يوفقني لتحقيق الهدف وإحراز النجاح فأعود سالماً غانماً ، فإني أحسب هذه الرحلة ـ أهم مسؤولية في عنقي ، وأحسب الالتفات إلى الصحة والضعف أشد معصية أقترفها ، وها أنا ذا أقدم على السفر على يأس من الحياة.

وكانت هذه الرحلة بعربة يجرها الثوران ، وكانت الطريق تتداخل الجبال في موضع يقال له كلتاج بور ، وأخذت العربة

تصعد الجبل فانقلبت واصطدم الركاب ، ثم صعدوا ، وهم مكدودون مجهودون مغبرون قد خلع الصعود أضراسهم ، وكان الوفد يتكون من بعض أولئك العلماء الذين لا عهد لهم بهذه الأعباء ، فبادرهم الشيخ قبل أن يشكو ما لقوه من المتاعب والشدائد ـ وذهب بهم مذهباً آخر ، قائلاً : زملائي إن هذا الصعود الذي هو شبه صعود على حراء ، إنما سعدتم به لأول مرة في الحياة ـ ولكم الله أخبروني كم مرة واجهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حياته السعيدة؟ فيا أسفي على هذا الحرمان والتقصير! ، فمن كان لينبس بشكوى بعد ذلك؟

وإذا ما عزم على شيء فلم يحل دونه ودون تحقيقه شيء ، ومن ثم فكل شيء عنده ممكن مستطاع إلا ما شاء ربك ، وأما كلمة اليأس فليست تحمل لديه معنى ، وإذا ما تذكر شيئاً يريد تحقيقه عزم عليه ونفذ إرادته مهما كان الزمان والمكان.

فتذكر يوماً أن هناك أمراً مهماً فاته أن يأمر به أهل بلدة نوح في ميوات ، فلا بأس بالوقت ولو كان هو الهجيع الأخير من الليل ، فيمشي على رجليه من بستي نظام الدين في دلهي الجديدة ويدخل على الحاج نسيم[١]. في بيته في دلهي القديمة ، ويستعير منه سيارة يركبها ، فتقف به في نوح والوقت وقت السحر ، والناس نيام

---

(١) كان من كبار تجار دلهي المتفوقين ، المساعدين على عمل الدعوة.

والبلدة ساكنة ، فيشبع غرضه ، ويصلي الفجر ، ويأخذ طريقه إلى دلهي.

والسفر مجهز إلى ميوات فلا حرج ولو أمطر السماء مطراً غزيراً سالت به الشواع والمستنقعات والبلاليع ، ولا حاجة إلى عربة الحصان ولو ألح الناس ، فليكن المشي على الأقدام ولو كان الماء إلى الركبتين ، وقد صدق الشيخ محمد منظور النعماني حين قال في إحدى كتاباته :

إنه وإن كان نحيف الجسم ضعيف البدن ، بذل في هذا الغرض الشريف من الجهود المتواصلة والسعي الحثيث ، ما لا يستطيع ـ على حد تقديري ـ المزيد عليه من تمثلت له الجنة ـ على حد الفرض ـ بآلائها ونعمائها وزينتها وزخارفها ، وتجلت له جهنم بأهوالها وأخطارها ومكارهها ومتاعبها ، وقيل له : إذا عملت بهذا دخلت هذه الجنة ، وإن أبيت أدخلت هذه النار[1].

وأما رفقاؤه في العمل ، فكان يعنى بإراحتهم عناية ممكنة ، ويوفر لهم أسباب الراحة ما يستطيعها ولا يكلفهم شيئاً يكرهونه إلا إذا اضطرته ضرورة ملحة ، فيشجعهم على الجد والاجتهاد والتحمل.

---

(١) اقرأ «تجارب حياتي» في الأردية للشيخ محمد منظور النعماني.

فكان مرة في جولة تبليغية في ميوات ودعته حاجة إلى أن يعود إلى دلهي ، فيتولى العمل بعض أعضاء الوفد فأوصاهم قائلاً : عليكم بالجد والسعي ، وعهد إلى الأعضاء الميواتيين بتوفير الراحة قائلاً : وعليكم بالاجتهاد في توفير الراحة والتسهيلات ، ثم غادرهم وهو يقول : إن كان نصيبكم من الراحة فحسب فذلك هو الهزيمة .

وكان لا يريد ما يهيىء الله له من أسباب الراحة والنعيم ، بل يقدره حق قدره ، فيتمتع به كنعمة من نعم الله أكرمه الله بها ، فلا يتكلف غائباً ولا يرد موجوداً ، وذلك هو كان مبدؤه المتبع طوال حياته .

أجل ولم يكن يتكلف المشقة والصعوبة والعسر إذ أنه كان يتشجع على الطموح وبعد الهمة ، والعزيمة النافذة ، في المحاولات الدينية ، فكان يطلب إلى أهل ميوات الذين يخرجون في الجولات الدعوية أن يحافظوا على بساطتهم وعادتهم على الجد والكد ، فإن ذلك هو جوهرهم الأصيل ، فسلام على التصنع والسهولة اللذين يعتادهما أهل المدن ، فذلك هو نقطة ضعفهم وداؤهم العضال ، فليفضلوا البساطة في المأكل والملبس ، وليفضلوا النوم على سطح الأرض وليعتادوا تحمل الشدائد .

ويخاف أن يتأثروا بأبناء المدن عن طريق الاختلاف إليهم فيرغبوا في معيشتهم ذات الراحة والتنعم والسهولة .

وكان يقول: الإنسان مجبول على تحمل الشدائد والصمود للمشاق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ فإن لم يكن ذلك في أعمال الخير وفي سبيل الدين، فسيكون فيما لا يغنيه عند الله شيئاً، كما نلاحظ ذلك في يومنا هذا، فأين هذه البضاعة المزجاة من المجهودات والمشاق التي نتجشمها في سبيل الدين، والدين هو الغاية الأساسية وفي أعمال الخير المثاب عليها في الآخرة من تلك الجهود الجبارة الفخمة المتوالية التي يبذلها العالم المعاصر المجنون اليوم في سبيل الأغراض التافهة والآمال والأحلام الموهوم تحققها؟!

وقال ـ وقد بلغه مرض أحد رفقائه ـ: إنه ليس شيئاً ذا قيمة كبيرة أن يصاب أحد بالحمى في سبيل الدين في العصر الذي يضحي الرجل فيه بنفسه في سبيل لقمة العيش.

ويقول في رسالة له:

«لن يكرمنا الله بسعادة الآخرة والقرب والإحسان حتى تكون كفة المجهود الديني هي الراجحة وكفة المجهود الدنيوي هي الطائشة».

ويقول في كتاب آخر ما خلاصته:

«إن رحمة الله تعالى تنزل بقدر انكسار القلب، وذلك بتحمل الشدائد والصبر للمصائب، والمتاعب، أنا عند المنكسرة قلوبهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وسوف لا يدرك المجد،

ولا يكتب العز ، إلا بالجد والكد ـ إلا استثنائياً ـ والنجاح في كل شيء منوط بالاجتهاد فيه».

وكان يحبذ ويقدر تقديراً بالغاً ، خطوة واحدة يخطوها أحد ، ويستعظم تعباً يسيراً يذوقه رجل ، نظراً إلى بعد العصر الذي نعيش فيه عن خير القرون وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى سقوط الإرادة ، والفتور في الهمة ، وهذا التقدير والتحبيذ هو الذي جعل أصحابه من حوله من أولي الهمم الفاترة ، أصحاب طموح وإرادة ماضية وهمة بعيدة ، وأصبحوا يسرعون في السير في سبيل الغاية ، يقول في رسالة إلى كاتب هذه السطور وجهها إليه وقد أصيب بالحمى في جولة تبليغية:

«أود أن أخبركم أن خروجاً في سبيل الله في هذا القرن الرابع عشر الهجري هو الذي تسبب في مرضكم».

هل أنت إلا إصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت

فليست هذه الحمى في ظاهرها إلا الحمى التي يصاب بها كثير من بني البشر من حين لآخر ، إلا أنها تمتاز عن أخواتها لو رأينا أن السبب فيها هو السعي وراء فتح طريق للحياة لو تم هذا الفتح ـ ولو بعد تضحيات نفس ـ لتسنى لكل فرد من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ممن حبستهم الأشغال والأعمال ـ أن يتمتعوا بحظ وافر من الرشد والهدى.

ويقول في رسالة أخرى:

إن هذا الدين ليست التضحية بالأنفس والمهج في سبيله شيئاً ذا خطر، وإنما تستوفى قيمتها بعض الشيء عبرات غزار ودموع سخية، وتألم القلوب وتحرق الأكباد والصدور، ومن هنالك فإن هذه الجهود الضئيلة وهذه الخطوات العدة ليست من الأهمية بمكان بالنسبة إلى ضخامة وعظم المسؤولية، إلا أن النظرة إلى رحمة الله ورأفته وعطفه وكرمه، وإلى قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] تبعث الأمل الكبير.

وكان الشيخ يجمع بين التحريض وتأليف القلب، فيقدر كل عمل ضئيل وسعي قليل، ويأخذ حين التحريض بأقصى الناحية، ويلتفت بالناس إلى أبعد الغايات، ويضع نصب عيونهم أرفع الأعمال وأعلاها وأكثرها، حتى لا يزهوا ولا يتباهوا بما أتوا به.

علو الهمة:

أما الطموح وبعد الهمة فذلك جوهر حياته، ومزيته التي ينطلق بها واقع حياته، وتدل عليها أوضح الدلالة كتاباته وأقواله وأعماله، والغاية التي وهب لها حياته ودعا إليها الناس لا تتفق ـ ولا بعض الشيء ـ وما حوله من البيئات وكانت ترتفع جد ارتفاع على مستوى عقلية العصر الذي عاش فيه، ولذلك فكان يضن على

الناس بآماله البعيدة وعزائمه العالية التي كانت تموج في قلبه ، وقلما كان يبديهما لأحد ، عملاً منه «خاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعينوا على أموركم بالكتمان» غير أنه يتوسم ذلك بعض من لديه أحياناً في كلامه وكتاباته.

فقال مرة لأحد من ذويه ـ وهو الأستاذ ظهير الحسن[1] ـ: يا أخي إن هؤلاء لا يكادون يدركون ماذا أريده من وراء محاولاتي ، وهناك أناس يفهمون أن هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ ـ حركة إقامة الصلاة فحسب ، لا والله ليس الأمر كما يفهمونه.

وقال يوماً في صوت فيه غاية الحسرة:

«أخي! ظهير الحسن! أود أن أجعل من هؤلاء الناس أمة جديدة»

فهذه الحركة لم تكن عنده كحركات طارئة ـ وما أكثرها ـ تثور وتهدأ ، ولو بعد قرن أو قرون ، وإنما كان يريدها حركة ماضية إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها تعمل عملها ، وتحيي ما يموت من

---

(١) أحد أعضاء أسرته وأقاربه ، كان من المثقفين بالثقافة الحديثة ، خريج جامعة عليكراه الإسلامية وزميل الدكتور ذاكر حسين خان رئيس الجمهورية الهندية سابقاً ، توفي في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٦٦هـ (٩ من أكتوبر ١٩٤٧م) قتله أحد الهندوس ـ وهو من أصدقائه ـ بالرصاص ، وذلك على أثر التقسيم في وطنه كاندهلة.

الدين وتجدد النشاط ، وتبعث الحماس ، وتقطع اليأس ، وتربط بالله الناس.

يدل على ذلك مقتطف من رسالة له إلى كاتب هذه السطور ، يقول فيها :

«تلقّيت كتابكم الكريم الذي شمل المجلس بالشيء الكثير من الفرح والسرور ، بما حمله من الأنباء السارة ـ جعلها الله صادرة من صميم الواقع ـ ولندع الله أن يجعل هذه الحركة ـ بفضل قدرته التي بها وحدها جعل السموات السبع والأرضين تقوم بغير عمد ترونها ـ حركة ذات عمر طويل ، فلا تكون كالماء يفور فوراناً ، ويفيض فيضاناً ثم يهدأ ، ولا تكون سطحية عابرة ، فتبرد بعد مدة ، ولتكن محكمة البناء ، مركزة الأجزاء».

وكان يود أن لا يواكب هذه الحركة الدعوية ما يجعل الناس يفهمون أنها تختص بشخصه ، وتدور بإدارته وستموت بموته ، فلا يسعى لها الناس بعده ، ولذلك فكان يدعو إليها العلماء على اختلاف وجهاتهم واتجاهاتهم ، حتى لا تفهم حركة شخصية ، ويرفض أن تنمى إليه ، بل كان يريدها حركة عامة شاملة يسهم في السعي لها ، وبذل المحاولات فيها كل المسلمين أيا كانوا.

ولا يسره خروج عدة مئات من الرجال إلى الجولات الدعوية أو إلى الرحلات الدراسية ، أو إلى طلب العلوم الدينية ، وكان يتمنى أن يأتي الوقت الذي يرى بأم عينيه خروج مئات الآلاف من الرجال

بل ويكون ذلك جزءاً من حياتهم لازماً حتى يعودوا لا معدى لهم عن ممارسته.

ولم يكن عنده من الأهمية بمكان أن تحدث تحولات إسلامية في أخلاق وعادات أهل «ميوات» فحسب ، أو الشعب المسلم في أية قطعة من الأرض ، إذ كان يود أن لو وفق ليبدل لغة البلاد بأسرها بالأخرى ، وهي اللغة العربية لا غير ، وأنه يعتقد أن جهود الإنسان لو حالفها التوفيق ، وسعدت بعون الله ، تجعل كل شيء في الحياة ممكناً مستطاعاً ، بل ومحققاً مجسداً.

وكان يود إحياء اللغة العربية ولا سيما في أوساط المدارس العربية الدينية في الهند ، فيقول في كتاب إلى كاتب هذه السطور:

«هناك أفكار وعواطف تزخر في صدري لا أبوح بها لأحد ، ظناً مني أن ذلك لم يأن أوانه إلا أني لأرجو منكم إمعان النظر فيما إذا كان من الممكن إلزام تلاميذ المدارس العربية ـ في جولاتهم الدعوية ورحلاتهم التبليغية ـ باللغة العربية في التحادث».

ثم أحيط به علماً بأن ذلك قد جرب فعلاً في الجولات الدعوية التي كان يقوم بها طلبة دار العلوم الثالثة لندوة العلماء تحت إشراف الأساتذة ، ودخل مشروعه في مرحلة العمل مكللاً بالنجاح ، فكتب إلي في غاية السرور:

«قد سرني جد سرور إحياء اللغة العربية ، أدعو الله أن يجعل

ذلك يستقطب عناية رجال المدارس العربية الأخرى إلى ذلك فينهجوا هذا المنهج».

وكان بوده أن تتخطى هذه الحركة حدود الهند، وتشمل مشارق الأرض ومغاربها، ولا سيما الأقطار الإسلامية والبلاد العربية، وقد خطط لذلك تخطيطاً دقيقاً، وكانت عواطفه الجياشة قد علقت آمالاً بعيدة وأماني نبيلة على هذا العمل الشريف وآثاره وثماره وبركاته، وقد يبدي بعض هذه الآمال بلهجة فيها الشيء الكثير من مزيج الحماس والتألم، والتوجع والتأسف، فلم تكن قائمة اللاإمكانات (المستحيلات) عنده طويلة بالقدر الذي يفترضه افتراضاً فاترو الهمة، فاقدو الأمل، فكان يبذل محاولاته صادراً عن ثقة لاثقة بعدها ويقين لا يقين بعده، كما كان يدعو الله كذلك دعوة مؤمن بالاستجابة وبمحالفة التوفيق، وانفتاح الطريق ولا يستبعد شيئاً عن رحمته الشاملة وقدرته التي أطافت بكل شيء، وعونه الذي ينتظر كل مستعين، يتجلى ذلك في رسالته إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، التي هي الدليل الواضح على عاطفته المتحمسة، وألمه العميق:

«إني أسألك بكل إلحاح وعزيمة، وبالله تعالى أن تتنازل عن حسبانك عمل الدعوة هذا من اللاممكنات أو الممتنعات، نظراً إلى قوله تعالى في حديث قدسي: «أنا عند ظن عبدي بي» ثم إلى «سعة القدرة الإلهية» فلتعتقد فيه أنه مما يتم بكل سهولة، زملائي! إنه

لا ينبغي لأولي الأبصار أن ينظروا في أمور الحياة إلى عجز المخلوق ، وتعقّد الظروف والأوضاع ، تفادياً من النظر إلى قدرة خالق السموات والأرض ، مكور الليل على النهار ، وأن ينظروا في الأسباب المطلوبة ، بدلاً من أن ينظروا إلى الخطابات الإلهية المشجعة ، إن سنة الله الأزلية تنادي بأعلى صوتها إنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويعطي ما يسأله ، ويحقق كل ما يرجوه ، فماذا يمنع ذوي الفطانة أمثالك أن يسألوا الله ـ مسألة إلحاح وإلحاف ـ التوفيق لتحقيق ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتريده الشريعة ، وسامحني فإني ربما يجعلني «جنوني» هذا لا أتمكن من مراعاة مكانة ذي الجاه الكبير ، والمنصب الخطير ، فأرجوك إعمال العفو العريق والإرفاد بالدعاء إلى المولى الكريم .

والأسف كل الأسف أن «العزيمة الماضية» و«الهمة النافذة» التي يعبر عنها رجال التاريخ ـ إذا ما تتصل بالحاكمين اوالفاتحين ـ بـ «عزيمة الفاتحين» و«إرادة الحاكمين» فتتضخم وتتفخم ، لكن يعبر عنها القوم إذا توجد لدى رجال اليقين والإخلاص والإحسان بأحوال «الجذب» و«الكيف» فتصغر وتهون ، ولا غرو فقد تعوّد الناس منذ قديم على التعبير عن شيء لم يكنهوه بالأحاجي والأساطير» .

الغيرة الدينية :

وقد أودع الله في طبعه غيرة على الدين زائدة لا تحسن وصفها

الكلمات ، فقد كان السبب المباشر في تألمه وتوجعه ، وقلقه واضطرابه ـ ذلك الذي يدعه لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له حال ـ وفي تأسيسه حركة الدعوة ، والتبليغ ، هو هذا الانحطاط الديني الملموس ، لقاء غلبة الكفر ، وقوى الشر المتزايدة ، الأمر الذي كانت تأباه غيرته القوية على الدين ووعيه الإسلامي الصحيح ، إلا أن الاستراتيجية الحكيمة التي جعلها نصب عينيه ـ بتوفيق من الله بوحي من بصيرته الوقادة وتعمقه في الدين ـ للعمل الإسلامي والخدمة الدينية ، كان لا يحب أن يغيرها أو يعدلها بعض تعديل انطلاقاً مع العاطفة المتوثبة الثائرة.

وربما كان يتحمل أشياء تتنافى مع طبعه الغيور الحساس ، كأنه لم يشعر بها ، بما أوتي من قوة الاحتمال والصبر على المكاره ، إلا أنه قد تفيض كأس الصبر بقطرات ، وترتفع شعل من الجمرة الملتهبة في صدره ، فتدلنا على مدى الغيرة الهائجة الكامنة في قلبه.

وقد سألته ـ أنا ـ ذات مرة ـ كاتب السطور ـ ونحن نمر بالقلعة الحمراء التي بناها الملك المغولي شاهجان في دلهي: هل زرت القلعة؟ فقال: إن هذه القلعة عندي تدل على فقدان الغيرة الدينية ، إلا أني زرتها في صباي حينما كان الدليل يطوف بالناس عليها وفي أنحائها وعيناه تذرفان.

وهنالك في الهند اختبارات في بعض العلوم العربية

والإسلامية ، تمنح الجامعات الرسمية العصرية الفائزين فيها شهادات ، توفر لهم إمكانات الوظائف في المناصب الحكومية.

وكان الشيخ يتأذى من تلك الاختبارات كثيراً ، كان يقول: إن هذه الاختبارات تحدث تحولاً كلياً في النسبة وتربط حملة هذه الشهادات بالمادية وبالدنيا وبحطامها ، على حساب المعرفة بالدين وبالله وبالرسول ، وبالتالي تذهب برواء وبركة العلوم والفنون التي يمتحن فيها هؤلاء وقد يكون المختبر ـ بالكسر ـ في هذه المواد العربية والإسلامية من لا يرعى للإسلام وأهله إلاًّ ولا ذمةً ، وعنده رصيد ضخم من الحقد والعصبية ضد الإسلام ، وضد هذه العلوم لمن ينتمي إليها.

فكان يعز على الشيخ أن يكون المسلم متطفلاً على مائدة الأجنبي فيما يتصل بالعلوم العربية والإسلامية ، يقول في رسالة له إلى أحد من الغيارى من المسلمين:

«أخي إني لأغار أن يكون هناك رجال يكفرون بالله ورسوله ، يمتحنون المسلمين في العلوم العربية ، وكان يعتبر بعض معاصريه الذين كانوا في الواقع مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ . . . .﴾ [الفتح: ٢٩] إماماً في البغض في الله» ويقول: «إن هذا الخلق حقيق بأن يكتسبه كل مسلم.

وكان عزيزاً عليه الصبر على إنكار لحكم من أحكام الشريعة أو

عيب عليه ، أو استخفاف به ، فما هو إلا أن كان يثور وينبض ويفور عرقه «الصديقي» على مثل هذا الانتقاص والوضع عما يتعلق بالدين ولا تحول دون الإنكار على ذلك والتنديد به مصلحة أو غرض ، فقد ركز عناية كبيرة على مقاومة حركة الإلحاد التي كان يقودها بعض الهنادك المتعصبين المتحمسين ، ولذلك فلم تنجح تلك الحركة الإلحادية في منطقة ميوات.

حرصه الشديد على اتباع السنة:

وكان لديه من الحرص الشديد على اتباع السنة ما يندر وجوده في يوم الناس هذا ، ذلك الذي كان يذكرنا بأسوة الأئمة السلف الصالحين ، ومدى عنايتهم بهذه الناحية ، وكان مطبوعاً على أن يتبع حتى من السنن الصغيرة ما لا يحسب القوم له حساباً ، ولا يلقون له بالاً ، أما المواظبة عملاً وقياماً بها ، والسعي وراء إحيائها ونشرها ، وترغيبها وتحبيبها إلى الناس ، فله في ذلك دور أي دور.

فدعا الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي في آخر يوم من حياته ـ وهو أشغل يوم في حياته ـ الإنسان ، وأكد عليه الوصية أن يتبع ويتقصى من دواوين السنة ومجاميعها كل جزء يتعلق بحياة النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان من الأعمال أو الأقوال أو الأخلاق والعادات ، وكرر عليه التأكيد أن ينفق في نشره وترويجه ما يستطيعه من الجهد ، وما يمكنه من السعي ، وما يملكه من الوقت.

وأما الذين لم يشهدوا حين ذلك، فجعل فيهم أحد المخلصين ـ وهو الأستاذ عبد الرحمن ـ ولي الوصية بذلك ، وأناط به مسؤولية إبلاغ رسالته إلى الذين لم يتلقوا رسالته مباشرة التي تتضمن تأكيداً أي تأكيد على اتباع السنة وعلى أن ما اصطلح عليه الفقهاء ورجالات الاجتهاد ، وما صنفوه من أنواع وأصناف ، وما فضلوه ورجحوه من الأحكام ، كل ذلك حق ، وله نصيب من السداد ، إلا أن كل ما ينتمي إلى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فلا بد من اعتباره ضرورياً بالنسبة إلى العمل.

وهذا الحب الكبير والحرص الشديد على الاتباع والتأسي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أثر بالإضافة إلى ناحية العبادات في عامة عاداته كذلك ، فكان يود أن يتأسي به صلى الله عليه وآله وسلم في الأمور الطبيعية ، والشؤون الاضطرارية ، فكان يحضر المسجد خلال مرضه الذي توفي به متهادياً بين رجلين ، اندفاعاً وراء التشبه بهيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حضوره المسجد في مرض وفاته التي صورتها الأحاديث: فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض ، حتى كان يعز على الشيخ لو حدث خلاف ذلك يوماً.

وأن هناك لاتباع السنة منزلَة دقيقة دقة قصوى وذات خطورة كبرى ، هي أن يتأثر الإنسان بالأحوال والحوادث البشرية العامة في

الحدود الشرعية ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحزن طبعاً بصفته بشراً ، بالحوادث والعوامل التي تسبب الحزن ، كما كان يتكيف بكيفية السرور والحمد والشكر في مواطن السرور والغبطة ، وقد ينشأ سوء فهم لبعض الناس فيفهمون أنه لا بد لاكتمال الروحانية والربانية ، وللترقي في مدارج الكمال ، أن يتحلل البشر من جميع الإحساسات والكيفيات والانفعالات البشرية ، فلا يحزن أبداً من المحزنات ، ولا يسر من المضحكات.

وهذا هو الشيخ السرهندي يعيب على شيخ جليل أعرب عن عدم تأثره من نعي وفاة ابنه ، ولم يعر ذلك اهتماماً ، ولم يبد أي حزن يحزنه الثاكل ، يقول السرهندي: إنه لما توفي ابن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سمعه الناس يقول:

«إن العين لتدمع ، والقلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وأظن أنا أنه ربما ما بلغه نقد الشيخ السرهندي لهذا الشيخ ، لكنه كتب إلى والده نفس المعنى ، مما يدل على كمال اتباعه للسنة ، وفهمه العميق الدقيق لروح الشريعة:

قد كتبتم إلى العزيز يوسف[١] كتاباً يدل على عدم حزنكم فلتذكر

---

(١) هو صديق الشيخ محمد إلياس المترجم ، وخليفته وأمير جماعة التبليغ بعده ، الذي توسع فيه أمر الدعوة والتبليغ توسعاً كبيراً.

أن ذلك مما تنكره الشريعة ، ولا بد أن عوامل الحزن قد فعلت فيكم فعلها ، إلا أن إبداء التأثر من الحزن هو ضروري كذلك وأنكم بدوركم تعلمون جيداً أن كل حالة يصاب بها العبد من الله ، لا بد من التأثر منها ثم الإعراب عن هذا التأثر .

وإلى المكتوب إليه نفسه كتب عند ولادة ابن له :

(إن ذلك لنعمة كبرى من الله جل وعلا ، لا بد من الاغتباط بها من صميم القلب وإن لم يتأت السرور طبعاً وعفواً ، وانطلاقاً من القلب ، فلا بد من اصطناعه ، وإبدائه شكراً لله العزيز القدير) .

حلمه وتواضعه :

وكان غاية في الحلم والأناة إلى جانب غاية إرهاف الحس ، ورقة الشعور ، وكم كان يشق عليه أن يسمع أو يرى شيئاً لا يمس الهدف مساً ، ولا يتصل بالغرض اتصالاً ، ولكنه يتحمل كل ذلك ليله ونهاره نظراً منه إلى طبيعة وخطورة العمل ، الذي حمل عباه ، وإدراكاً منه أن ذلك العمل إلى المخالطة الشاملة والاحتكاك بالناس أحوج منه إلى شيء آخر ، وظل يستخدم قوة احتماله ، طيلة العمر ، حتى في المرحلة الأخيرة من حياته ، أيام كاد يتملك عليه الضعف ، والتفاني في الغاية ، هذه القوة : قوي الصبر والاحتمال .

فقد سمعنا أن رجلاً من ذوي العلم والثقافة كان رفيقاً له في سفره ، ولقي منه معاملة قاسية وسوء خلق واستخفافاً به طول السفر

فيتحمل ذلك بكل حلم ، وهو يرى ويسمع ، ثم قال مخاطباً له :

«أفهل تظن أن غضبي يثور عليك على ما تفعله ، لا ، كلا! إن لغضبي قيمة ولا أضيع ماءه بوضعه في غير موضعه» .

خرجت مرة في بعثة دعوية إلى قرية من قرى الهند ، وكان الشيخ رئيسها ، فلما قدمت القرية أخذت تقوم بجولتها فيها ، ووقف الشيخ في مسجد القرية ، وبعد ما أرضت البعثة حاجتها إلى الجولة ، عادت ساحبة معها فتى من القرية إلى المسجد ، وألفيت الشيخ وهو يخرج من المسجد ، فقدمت الفتى إليه قائلاً : إن هذا لا يصلي ولا واحدة من الصلوات الخمس ، ثم شكوت إليه استهزاءه بالدين ، وفعلاً قد جعل الرجل يضحك ساخراً من الشيخ على حساب الإجلال والإكرام ، غير أن ذلك لم يثر في الشيخ شيئاً مما يسمى بالغضب أو السخط ، وإنما أثار الشيء الكثير من الشفقة والحنان فالتفت إلى الفتى ، ووضع يده على ذقنه داعياً له : أضحككم الله ما دمت حياً ثم وعظه بشأن الصلاة بأسلوب فيه كل البساطة ، فرضي الفتى من ساعته ، وتوجه إلى المسجد .

وفي جولة دعوية اتفق له أن وضع يده على رجل يدعوه إلى المساهمة في الخروج لتبليغ دين الله ، فاستشاط الرجل غضباً ، يقول : لوعدت لمثله بعد لانهلت عليك ضرباً بالعصا ، فأخذ برجله يقول : إنك لم تمنعني من رجلك . فهدأت ثائرته ، وأصبح هيناً ليناً .

وكان في رحلة دعوية ، فلما أراد الرجوع إلى دلهي ركب على

عربة يجرها ثوران لكي توصله إلى موقف السيارات ، وكاد أن يحين موعد مغادرة السيارة التي توصله إلى دلهي ، فتقدم إلى الموقف رجل يستوقفها ، وكان سائق العربة يسوق الثورين متباطئاً ، وكرر عليه الراكبون الإلحاح ولكن بدون جدوى ، ولم يقع من نفسه أي موقع ، وظل كعادته يسوق بأناة ، وقد وصلوا إلى الموقف فإذا بالسيارة قد غادرت ، فجعل رفقاء سفره يصبون على السائق من العتاب واللوم والزجر ، ألواناً وأشكالاً ، وقد أدى الإسراف في الغضب ببعضهم من الكلام إلى ما ليس من عادتهم ، أما الشيخ فلم يزد على أن يقول: أخي! ماذا عليك لو أطعت هؤلاء فيما كانوا يلحون عليك؟

وكان من عادته أن يغضب شديداً فيما يتعلق بعمل الدعوة ، على من يتوسم فيهم الإخلاص المفرط ويدرك الصلة المتينة بينه وبينهم ، حتى قد ينفجرون بكاء ، غير أن ذلك لا يزيدهم إلا صلة به ، واعتقاداً فيه ، وإعجاباً به ، ورضا عنه ، وقد سمعناه يقول: إني دعوت الله أن يجعل الغضب الذي أغضبه على أحد ، رحمة عليه.

الشيخ محمد إلياس في ضوء رسائله:

كتب في موضع:

يجب أن يخلص العبد سعياً في إعلاء كلمة الله وتبليغ رسالته ، مؤمناً بأن الله مولاه ناشداً لرضاه ، مستعداً لما بعد الموت ، فإن

الأجر الموعود من الله يتوقف على ذلك، ولم يدل على هذه الحقيقة الحصر الذي في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[١] فحسب، بل تؤيدها ألوف من آيات كتاب رب العالمين.

وليعتبر العبد نفسه عاصية خاطئة، محفوفة بالأقذار والأضرار، مفسدة للأعمال، فإن حقيقة رحمة الله شيء لا يكاد يتراءى إلا بعد عبور جسر الموت، ولذلك فيجب أن ينوي في سعيه للدعوة ولتبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس، أن كل عبد من عباد الله ـ ويستثني في ذلك نفسه ـ هو صالح الطينة، شريف النفس في حق ذاته، فكل ما يقوم به من عمل سيكون صالحاً في مظهره وحقيقته، فسيجعل الله له نصيباً من هذا العمل ببركة هذه النفوس الزكية، بحكم: (الدال على الخير كفاعله).

ويقول وهو يؤكد على التفكير: ليس التفكير شيئاً يفوق الطاقة، فإنه توطين النفس على أن هذا العمل «الصالح» سيرضي الله، وأن الموت الذي لا مناص منه سيصلح حياتك الشهوانية وأن يؤمن الخارج في سبيل هذه الدعوة بكل ما يتضمنه: الدال على الخير كفاعله، ويعلق اليقين على كل ما سيؤتى من الأجر والثواب على الخروج في هذه السبيل، كل هذا هو التفكير.

---

(١) وتمام الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

وكان الشيخ حريصاً تمام الحرص على أن الذين يخرجون في سبيل الله لإعلاء كلمته وتبليغ دعوته ورسالته، ما أحسن أن يسهمهم في مهمتهم وأجرهم أعزاؤهم وأقرباؤهم، بإبداء الرغبة والرضا، والتشجيع والتقدير، والإشارة والترحيب، وكان الشيخ يود لو أتيح له أن يوجد في أبناء الأمة الإسلامية كلها على اختلاف ألوانها وطبقاتها شوقاً إلى الأجر والثواب، وحنيناً إلى الإيمان والاحتساب.

واستهل هذه العملية النبيلة من بيته وعشيرته، فقد وجه إلى أهل بيته من أرض الحجاز رسالة كتب فيها:

«انظروا: كيف يترك الإنسان أهله وعياله لأغراض دنيوية لمدة لا تحصى، ثم انظروا: أن هناك كثيراً من أبناء الإسلام هم في جنود الكفار، كيف يخاطرون بالأنفس والأرواح، ويقفون كل وقت على شفا حفرة من الموت لسد رمقهم وإشباع نداء بطونهم، فلا ينبغي لكم هذا التثبط، فوداعاً لهذا الضعف في الهمة والخور في الإرادة، وارضوا بفراقي هذا في خدمة الدين، بكل همة وعزيمة سيجعل الله لكم نصيبكم من هذا الأجر والثواب حسب رضاكم، واغتنموا أن أهلكم يتجشم المشاق ويتحمل العناء في سبيل الله وخدمة الدين، واشكروا الله على ما ستنالون من الأجر الذي لا ينتهي والعوض الذي لا يغض، وسيأتي كل عناء رخاء وكل صدمة هناء».

وكان كثير العمل بوصية: (آت كل ذي حق حقه) و(أنزلوا الناس منازلهم) ويمنح ذوي الفضل والعلم أقصى ما يستطيعه من التوقير والإكرام، ويعاملهم معاملة ممتازة جديرة بمكانتهم على قدر منازلهم، حتى يتحرى المكان الذي يجلسهم فيه، فيعده إعداداً، ويجالسهم مجالسة ذات تواضع وانخفاض كبيرين، ربما يلتبس من أجل ذلك التمييز بينه وبين جلسائه على من لا يعرفه من ذي قبل.

وكانت تتوافد البعثات التبليغية ذات العدد الكبير إلى بستي نظام الدين [مقر حركة الدعوة الرئيس] فكان يدرك بذكائه المفرط وبصيرته الوقادة منازل كل فرد من أعضاء تلك البعثات، ويعاملهم معاملة جديرة بشأنهم وبمكانهم، ويضع معه ما يستحقه من الإكرام، ومن ثم فلا يشكو أحد قلة العناية أو التفريط فيما يستحقه، وكان يعنى بهذا الأمر عناية لم يجد الإهمال والتقصير إليها منفذاً قط، حتى في أواخر أيام حياته عندما تشوش التفكير، وانشغل القلب والعقل فيما يعنيهما، وأصبح الجسم يعاني من آلام الأمراض المبرحة ما لا يعلمه إلا الله.

غير أن هذه العناية الكبيرة بالعلماء لا تجعل الدهماء يشعرون بالتفريط في حقهم، بل كان مجلسه يشمل الجلساء من العناية والإكرام ما يدع كلاًّ منهم يشعر أنه هو الأكرم عليه والأحب لديه إذا ما تفرقوا، يرى كل منهم فيما بينهم أن ما صنع به الشيخ هو آخر ما يصنع من الحب والعطف والإكرام معاً، فيتجلى في ذلك العدل

الشامل الذي يرويه الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحسب جليس أن أحداً أكرم عليه منه» وكان يحتفظ بهذا العدل في الحضر والسفر معاً، وأما بخصوص نفسه فكان يرفض كل ما يدل على امتياز ما، فنرى في رحلة دعوية يحمل رفيق حذاءيه، فينتزعهما من يده ويقبل يديه.

أما خدمة الضيوف ـ بمعناها الواسع ـ ولا سيما الذين كانوا يتوافدون كأعضاء في البعثات الدعوية وخصوصاً إذا كانوا من أولي العلم، فكان يراها فرضاً عليه ولا يطمئن إلى أحد من القرى والإكرام، يقول: «إن السنة تؤكد على إكرام عامة الضيوف فكيف بهؤلاء الخاصة؟».

يقول الأستاذ معين الله الندوي نائب أمين عام ندوة العلماء حالياً: كنت مرة في مقر الدعوة في دلهي الجديدة، في شهر رمضان، وأنا مريض، فلما حان الموعد الذي كنت أتناول فيه العشاء، وجعل بعض التلاميذ يحملون عشائي إليَّ في غرفة كنت ألازمها في الطابق العلوي، فقال الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ وقد نهض يصلي النوافل ـ: دعوه أحمله أنا إلى الأستاذ بعد فراغي من الصلاة، لكنهم أبوا إلا أن أحضروه عندي، والشيخ في صلاته، فلما انتهى من صلاته أسرع إلي يقول: قد قلت لهؤلاء: اتركوني أسعد بحمل العشاء إلى الأستاذ، فلم يرضوا ثم جلس إلي يحادثني، ويلاطفني ويؤنسني.

وكان يتخذ أظرف الطرق وألطفها إذا أراد أن يخص بعض الناس ببعض الإكرام والتوقير ، فقد حضرنا مرة في بعثة دعوية مكونة من تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء يربو عددهم على خمسة عشر طالباً فدخل الشيخ علينا في الربع الأخير من الليل بكوب من الشاي ، قائلاً : «إخواني انتخبوا أنتم من بينكم أحداً أقدم إليه هذا الكوب من الشاي ، فإنه واحد» ، فاجتمع رأيهم عَلَيَّ ، وشرفني الشيخ بمنحه إياي .

وقد تعود أن يركب من القطار عربة من عربات الدرجة الثالثة ، فاتفق له أن يركب الدرجة الثانية ، على إلحاح أكيد من بعض المرافقين ، غير أنه لم ينعم بذلك ، ولم يسغه ضميره ، بل جعل يساور قلبه الشيء الكثير من الحرج والضيق والخفقان ، وقد قرأ بعضهم ذلك على صفحة وجهه ، فبادر إليه قائلاً : هل يتأذى السيد بشيء ـ لا سمح الله بذلك؟ ـ فلم ينبس ببنت شفة تعبر عن شيء من الحرج والضيق اللذين يعانيهما ، مخافة أن يؤذيهم ذلك ، ويسبب لهم الخجل والندامة فيتأسفون على أنهم قد اشتروا هذا الإيذاء بهذا الثمن الباهظ ، وأنهم أرادوا الإراحة فحصلوا على الإيذاء على حسابها ، ولو قال الشيخ إنه قد نعم بالراحة والطمأنينة ، لكان كذباً لكونه ضد الواقع الذي كان يجتازه ، فوجه إليهم سؤالاً عوضاً عن أن يجيبهم بـلا أو نعم ، أفهل تشعرون بالغبطة والسرور بمجلسي في هذه الدرجـة؟ قالوا : أجل وكثيراً ، فقال : «قد كفاني ذلك

سروراً وراحة ونعمة» ومن مجامع التواضع في الشيخ أنه لا يرى نفسه قيمـة بأي شيء مما يسمى بالتكريم والحفاوة والاحترام وما إلى ذلك من كلمات المعنى ، ولم يشعر في يوم ما ـ وهو أدق شعوراً وأرهف حساً ـ بأنه من أجلة العلماء وكبار الشيوخ ، وقائد ومؤسس أول حركة دعوية كبيرة من نوعها ، ووراءه حشد من المسلمين لا يأتي عليهم الحصر ، يعدون إشارته حكماً وطاعته غنماً.

كتب مرة إلى هذا العاجز ، يقول :

« . . .إنه لمن أماني القلبية أن تقبلوا التماسي ـ بشأن أن لا تزيدوا على اسمي المتواضع كلمة ما ، فإنه عندي تقليل من شأن الكلمات بها في مواضع استحقاقها» .

إن هذا الموقف من نفسه ليعكس عكساً واضحاً مدى الحلم والتواضع وإنكار الذات ، الأمر الذي كان سمة بارزة لشيخنا .

ويقول في رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي وهو ابن أخيه وتلميذه وأصغر منه سناً :

. . . تشرفت بتسلم كتابكم الكريم الذي استوجب لي الغبطة والسرور ، وإني لفي حنين شديد إلى قدومكم والاجتماع بكم .

ومن كان ليولي هذا الحقير التافه التفاتة ، إن لم يسعد هو بعناية أمثالكم ، فأول من تلقاني بالحفاوة والتكريم بعد الشيخ رحمه الله

ـ يعني الشيخ المحدث الكبير أحمد السهارنفوري صاحب «بذل المجهود في حل ألفاظ أبي داود» ـ هو أنتم ، ثم شملني أحد أولياء الله بعطفه وكرمه وكان ذلك أيضاً بفضلكم .

وإن نبأ قدومكم جعلني يخامرني مزيج عجيب من السرور والخوف ، أما السرور: فلأني أسعد بلقائكم. . . وأما الخوف: فلأني أخشى أن تطلعوا على دخائل النقص ، وكوامن قذارة النفس إلا أني أتطلع إلى لقائكم لأني أرجو أن نفسي ستوفق إلى الصلاح إذا جالست أمثالكم .

ويقول في كتاب آخر إلى الشيخ محمد زكريا نفسه:

«هنيئاً لأرباب القلوب التمتع بشهر رمضان المبارك، وما ينطوي عليه هذا الشهر الكريم من خير وبركة وأنوار ورحمة ، وأدعو الله أن يوفق العزيز الكريم لمزيد من الترقي في مدارج الرضا والقرب به والإنابة على مر الأيام ، ولا تسألوا عن بؤسي وضعف حالي ، وإنما التعويل على رحمة الله جل وعلا ، وأرجو الله تعالى أن يغفر لي ولأمثالي بدعاء وإنابة الشباب السريع السير في دروب الكمال الروحاني والإيمان أمثالكم» .

ولم يأمن على نفسه حتى في آخر لحظه من حياته ، وظل يحاسبها ويراقبها ، بل كلما زاد إقبال الخلق عليه والتفافهم حوله زاد هو خوفاً وإشفاقاً وقلقاً ، وزاد في الاستعداد والتسلح ضد

النفس الأمارة، وفي الأخذ بأسباب تعين على الاحتساب وتكسب الإخلاص، وطالما كتب إلى كثير من ذوي العلم ـ من أولي الإخلاص والحق والبصيرة الدينية ـ بأسلوب فيه كل الإلحاح واللجاجة أن ينبهوه لو رأوا فيه ما يؤدي إلى الإعجاب بالنفس أو الأنانية.

يقول في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا والشيخ عبد اللطيف عميد مدرسة مظاهر علوم سهارنفور في ولاية أترابرديش بالهند:

«عزيزي المحترم محمد زكريا وحضرة سيادة العميد! دامت بركاتكم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ أرجو أن تكونوا بكل خير وعافية، هناك أمر مهم ما زلت أوليه كل العناية فيما قبل رمضان المبارك، إلا أن الضعف البشري والضعف الإيماني اللذين أعاني منهما، جعلاني نسيته بتاتاً، وكنت قد عقدت العزم على أن أذكره لكم.

وهو أن هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ اتسع نطاقه، وتصعد نشاطه ـ بفضل الله وكرمه ـ وبلغ من شأنه أن جعلني لا آمن على نفسي العجب والكبر، ولذلك فإني في أمس الحاجة إلى مراقبة أمثالكم من ذوي الحق والصدق، فلتحتسبوني كما وصف لكم، ولا يغيبن عن ذاكرتكم في أية لمحة من الوقت أني محتاج إلى الرقابة والحراسة، فأكدوا على الصمود والأخذ بنواحي خير هذا الأمر والتحاشي عن نواحي شرِّه».

ويذكره العلامة السيد سليمان الندوي (رحمه الله تعالى) في مجلة: معارف العلمية الشهرية الشهيرة الصادرة من مجمع «دار المصنفين» أعظم جرا ، الهند في عدد شهر نوفمبر سنة ١٩٤٤ م ، فيقول:

«كان قد نظم أحد الأصدقاء حفلة شاي بعد صلاة العصر بمناسبة نزول الشيخ محمد إلياس بلكهنؤ وكنت قد سعدت بالحضور فيها ، فلما حانت الصلاة رحنا نصلي ، ولم يكن هناك مسجد نصلي فيه جماعة فاتفق رأي الأخوة على أن نصلي في ذلك القصر الذي كنا مجتمعين فيه ، فلما سووا الصف ، أشار إليّ الشيخ بالإمامة فاعتذرت ، فتقدم وصلى بنا ، فلما سلَّم أقبل على القوم يقول: إخواني! قد ابتليت ببلاء أرجو أن تدعوا الله جميعاً أن يفرجها عني ، وهو أني منذ أن نهضت لهذا العمل ، جعل الإخوة يمنحوني الود والاحترام ، حتى أصبحت أخاف على نفسي الكبر ، وأخوف ما أخافه عليّ ، هو أن أصير أحسب أني شيخ من الشيوخ قد تزكت نفسه ونقيت سيرته ، ولذلك فإني ظللت أواصل الدعاء أن يخرجني الله تعالى من هذا البلاء ، سليماً نقياً عفيفاً ، فأعينوني أنتم بالدعاء».

وأهدى إليه أحد الأخوة سجادة ثمينة ، فثقلت هي على طبعه جداً فلم يلبث أن تقدم بها هو إلى أحد كبار علماء البلد قائلاً: «تقبلوها على حقها ، فإن صاحبها قد أخطأ بها موضع استحقاقها

فأهداها إلي ظناً منه أني عالم يستحق الخدمة والهدية ، فأنا بدوري أهديها إلى من أراه من أولي العلم الذين هم أولى بها».

وفي أواخر الأيام من حياته وفي مرضه الذي توفي فيه جاء رجل ـ وقد تزاحم عليه أصناف من الزوار والعائدين ، وقد منع المصافحة نظراً إلى شدة مرضه ـ وجعل يتخطى رقاب القوم إليه يحاول أن يصافحه ، فأقبل إليه رجل من أهل ميوات وطرده بيديه بشدة ، فرجع الرجل على عقبيه يوجه إلى طبقة العلم والدين ما يستطيعه من السباب والشتم ، وقد أحسَّ بذلك الشيخ ، فاستدنى الميواتي يعاتبه ويقول: إن جرح قلب مسلم أبغض شيء لدى الله جل وعلا ، فاذهب إليه واستعفه واسترضه ، حتى يصفو ما بينه وبينك ، فذهب إليه وأدركه خارج المسجد ، وهو ممعن في السباب بأقوى لسان في فيه وأحدّه ، والميواتي واقف بين يديه على قدميه واضع إحدى يديه على الأخرى ، يكرر الاستغفار والاعتذار ويقول: إني قد آذيت قلبك ، فلك أن تعاتبني بما شئت ولكن عفواً ألتمسه منك.

سماحة صدره وسعة قلبه:

نشأت في الهند منذ مدة بعيدة حلقات ودوائر للعلم والدين ، وكل حلقة ترى الدين والعلم حكراً عليها ، ولا تتصور وجوداً لهما خارجها ، وعزيز عليها أن تعترف بفضل وعلم وتقوى حلقة أخرى ، ولا ينبسط أصحاب جماعة حين يجتمعون بأصحاب

جماعة أخرى انبساطهم فيما بينهم ولا يسرون سرور ذوي العلم والدين والتقى حين يتلاقون ويتحادثون ، واستفحل هذا الأمر شر استفحال حتى أصبح من اللاممكن لدى كثير من الناس الجمع بين حب رجلين يختلفان اختلافاً سياسياً أو نظرياً ، بل أو صناعياً ومهنياً ، يحسبون أن ذلك جمع بين الأضداد ، وذلك لا يمكن.

ومن جراء ذلك فإن دائرة الإفادة والاستفادة أخذت تتقلص وتنحسر بصورة مستمرة على حساب توسعها ، وأخذت الفجوة والجفوة تتعمقان وتتفسحان فيما بين أهل العلم والدين على حساب انكماشهما وزوالهما.

ولكن شيخنا قد وفر الله عليه من السماحة في الصدر والسعة في القلب ما يسع جميع الجماعات والأحزاب من أولي الحق على صنوف الخلافات وأنواع الميزات بينهم ، وكان في قلبه لكل منهم موضع حب ومكان ود ، فكأنه كما قال الشاعر العربي القديم :

لكل امرىء شعب من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

فهو يرى أن الأمة المسلمة لا يخلو فرد منها من مسكة خير ومسحة فضل ، وكل منها يختص بخصائص ويتصف بأوصاف ، ويتفرد بمؤهلات لا توجد في غيرها فليكن هو موضع احتفال واستفادة من هذه الناحية ، وكان الشيخ بدوره يستفيد من كل ذلك في دعوته ، وقد منحه الله قدرة عجيبة على الانتفاع بتلك الخصائص

والصلاحيات الوفيرة الخصبة ، وعلى استثمارها ولا سيما الذين كانوا يتوسمون فيه طبيعة منسجمة مع الدين ونزعة فطرية للخدمات الدينية ، فكان حريصاً على استخدامهم في الأعمال الإسلامية ، واتخاذهم مطايا لتصعيد وتوسع وتدعيم النشاطات الدينية والدعوية .

يكتب إلى رجل يوصيه في عامل في مجال الدعوة ، فيقول :

« . . لا بد من لفت النظر إلى استرعاء عناية بيوت السادة والسراة الكرام ، في التعليم والتبليغ معاً ، ولا يغيبن عن البال أن ذوي الكفاءات واللباقات تحول دون استلفاتهم واستمالتهم عقبات ربما تكون مستعصية ، وأكثرهم صلاحية ، هم أكثرهم امتناعاً واستغناء واستعصاء على عملية التقارب والتفاهم » .

ومن هنا فتكاتف في دعوته وحركته أساتذة وتلاميذ معاهد إسلامية ومدارس فكرية كثيرة ، من دار العلوم ديوبند إلى دار العلوم ندوة العلماء ، إلى مظاهر العلوم بسهارنفور ، إلى الجامعة الملية بدهلي الجديدة ، إلى كثير وكثير من الكليات والجامعات العصرية ، بجانب رجالات التجارة والزراعة والصناعة ، والموظفين والمحترمين ، ومن إليهم كثير من المسلمين ، الذين يعملون في مجالات شتى ، وينتمون إلى أحزاب وجماعات مختلفة ، كنا نشاهد فيما بينهم علاقة محكمة مفعمة بالتوادد والتآخي والتعارف والتعاون ، وليس هناك شعور بالغربة ، والشيخ

ينوه بالكفاءات والمزايا الشخصية والطبيعية في كل عامل ، فهذا: يتصف مثلاً بصلابة في الدين ، وذاك بالظرافة والدقة ، وهذا بذكاء وشهامة ، وذاك بخبرته الدقيقة وتجاربه الواسعة ، وكل ينال التشجيع والإشادة بمزاياه ، وعنده أن المؤهلات إنما أودعها الله في الإنسان لتستخدم للدين ونشره ولإعلاء كلمة الله ، فلترتكز على ذلك ولتنفق فيه ، ومن ثم فهو يتألم كثيراً حينما يراها توضع فيغير موضعها ، ويرى الشيخ أن الطبع المستقيم ، والقلب السليم ، والنشاط الوفير ، والذكاء المفرط ، والهمَّة البعيدة ، والإرادة القوية ، والطموح والشهامة ، والبصيرة والتيقظ والنظرة الغائرة الثاقبة ، و. . . . . و. . .

كل ذلك ، الدين أولى وأجدر به من الدنيا ، ولو تركز على العمل الإسلامي اندفعت عجلته إلى الأمام اندفاعاً أسرع وأقوى.

يوجه رسالة إلى تاجر ، يقول فيها :

«. . . . إني دوماً وددت من الأحباب المخلصين من الشباب والشيوخ أمثالكم أن يكونوا أعواناً لي على هذا العمل ، بكل ما لديهم من النشاط والحماس ، بل يكونوا هم أصلاً وأنا لهم تبعاً ، فإن همتكم وطموحكم وقوتكم وذكاءكم ، كل ذلك يؤهلكم

للنهوض بعمل حي من أي نوع كان ، وإن الأعمال الحية إنما يجدر بها رجال ذوو حيوية ونشاط .

وكان يريد الشيخ هذه المساهمة من الشعب بأسره ، جماعات وأحزاباً وأسراً وأفراداً .

وسماحة صدره تلك تتبلور كذلك في الرأي الذي يراه في العلماء الربانيين ومشايخ الطرق الحقة ، فكان يتلقى بكثير من الحفاوة والإكرام والسرور الغامر لو توجه أحد من هؤلاء بالمساهمة إلى عمل الدعوة ، وقد عرفته أنا في بعض الأيام ببعض المنتسبين إلى الطريقة المجددية والمنتمين إلى الشيخ الكبير فضل الرحمن الكنج مراد آبادي ـ شيخ ومربي العالم الكبير محمد علي المنيكري مؤسس ندوة العلماء ـ ففرح فرحاً كبيراً وتناولهم بكثير من المودة والاحتفاء وقال: إني منذ صباي أسمع عن مشايخ لا يفترون يقولون: إن من ألهم الرئاسة الدينية والتربية الربانية في يوم الناس هذا هما اثنان لا ثالث لهما ، وهما: الشيخ الكبير الإمام رشيد أحمد الكنكوهي ، في غربي الهند ، والشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي ، في شرقي الهند ، وأضاف قائلاً: إني أود أن يقبل على هذا العمل أصحاب وأتباع الشيخ فضل الرحمن ـ رحمه الله ـ. وكلما كان يتحدث عن كبار العلماء المعاصرين ، ورجال الفضل والتقى كان يلاحظ كل الملاحظة مكانتهم العلمية والدينية ، فيتحرى الأسلوب الذي يمثل الاعتراف بفضلهم وكبر

شأنهم ، مما يدل بعض الدلالـة على بعد نظره ودقة تحريه ورعايته.

وبفضل هذا القلب الكبير والصدر الرحيب ، استطاع أن يستعمل ـ لدعم العمل الدعوة والحركة التبليغية ـ العدد الكبير من أولئك الذين كان الرأي العام ينظر إليهم شزراً ، ويظن أن علاقتهم مع الدين وصلتهم بالله أفتر ما تكون ، فالعودة بهم إلى الدين ، وإيجاد العلاقة بينهم وبين العمل الإسلامي شيء في منتهى الصعوبة ، لكن الذي كنا نشاهده فيمن ينتسب إلى الشيخ ، كان يكذب هذا الظن ، ويفضح خطأ هذا الرأي في ضوء النهار ، فكنا نشاهد تحولاً واضحاً في حياة هؤلاء بعد ما يقبلون إلى الشيخ فيستخدمهم في عمل الدعوة ويربطهم ببعض رجال الدين وأهل اليقين ممن كان يثق بهم ، وكان يسند إلى كل من الأعمال ما يلائم طبيعته ومستواه العلمي والفكري ، ويتفق وصلاحيته وأوضاعه التي يعيشها ، وكان يشيد بعمله الذي قام به ، ويعرف له فضله ، ويقدره تقديره ، مما يحثه على عمل أكثر ، ويشجعه على بذل سعي أوفر ، ويقوي إرادته ، ويعزز همته ، ويؤكد عزيمته.

استقامته:

قد ذكرتنا استقامته في الدين ـ في العصر الذي أصبحت هي فيه أندر شيء وأقله وجوداً ـ بالاستقامة في السلف الصالح الكبار ،

حيث رأينا فيه على السنن الصغيرة من الاستقامة والحفاظ ما لو كان بعضه للقوم فيما يتصل بالفرائض والواجبات لكان موضع كل تقدير وتحبيذ.

والأيام الأخيرة من مرضه الذي توفي فيه، خير دليل على استقامته الفائقة، ففي ذلك المرض الذي دام أكثر من ستة أشهر، والذي جعله يفقد قواه يوماً بعد يوم، ويزداد ضعفاً وخوراً وانهياراً، حتى صار لا نكاد نسمع كلامه ما لم نقرب آذاننا إلى شفتيه ـ لم يفته الحفاظ على الصلاة مع الجماعة، وقبل وفاته بشهرين تقريباً قد شهدنا منه ما قضينا منه العجب، فكلما حانت الصلاة أخذه رجلان يقيمانه في الصف وهو لا يستطيع القيام والجلوس مباشرة، فلما استوى قائماً، وقال الإمام: الله أكبر فكأنه نشأت فيه قوة جديدة، مكنته من الركوع والسجود والقيام، حتى القيام في صلاة الفجر الذي يكون أطول منه في الصلوات الأخرى ركوعاً وسجوداً، كل ذلك بكل هدوء وطمأنينة، وما أن سلَّم الإمام إلا أصبح كأنه تجرد من كل مسكة فيه من القوة، فلا يقدر على أن يقوم بنفسه، فكان يعود إلى مكانه متهادياً بين رجلين، وأما في السنن فكان يعينه رجل منا على الركوع والسجود، ولما نوى الوتر، رفض كل عون، وعاد يباشر الركوع والسجود.

واستمر في الحفاظ على الجماعة حتى في الوقت الذي عجز عن القيام بتاتاً، ولم يفقد همته في القيام ولكن الأطباء منعوه منه

بإلحاح لا إلحاح بعده ، ولما عجز عن الجلوس أخذ يؤدي الصلاة مضطجعاً مع الجماعة ، فكان يصف سريره مع صف المصلين.

ولم تفته العناية كل العناية بالوضوء والسواك ، وحتى آخر لحظة من حياته ، وقد تولى بعض العلماء وجماعة من الإخوان الميواتيين مسؤولية الإعانة على الوضوء ، وكانوا يتعهدون في وضوئه كل الآداب والسنن ، ولم يتنازل عن الوضوء ، إلا حينما جعل الماء يضره شديداً ، وأكد عليه العلماء والأطباء المنع بالفتاوى ، معتبرين أن الأخذ بالرخصة التي أنعم بها الله على عباده عزيمة بنفسها ، ورفضها كفر بهذه النعمة ، كما أن العمل عزيمة في موطنها.

وهو ذو عناية كبيرة بالأذان والإقامة والجماعة في السفر ، والحضر كليهما ، ولا أذكر صلاة أداها دون الأذان والجماعة في الفترة الطويلة التي رافقته فيها في رحلات كثيرة وجولات ، سواء أكان السفر بالقطار أو بالسيارة أو بالعربة ، فقد أذن في القطار أحياناً وهو يموج بالركاب وقد لاحظنا أن المسافرين ما أن سمعوا الأذان حتى فسحوا لنا فاستوينا صفوفاً ، وصلينا جماعة.

وقد عدت من سفر معي رفيق لي لم يتمكن من أداء الصلاة في القطار من أجل الزحمة ، وبعد نزولنا فوراً أخذ رفيقي يقضي صلاته بادرت أنا فلاقيت الشيخ ، فسألني أول ما سألني: صليتم؟ قلت: قد صليت أنا ، وذا رفيقي يقضي صلاته ، فقد فاته الأداء لعذر ،

فتأسف الشيخ جداً، قال: أمارس هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ منذ نحو عشرين سنة، ولم تفتني ـ والحمد لله ـ أية صلاة مع الجماعة، حتى أعانني الله سبحانه وتعالى على أن اؤدي صلاة التراويح أيضاً في القطار.

وقد سبق أن ذكرت أنه ـ بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كان ملازماً لمنهج تربوي تدريجي ذي ترتيب خاص ومبادىء معتدلة، لكنه حينما يرى المنكر بواحاً ويرى أنه قد بلغ السيل الزبى، وطما الوادي على القرى، كان ينهج منهج السلف الكرام، والأئمة العظام، والعلماء الراسخين وهو نفس المنهج الذي نهجه النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد جاء في الحديث الشريف: «فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء».

وفي سنة ١٣٥٧ هـ خرج الشيخ للحج والزيارة، فاتفق أن قامت المنافسة بين الباخرتين على ميناء كراتشي وخففت إحداهما في الكراء وجعلتها ٥٥ روبية ـ بينما كانت في الأخرى ١٨٢ روبية ـ رغبة في جلب المسافرين إليها، إلا أن هذه الباخرة، كانت تقوم بإجراء اللقاح في ركابها طبيبة، فلما بلغ الشيخ ذلك قال ـ وقد استأثر به الغيظ ـ: أفي فريضة من فرائض الله يؤتى الحرام؟، أما أنا فلست بفاعل، وأخيراً اتصل أحد هاتفياً بطبيب فحضر، وقام بإجراء اللقاح فيه وفي رفقته.

الـدعـاء والإنـابـة إلـى الله :

الإنابة إلى الله في كل شيء وعلى كل حال ، والابتهال والتضرع ، والإكثار من الذكر والدعاء كل ذلك روح تتوقف عليه حياته ، وكان ذلك هو جوهر وقوام حركته الدعوية ، قد صرح بذلك فقال : إن الترتيب السديد فيما يتصل ببرامج حركتي هذه كما يلي :

الدور الطليعي في ذلك لا بد أن يكون للقلب ـ يعني الإنابة إلى الله بالقلب والقالب والتضرع إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه توكلاً يقطع الرجاء عن كل ما سواه ـ ويأتي بعد ذلك دور الجوارح في الدرجة الثانية . . ـ يعني السعي والاجتهاد وما إليهما ـ ثم يأتي دور اللسان في الدرجة الثالثة .

يريد أن الخطب والمحاضرات يكون لها أقل نصيب ، والسعي والجد لهما نصيب أكثر من الأول ، أما النصيب الأوفر الأكبر فهو للقلب ، فليكن القلب منيباً إلى الله ، متوكلاً عليه ، معلقاً به ، يعود إليه ويناجيه ويدعوه[١] .

وكان يأخذ الشيخ بهذا المبدأ بالنواجذ ، ومن يسعى سعيه ،

---

(١) مقتبس من «محاولة لنصرة الدين وإصلاح المسلمين» للشيخ محمد منظور النعماني .

ويعمل في حقل الدعوة والتبليغ تحت إشرافه ، وكان يوصي بذلك غيره ، وكتب إليَّ مرة ، يقول:

«. . . لا يغيبن عن البال أبداً ـ وليكن ذلك في عين الاعتبار دائماً ـ أن الهدف الأصيل من كل عمل ديني هو تصعيد قوة الدعاء والتضرع ، فلا تفوتن لحظة من الوقت دون العمل على ذلك ، ولئن تعود القلب على الانشغال بالدعاء بجمعية وحضور حين انشغال الجوارح بأعمالها لها من سعادة ، وإلا فانتهزوا كل فرصة بعد الصلوات الخمس المكتوبة ووقت من السحر ومناسبات الجولات الدعوية ، ولتكن هذه الأوقات كلها معمورة بالدعاء والإنابة.

وكان يلتمس ـ التماس المضطر الذي لا يقر له قرار ـ من أهل القلوب والإخلاص ، الدعاء لنجاح وانتشار الدعوة التي نهض بأعبائها ، وقد استحوذ ذلك على طبيعته ، ولا غرو فإنه من صميم العمل النبوي فهو عظيم وجليل ، ودقيق وخطير.

ويوجه إلى الشيخ محمد زكريا رسالة يقول فيها:

«. . . قد واصلت رحلاتي إلى ميوات كل أيام الجمعة غير شهر رمضان ، والأمر الذي أريد تحقيقه أنه بالتأكيد يفوق مؤهلاتي وكفاءاتي ، إنه من السمو بالمكان الذي ربما لا يسمو إليه الفهم والذكاء ، فضلاً عن تنفيذه ، وعلى الرغم من ذلك كله فإن طبعي لا يكاد يفكر في شيء سواه ، ولا يكاد يمل من ممارسة كل

المحاولات في سبيل وضعه موضع التنفيذ ، وقد أصبح لي ذلك الشغل الشاغل ، ولذلك فإن هذا الأمر يستحق كل العناية بالدعاء منكم ومن أمثالكم ، لكونه عملاً حساساً دقيقاً ولكونه المدار الوحيد لتبليغ الدين والتبشير به ، فلا تضنوا عليَّ بدعواتكم الصالحة ، وليس على الله بعزيز تحقيق أي سؤال ، وإنما هو الدعاء منكم بالإنابة والعناية ، وإن أمنيتي الحبيبة أن ينصرف كل من ذهني وفكري ، ووقتي وقوتي ، عن كل شيء في الحياة إلى شيء واحد ، وهو الدعوة والتبليغ لا غير ، وأخيراً لا أريد أن أطيل عليكم وإنما أريد أن تدعوا أنتم والآخرون من المشايخ الذين يمكنكم أن تستلفتوا اهتمامهم إلى الدعاء والعناية به» .

* * *

فهرس الموضوعات

